تاريخ العرب وحضارتهم
قبل الإسلام

دكتور

عطية القوصى

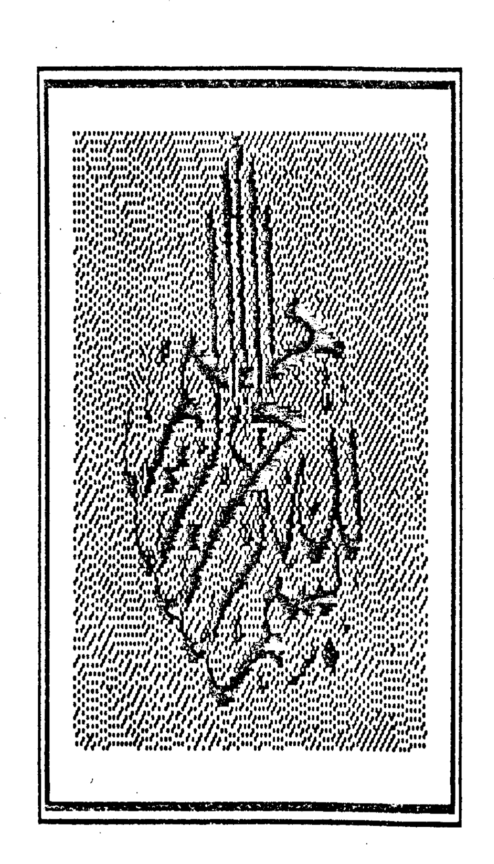
استاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر

دار الثقافة العربية

٣ شارع المبتديان - السيدة زينب - القاهرة



تقديم :

العرب من أقدم الشعوب التى عرفتها البشرية ، عاشوا فى جزيرتهم التى تسمت باسمهم بعد أن انتقلوا إليها وسكنوها منذ آلاف السنين . وقد تناثر العرب فى جزيرتهم فسكنوا أطرافها وباديتها ، وأقاموا فى الأطراف لهم حضارة ضاع معظم معالمها ، للأسف ، مع الزمن ، ولم يبق لنا منها إلا الفتات نلتقطه من على المخلفات الأثرية ، ومن فوق الأطلال . ولقد عرفت جزيرة العرب الأنبياء والمرسلين ، فعاش على أرضها : هود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم ، وإسماعيل وحظت هذه الجزيرة بوجود بيت الله الحرام على أرضها ، وهو أقدم بيوت العبادة علـى الأرض ، بناه آدم وأبناؤه ، ليتوجه كل الناس إليه فى صلواتهم . ورفع إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل قواعد البيت وأعادوا بناءه بعد أن تهدم بفعل السيول ومع تقادم الزمن . وجاء محمد برسالته ليدعو الناس للعودة إلى عبادة الله الواحد الأحـد الفرد الصمد ، واتباع ملة أبيهم إبراهيم . فشهدت هذه الجزيرة انقلاباً هائلاً ، وتغيراً خطيراً وصراعاً مريراً بين التوحيد والوثنية انتهى بانتصار الوحدانية وقيام دولة إسلامية على يد النبى الأمين محمد خير الأنبياء وأشرف المرسلين .

وجاء الإسلام ليضع نهاية لمرحلة طويلة من مراحل تاريخ العرب ، كذلك ليضع بداية لتاريخ آخر قامت لهم فيه دولة كبرى حكمت العالم ورفعت راية التوحيد وقضت على الوثنية وتعدد الآلهة وحاربت الشرك بالله . ونزل فى هذه البقعة الطاهرة من الأرض الوحى ومعه كتاب الله القرآن الكريم آخر اتصال بين السماء والأرض وحتى تقوم الساعة . ولما ارتحل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ترك لهم كتاب الله وسنته ليحكموا بهما الدولة ويسودوا بهما العالم وليربوا الناس ويقودوهم إلى الطريق القويم ، طريق السعادة والعز فى الدنيا والنعيم والخلود فى الآخرة .. وكانت بسبب هذا التشريف أمة

العرب خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

ودارس التاريخ الإسلامى لابد له من أن يبدأ دراسته بدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام ، فهى البداية الطبيعة والمدخل الطبيعى للتاريخ الإسلامى ، وقد طلب الله منا أن ندخل البيوت من أبوابها حتى نتكشف بعد ذلك ما بداخل هذه البيوت ..

والله أسأل أن أكون قد وفقت فى مدخلى هذا بهذا العرض الموجز لتاريخ وحضارة العرب قبل الإسلام .. والله من وراء القصد وهو وحده المستعان .،

عطيه القوصي

مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام :

أطلق الكتاب والمؤرخون لفظ الجاهلية على الفترة التى غطت تاريخ العرب منذ قديم الزمان حتى ظهور الإسلام ، وهو إطلاق يدل ضمناً على شيء من الازدراء لحالة الوثنية التى كان عليها العرب وسبقت التوحيد .

وقد فهم جمهور من الناس ، ومنهم بعض المستشرقين الأوربيين ، أن لفظة الجاهلية مشتقة من الجهل الذى هو نقيض العلم ، وفهمها البعض الآخر على أنها عدم اتباع العلم ، أو هـى من الجهل بمعرفة الله تعالى والجهل بشرائع الدين .

وقد وردت كلمة « الجاهلية » فى مواضع عديدة فى القرآن الكريم ، منها قوله تعالـى فـى سورة آل عمران (١٥٤) : ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ... ﴾ ، وفى سورة المائدة (٥٠) : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ ، وفى سورة الأحزاب (٣٣) : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ ، وفى سورة الفتح (٢٦) : ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ .

واختلف العلماء فى تحديد بداية العصر الجاهلى ، وإن اتفقوا على نهايته ، واختلفوا فى هل هو عصر واحد أم عصرين على اعتبار أن القرآن الكريم ذكر الجاهلية الأولى ومعنى ذلك أن هنالك جاهلية ثانية تعقب الأولى . وقالوا أن عصر الجاهلية الأولى يقع بين عصرى النبى نوح والنبى إدريس عليهما السلام . وذهب آخرون إلى أنها الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام . وقال فريق آخر أن الجاهلية المعروفة لنا لا يتعدى توقيتها قبل بعثة محمد بقرن من الزمان . أما منتهاها فاتفقوا على أنه وقت ظهور النبى محمد ونزول الوحى عليه ، وإن كان جماعة منهم قد ذكروا أن منتهاها هو فتح مكة وسقوط دولة الكفر فيها .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن لفظة الجاهلية هى لفظة إسلامية ، أطلقت فى الإسلام على الزمن الذى عاشه العرب فى شبه جزيرتهم قبل البعثة المحمدية ، والزمن الذى مر على العرب قبل البعثة .

ولقد انحصرت المصادر التى استقى الدارسون لتاريخ العرب قبل الإسلام ومظاهر حضارتهم فى مصادر أربعة هى : النقوش والكتابات العربية وغير العربية التى عثر عليها الباحثون وعلماء الآثار والحفريات ، والتوراة العبرانية ، وهى كتاب العهد القديم ، والكتب السريانية ، والمصادر العربية الإسلامية .

١- النقوش والكتابات : وهى تنقسم إلى نقوش وكتابات عربية وغير عربية تطرقت إلى ذكر العرب كبعض النصوص البابلية والآشورية ، وقد عثر علماء الآثار على هذه الكتابات العربية وغير العربية على مخلفات الآثار القديمة فى اليمن والعراق والشام .

٢- التوراة العبرانية : وهو كتاب العهد القديم (العتيق) ، وتؤلف الأسفار الخمسة الأولى من كتاب اليهود المقدس مجموعة كان اليهود يسمونها : الشريعة ، أو التوراة ، وقد اتخذت باليونانية اسم « بانتاتيكوس » ، أى الكتاب ذو الأسفار الخمسة . وقد جرت العادة ، منذ أيام الترجمة اليونانية للكتاب المعروفة بالسبعينية أن يسمى كل سفر حسب محتواه . فسمى الأول : سفر التكوين ، لأنه يصف بدء العالم والإنسانية . وسمى الثانى : سفر الخروج ، لأنه يتحدث عن خروج بنى إسرائيل من مصر بقيادة النبى موسى عليه السلام . والثالث : سفر اللاويين ، أو سفر الأحبار ، وهو يحتوى على طقوس الكهنة أبناء لاوى . وأطلق على الرابع إسم : سفر العدد ، وفيه إحصاء لعدد قبائل بنى إسرائيل . وتنتهى المجموعة بسفر : تثنية الاشتراع ، الذى يبدو كتكرار وتتمة لشريعة موسى عليه السلام . وتنتهى هذه الأسفار بموت موسى .

وقد جاء ذكر العرب فى مواضع كثيرة من أسفار التوراة تشرح علاقة العبرانيين بهم ، ويرجع تاريخ ما ذكر عن العرب فى التوراة إلى الفترة ما بين القرن الثامن والقرن الثانى قبل ميلاد المسيح . وقد وردت فى التلمود أيضاً ، وهى توراة اليهود الغير مدونة ، إشارات كثيرة إلى العرب .

٣- الكتب السريانية : وهى التى تُنسب إلى أصحابها السوريين ، وقد كتبت بلغتهم السريانية . وقد استقى أصحاب هذه الكتب معلوماتهم عن العرب وعن غيرهم من الرجال الذين شاركوا فى الحملات العسكرية التى أرسلها حكام اليونان أو الرومان إلى بلاد العرب ، كذلك إستقوا معلوماتهم عن الكتاب اليونانيين واللاتين ، ومن التجار وأصحاب السفن الذين جابوا البحار وقصدوا بلاد العرب للإتجار معها .

ومن أقدم المؤلفات اليونانية التى ورد فيها ذكر العرب مؤلفات هيرودوت (٤٨٠ - ٤٢٥ ق . م) ، ومن المؤلفات اللاتينية مؤلفات : ثيوفراست (٣٧١ - ٢٨٧ ق . م) ، وإيراتوستينس (٢٧٦ - ١٩٤ ق . م) ، وديودور الصقلى (٤٠ ق . م) ، وسترابون (٦٤ ق . م - ١٩ م) .

٤- المصادر العربية الإسلامية : وتمثلت فى القرآن الكريم ، وكتب الأحاديث الصحاح والسنن ، ومدونات الشعر الجاهلى والشعراء المخضرمين ، الذين عايشوا الجاهلية والإسلام . وكتب السير والأخبار . وكتب المؤرخين المسلمين الأول من أمثال : وهب بن منبه ، وعبيد بن شريه ، وهشام بن محمد السائب الكلبى ، والهمدانى ، وغيرهم .

وبسبب قلة ما ورد عن عرب ما قبل الإسلام فى كتب الإسلاميين ، تساءل البعض إذا ما كان الإسلام قد تعمد طمس أخبار الجاهليين ، أو أن العرب ، عند ظهور الإسلام ، لم تكن فى حوزتهم كتب مدونة فى تاريخهم ولم يكن عندهم

علم بأحوال أسلافهم إلا القليل الذى تحدثوا به إلى المؤرخين المسلمين فوجد سبيله إلى كتبهم .

وقد أوكل بعض الباحثين هذا القصور فى معارف العرب القديمة إلى الإسلام ، وأن الإسلام ورجاله قد اتجهوا إلى استئصال كل ما يمت إلى أيام الوثنية في الجزيرة العربية بصلة ، واستدلوا على ذلك بحديث الرسول القائل بأن الإسلام يجب ما قبله . وأن هذا الحديث قد أدى إلى تكاسل العلماء وتقاعسهم عن متابعة الدراسات المتصلة بالجاهلية وإلى محو آثار كل ما يتفرع عن حياة العرب القديمة . وقد أدى ذلك إلى ذهاب أخبار الجاهلية واندثارها ، واعتبار بداية التاريخ عند العرب بعام الفيل .

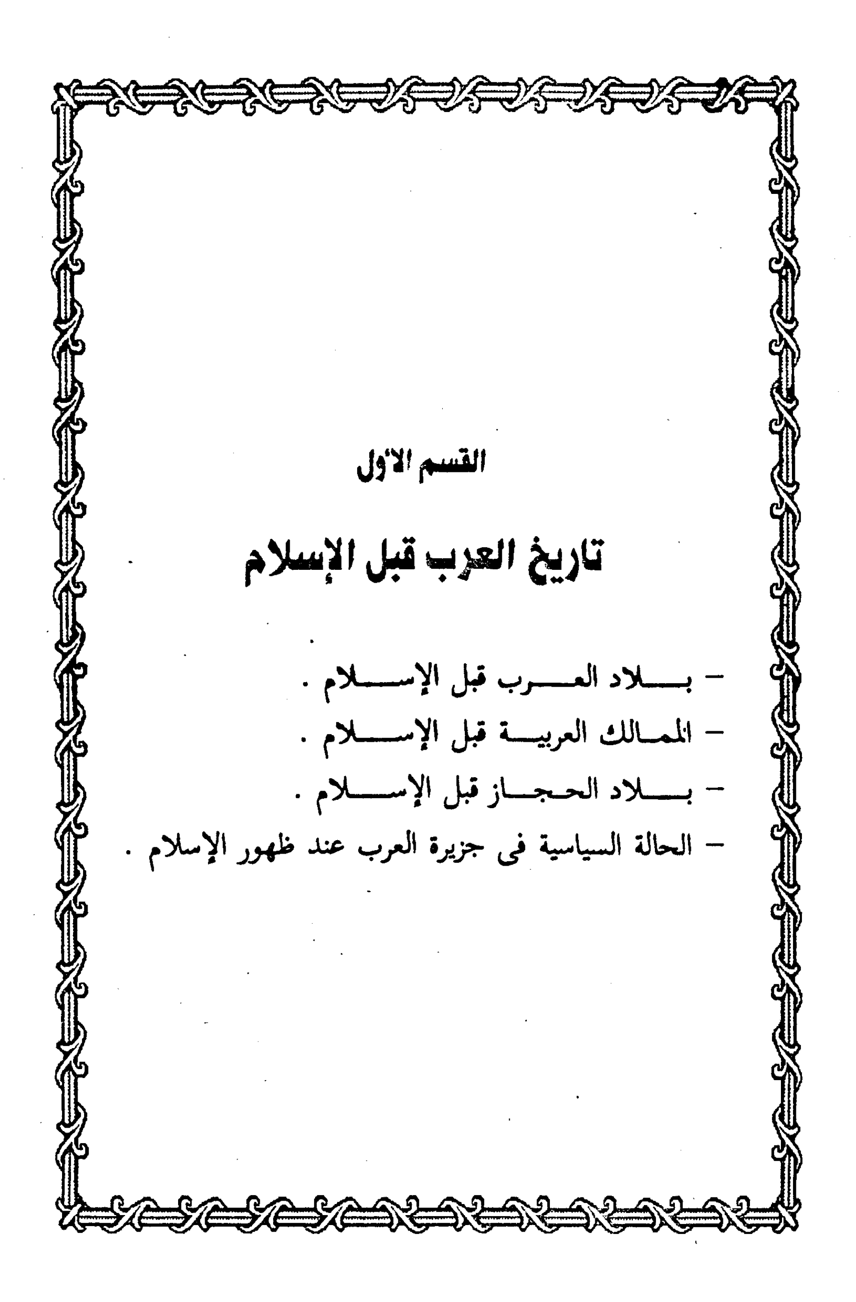
وهذا الزعم زعم باطل ، لأن من فسر حديث الإسلام يجب ما قبله هذا التفسير قد فسره تفسير خاطىء ، لأنه لم يكن المقصود به طمس تاريخ ما قبل الإسلام ، ولكن المقصود به غفران الذنوب التى وقعت عن معاصى الناس وتجاوزاتهم وسيئاتهم قبل دخولهم الإسلام . وقد حرّم الإسلام أشياء من الجاهلية وأقر أشياء أخرى ، ورد إقرارها فى القرآن والحديث . ولم يرد فى الإسلام ما يفيد تحريم القلم الجاهلى ولا الشعر ولا النثر الجاهليين . ولم يقم حكام المسلمين الأول وخلفاؤهم بهدم مخلفات الجاهليين من المبانى عدا الأصنام والأوثان التى كان الناس يعبدونها آنذاك قبل ظهور الإسلام . ولم يرد فى أى خبر من الأخبار أن خلفاء المسلمين قاموا بتخريب كتابات الجاهليين على آثارهم أو إحراق كتبهم أو الإعراض عنها . ولم يثبت على الإطلاق أن علماء المسلمين منعوا رواية أخبار الجاهلية ، بل كانوا يسعون فى طلبها للاستشهاد بها فيما يعظون به الناس وما يقررونه عليهم من تعاليم وفى تفسيراتهم التــى كانوا يفسرون بها القرآن . وقد برع من علماء المسلمين الأوائل عدد فى الأنساب ، وفى رواية أيام

الجاهلية ورواية الشعر الجاهلى . كل ذلك يناقض مزاعم المستشرقين التى ادعت فكرة طمس الإسلام لتاريخ وأحوال عرب ما قبل الإسلام .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أحداث وقعت فـى جزيرة العرب فى الزمن البعيد ، وتحدث عن أقوام بادوا وهلكوا كانوا يعيشون فى تلك البلاد مثل قوم عاد وثمود . وقد حث الإسلام المسلمين على دراسة أخبار هذه الدول المندرسة وأخبار شعوبها فى الماضى القديم لأخذ العبرة والعظة منها . كذلك أشار القرآن إلى الأصنام التى كان عرب شبه الجزيرة يعبدونها من دون الله وذكر أسماءها ، ولم يجد حرجاً فى ذلك . ومن المؤكد أن أخبار الجاهلية الأولى قد طمست فى أيام الجاهلية الثانية ، ولم يتبق للناس ، عند ظهور الإسلام إلا علم بأخبار أحداث قرن أو قرن ونصف قبل ظهور الإسلام فى أبعد تقدير .

ولقد نبه المستشرقون إلى ضرورة تدوين التاريخ الجاهلى ، ودراسة ما دوّن عن عرب ما قبل الإسلام فى كتب الإسلاميين . وقد طاف بعض هؤلاء العلماء بلاد العرب ونقبوا عن آثارها ، ونجحت حفرياتهم فى اكتشاف معلومات طيبة عن التاريخ الجاهلى تضيف الجديد إلى ما أوردته المصادر الإسلامية التاريخية والأدبية عنه . وتوّصل هؤلاء العلماء أيضاً إلى حل رموز الكتابة الحميرية العربية مما ساهم كثيراً فى إعادة كتابة تاريخ العرب قبل الإسلام نظراً لما أضافه هذا العمل من معلومات جديدة قيمة .



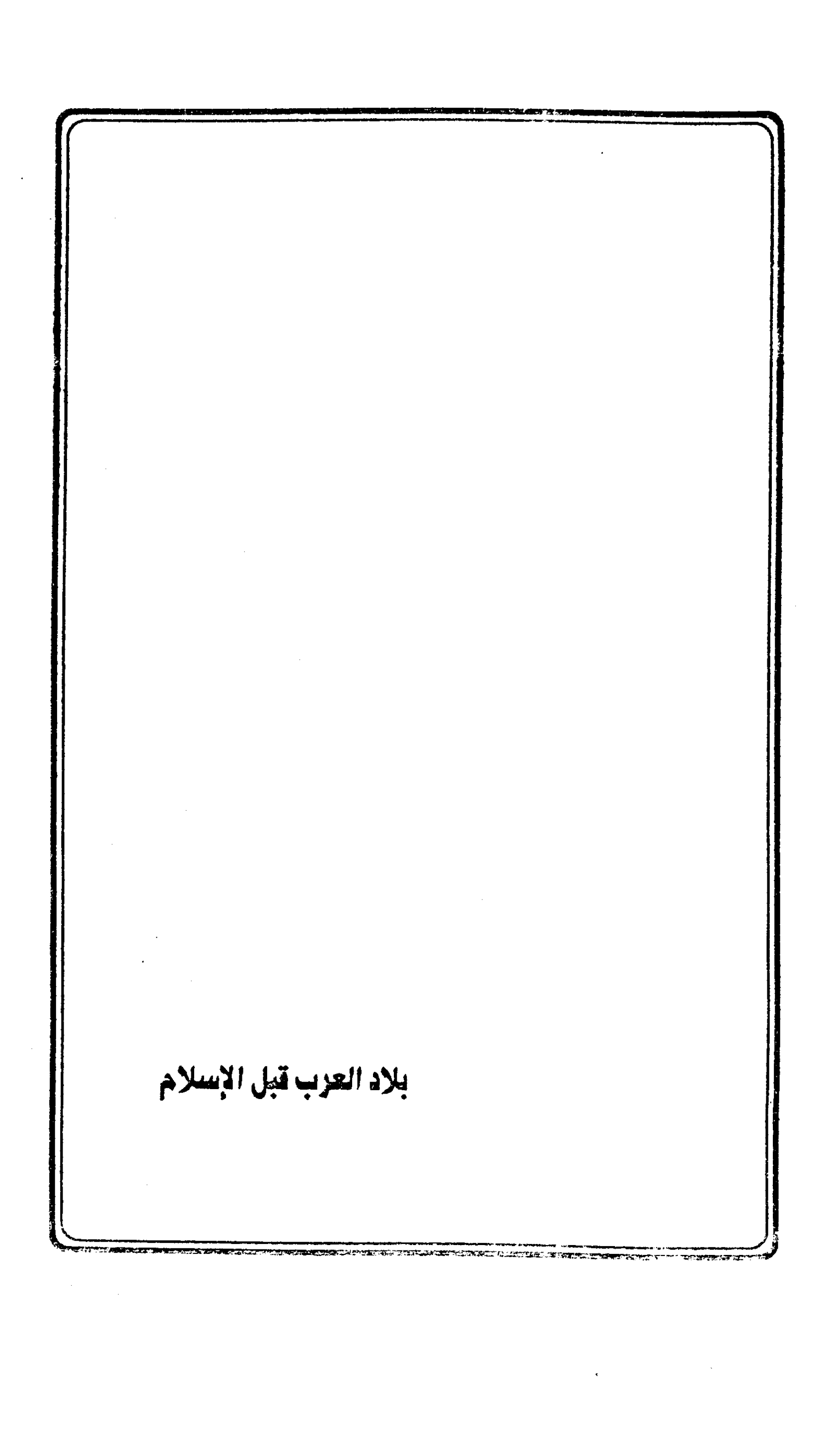


القسم الأول

تاريخ العرب قبل الإسلام

- بلاد العرب قبل الإسلام .
- الممالك العربية قبل الإسلام .
- بلاد الحجاز قبل الإسلام .
- الحالة السياسية فى جزيرة العرب عند ظهور الإسلام .




بلاد العرب قبل الإسلام



بلاد العرب قبل الإسلام

في بداية حديثنا عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، علينا أن نتعرف على هؤلاء العرب أصحاب هذا التاريخ ، ونتساءل : من هم العرب ، وإلى أى الأجناس ينتمون ، ولماذا سُموا عرباً .

والعرب أمة سامية الأصل ، استوطنت شبه الجزيرة ، التى نُسبت إليهم فعرفت بشبه جزيرة العرب ، قبل الميلاد بآلاف السنين ، ولم يستطع أحد من العلماء أن يحدد التوقيت الدقيق لهجرتهم إليها . والعرب من نسل سام بن نوح ، كما ورد فى التوراة ، ولغتهم فرع من الأرومة السامية ، مثل : العبرية والحبشية والفينيقية والآشورية .

وكلمة عرب لغوياً تعنى : فصح ، وأعرب الكلام ، أى : بيّنه وأوضحه . وقد بحث علماء العربية فى أصل لفظة العرب والعربية ، فوجدوا أن أقدم نص ورد فيه اسم (عرب) هو نص آشورى يعود إلى أيام الملك (شلمنصر الثانى) ملك آشور . وقد قُصد بها مشيخة كانت تحكم فى البادية المتاخمة للحدود الآشورية ، كان حكمها يتذبذب بين التوسع والتقلص فى البادية بحسب الظروف السياسية وقوة شخصية الشيخ الذى كان يحكمها . وقد ورد فى النص أنه كان يحكمها ملك يُقال له (جندب) ، وكانت صلاته بالآشوريين ليست على ما يرام .

وفى العبرانية ، دلت كلمة (عرب) على البداوة ، أى أنها تطلق على البدو أو الأعراب ، وهم سكان البادية ، وهم المعنى الأصلى لهذه الكلمة فى جميع فروع اللغات السامية . وقد قيل أيضاً أن تسمية هذا الشعب بالعرب جاءت نسبة إلى جد العرب العاربة الأكبر يعرب بن قحطان من نسل سام بن نوح عليه السلام .

ويختلف العرب عن الأعراب ، فالعرب هم أهل الحضر من سكان الأمصار والمدن والقرى ، والأعراب ، هم البدو ، سكان بادية الصحراء . وقد وصف القرآن الكريم الأعراب بالكفر الشديد والنفاق الشديد .

ولقد لاحظ المعنيون بلغات المشارقة وجود أوجه شبه ظاهرة بين اللغات البابلية والآشورية والكنعانية والعبرانية والفينيقية والآرامية والعربية والحبشية والنبطية ، فهى تشترك أو تتقارب فى زمن الفعل وفى تصاريف الأفعال وأصول المفردات والضمائر والأعداد . فقالوا بوجود وحدة مشتركة كانت تجمع هؤلاء الأقوام ، واطلقوا على ذلك الأصل وتلك الوحدة : الجنس السامى ، كما أطلقوا على اللغات التى تكلمت بها هذه الشعوب : اللغات السامية .

وتنتسب الشعوب السامية إلى سام بن نوح الوارد ذكره فى التوراة فى سفر التكوين ، وقد جاء فى التوراة أنها من نسله . وقد بحث العلماء عن المهد الأصلى الأول للساميين فرأى نفر منهم أن أرض بابل بالعراق كانت المهد الأصلى للساميين . ورأى فريق ثان أن أرمينيه هى موطنهم الأول ، بينما أكد فريق ثالث على أن جزيرة العرب هى المهد الأول لأبناء سام . وقد أيد كل فريق رأيه بما لديه من معلومات عن أصول الأجناس ، وقد رجح رأى الفريق الثالث من أن جزيرة العرب كانت هى المهد الأول للساميين . وقد قال غالبية العلماء أن الشعوب السامية ارتحلت من جزيرة العرب ، فى القديم ، بسبب الجفاف الذى وقع بها ، وكان العامل الأول فى هجرات الساميين إلى المناطق الخصيبة المجاور للجزيرة .

ولقد وُجدت لفظة عربى كلقب من ألقاب ملوك سبأ القدامى ، على النقوش العربية القديمة فى جنوب شبه جزيرة العرب . وقد كُتبت هذه النقوش بخط المسند ، الذى عُرف بخط حميَر . وقد كان استعمال هذا الخط قاصراً

على أهل اليمن .

ولقد عُرفت الأرض التى نشأ بها العرب من قديم ، بجزيرة العرب ، أو شبه جزيرة العرب بحسب إطلاق الجغرافيين عليها لإحاطة المياه لها من ثلاثة أجزاء . وهى أرض واسعة تبلغ مساحتها نحو مليون ميل مربع ، وهى تساوى فى مساحتها تقريباً ثلث مساحة قارة أوربا بأكملها ، وتقع جنوب غربى قارة آسيا . وتغلب الصحراء على معظم أرض شبه الجزيرة بسبب نقص سقوط الأمطار عليها ، وتغطى الكثبان الرملية مناطق كثيرة فيها ، وترتفع الجبال فى بعض أماكنها ويبلغ ارتفاع بعضها أكثر من ٠ ثمانمائة قدم عن مستوى سطح البحر ، وتمتد طولياً إلى عدة أميال .

وتنقسم شبه جزيرة العرب من حيث طبيعتها الجغرافية إلى خمسة أقسام ، هى الحجاز ، وتهامة ، ونجد ، والعروض ، واليمن وحضرموت . ويمثل الحجاز المنطقة الغربية من شبه الجزيرة ، وهو يقع بحذاء البحر الأحمر شمال اليمن وشرقى تهامة وغربى نجد ، وهو إقليم يمتد من خليج العقبة إلى عسير . وقد سُمى هذا الإقليم حجازاً لأنه يحجز بين نجد وتهامة ، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو سبعمائة ميل ، وعرضه مائة وسبعون ميلاً ، ومساحته ٩٦ ألف ميل مربع . ويتكون الحجاز من عدة أودية تتخللها سلسلة جبال السراة وأشهر مدنه : مكة والمدينة والطائف وتبوك التى تقع على حافة صحراء النفود ، وموانيه على البحر الأحمر هما مينائى جدة وينبع .

أما تهامة ، فهىَ الأرض الواقعة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر الشرقى ، من ينبع إلى نجران . وتُسمى أيضاً (الغور) ، لانخفاض أرضها ، وقد سميت بتهامة من التهم ، لشدة حرها وركود ريحها ، ومن أهم مدنها : عسير وأبها .

أما نجد فهو أوسع أقسام شبه الجزيرة ، وقد سُمى نجداً لارتفاع أرضه ، وهو

إقليم يمتد من بادية الشام شمالاً إلى حدود اليمن جنوباً ، ومن بلاد الحجاز غرباً إلى البحرين شرقاً إلى الغرب نحو ٢٢٠ ميل . وتقع صحراء الربع الخالى (الأحقاف) إلى الجنوب من نجد ، وقد كانت دياراً لقوم عاد . ويعادل مساحة الربع الخالى مساحة دولة فرنسا الحالية . وفى شمال نجد تقع صحراء النفود (بادية السماوة) وتغطى مساحة أربعين ألف ميل مربع ، وتقع جبال شمَّر فى جنوبها . وأشهر مدن نجد : الرياض ، وهى عاصمة الدولة السعودية الحالية ، ومدينة حائل والقصيم .

وإقليم العروض ، هو إقليم اليمامة ، سكن قبائل بنى ربيعة وقد سكنه قديماً بنو طسم وجديس من العرب البائدة . وقد سمى عروضاً ، لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق .

أما اليمن وحضرموت فيقعان فى جنوب وجنوب شرقى شبه جزيرة العرب ، وقد تميزت أراضيها ، منذ القدم ، بالخصب والنماء ، لسقوط الأمطار الموسمية الصيفية الغزيرة عليها ، وقيام أهلها بالزراعة . وقد شهدت أرض هذه البلاد حضارات قديمة ، وقامت بها دول شهيرة ، وهى على التوالى ، دول : معين ، وسبأ ، وحمير .

وفى أماكن متفرقة من شبه الجزيرة نجد حقولاً من تربة اللافا البركانية ، تكونت منذ عصور بعيدة بفعل النشاط البركانى الذى عاشته شبه الجزيرة آنذاك . وهنالك شواهد ، أيضاً ، على أن هذه البلاد شهدت حقبة زمنية مطيرة كبيرة فى الزمن القديم ، لكن مياه هذه الأمطار جفت ، مع مرور الزمن وتشربتها الأرض ، ولم تتبق إلا نقاط صغيرة منها ما زالت خصبة حتى الآن بسبب توافر بعض الينابيع فيها .

ومن حين لآخر ، تسقط الأمطار المتفرقة على هذه البلاد ، وتسبب فى

بعض الأحيان سيولاً جارفة ، الأمر الذى يفسر سر كثرة المياه الجوفية فى باطن أرضها . وقد تعلم العرب ، سكان شبه الجزيرة ، كيفية حفر الآبار ووصلوا إلى أماكن تواجد المياه فى باطن الأرض . وحيث و [illegible] قامت الزراعة فى بعض المستعمرات وفى الواحات ، وقد قاومت خضرة الزرع فيها اصفرار رمال الصحراء الغالب على شبه الجزيرة .

كذلك قامت الزراعة فى سهل تهامة الساحلى ، بسبب سقوط الأمطار عليه بشكل منتظم ، وأيضاً ، بسبب انخفاض واديه واحتفاظه فى جوفه بكميات كافية من مياه المطر .

وقد فرضت طبيعة الأرض فى شبه الجزيرة نمط حياة العرب فيها فسادت البداوة وغلبت حرفة الرعى على أهلها بسبب غلبة الصحراء على أرض هذه البلاد . وقد رعى العرب الإبل وعرفوها منذ خمسة قرون قبل ميلاد المسيح ، وهى حيوانات تتناسب طبيعة تكوينها مع حياة الصحراء القاسية . ومن ثم أصبحت الإبل هى عماد ثروتهم ، ومصدر طعامهم ، وسفينتهم الوحيدة عبر بحور الصحراء . والجمل هو الحيوان الوحيد من دون الحيوانات الذى يستطيع أن يقطع الفيافى والقفار والمسافات الشاسعة عبر دروب الصحراء دون كلل أو ملل ، وهو يستطيع ، خلال رحلته الطويلة ، أن يحمل على ظهره أكثر من أربعة قناطير من الأحمال ، وأن يقطع ستين ميلاً سيراً متواصلاً فى اليوم . وهو قادر على أن يسافر عشرين يوماً متصلة دون ماء فى ظروف حرارة قاسية قد تصل إلى ١٢٠ درجة فهرنهيتية .

وتركزت الحياة فى شبه الجزيرة فى المستعمرات وفى مناطق الواحات حول عيون الماء والآبار وفى جنوب شبه الجزيرة حيث تتوافر الأمطار ، وقامت الزراعة بتلك الأنحاء ، فزرع العرب بعض الحبوب والغلال ، كما زرعوا أشجار النخيل

التى أمدتهم بالتمر ، الذى كان هو ولبن النوق الغذاء الوحيد للبدوى الفقير .

كذلك احترف العرب التجارة ، وهو شعب تجارى بطبعه ، واتصلوا بواسطة التجارة ، بالعالم الخارجى وعرفوا هذا العالم وتعاملوا معه . وقد شكلت القوافل التجارية حلقة الوصل بين المناطق المتحضرة فى جنوب شبه الجزيرة ومنطقة الهلال الخصيب . وقد حملت قوافل العرب التجارية معها منتجاتها وبضائع تجارة المرور العالمية بين الشرق والغرب . وقد قامت الأسواق المتعددة فى شبه الجزيرة ، بسبب هذه التجارة ، ونالت هذه الأسواق شهرة كبيرة بين العرب وجيرانهم .

وكانت مكة ، من أبرز مدن شبه الجزيرة التجارية ، بسبب موقعها على طريق القوافل بين الشام واليمن ، كذلك بسبب نشاط أهلها التجارى . وقد جمع أهل مكة الثروة والمال من جراء اشتغالهم بالتجارة ، وكانت لهم بسبب ذلك ، السيادة والشرف بين سكان شبه جزيرة العرب .

وقد تناثرت بعض المدن فى صحراء شبه الجزيرة ، إضافة إلى تلك التى نمت نمواً طبيعياً فى منطقة الواحات والمستعمرات ، وعاش فى هذه المدن مجموعات من التجار والحرفيين والمزارعين فى قبائل ترأسها عدد من شيوخها العرب .

ولقد اتفق الرواة وأهل الأخبار والمؤرخون على تقسيم العرب إلى طبقات ثلاث : عرب بائدة ، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة . واتفقوا على أن القحطانيين هم عرب منذ خلقهم الله ، فهم الأصل ، والعدنانية هم الفرع ، منهم أخذوا العربية ، وبلسانهم تكلم أبناء إسماعيل بعد هجرتهم إلى الحجاز ، شرح الله صدر جدهم إسماعيل فتكلم بالعربية ، وهى ليست لغة أبيه ، وكانت لغة أبيه إبراهيم الخليل : السريانية أو الكلدانية ، أو العبرانية على بعض الأقوال .

والعرب البائدة ، هم العرب الذين بادوا من قديم ومحيت آثارهم واندرست أخبارهم ، ولم يصلنا عنهم إلا القليل فيما ورد عنهم فى القرآن الكريم والسنة

النبوية وما كشفته عنهم الحفريات الأثرية . وأشهر قبائلهم التى أبيدت ، هم : قوم عاد ، وثمود ، ومدين ، وطسم ، وجديس ، والعماليق ، والمعينيون ، وجرهم الأولى ، وأميم ، وعبيل .

وقوم عاد ، هم أقدم هؤلاء الأقوام من العرب البائدة ، وقد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ﴾ . وذهب الإخباريون إلى وجود طبقتين لقوم عاد ، وهما : عاد الأولى وعاد الثانية . وقالوا أن عاداً الأولى كانت من أشد الأمم بطشاً وقوة وكانت مؤلفة من أكثر من ألف بطن من البطون . ولقد ورد فى القرآن الكريم أن الله أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى . ويفهم من القرآن أن مساكن عاد الأولى كانت بمنطقة الأحقاف (الربع الخالى) ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾ ، والأحقاف تسمية تطلق على منطقة الرمال بين اليمن وعمان وحضرموت والشحر . وقد أرسل الله تعالى إلى قوم عاد نبيه هوداً ، وقال تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ . وقد نعت القرآن عاداً بأنهم قوم هود ، فقال تعالى : ﴿ ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾ .

ومن قبائل عاد الأولى كانت قبيلة فيها (لقمان الحكيم) الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم وتسمت سورة فيه باسم (سورة لقمان) . وقد أعرض قوم عاد عن نبيهم هود واستكبروا ، فأنزل الله بهم العذاب بأن أرسل إليهم الرياح العاتية وسخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتالية فأهلكتهم . ولم يبق بعد هلاك عاد الأولى سوى هود وقلة آمنت به فيهم لقمان . وقد توجه هؤلاء إلى مكة للاستسقاء ، وهنالك أنشأوا دولة عاد الثانية . وخاف العاديون انحباس المطر والجفاف فى مكة ، فارتحلوا إلى أرض سبأ باليمن ، وهنالك ، قرب مأرب ، بنى لقمان سد مأرب . وبقيت حكومة عاد الثانية بأرض اليمن إلى أن تغلبت عليهم

قبائل قحطان ، ثم لجأوا إلى حضرموت واستقروا هناك وذابوا فى أهلها .

أما قوم ثمود ، فقد ورد اسمهم فى الكتب العربية مقروناً بعاد ، وقد ورد اسم ثمود كثيراً فى القرآن الكريم فى عشر سور من سوره : (الأعراف ، هود ، الإسراء ، الشعراء ، النمل ، الذاريات ، القمر ، البروج ، الفجر ، والشمس) .

وقد عيَّن الرواة منطقة الحِجر (مدائن صالح) ، وهى قرية بوادى القرى ، بالقرب من تبوك ، أنها كانت ديار ثمود ، ومنازلهم كانت بين الشام والحجاز ، وقد مر بها رسول الله فى طريقه إلى تبوك . وكانت بيوتهم ، كما أخبر القرآن الكريم ، منحوتة فى الجبال : « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » ، أى قطعوا الجبال بوادى القرى واتخذوها بيوتاً ، ولا تزال آثارهم المنحوتة فى الصخر باقية إلى الآن فى المنطقة الممتدة من الجوف شمالاً إلى الطائف جنوباً ومن الإحساء شرقاً إلى أرض مدين غرباً .

وكان قوم ثمود يعبدون الأصنام ، وقد أرسل الله تعالى إليهم نبيه صالح يأمرهم بترك عبادة الأصنام وعبادة الله الواحد القهار ، فهزأوا منه واستخفوا به ولم يستجيبوا لدعوته . وقد أورد الله تعالى رسالته لهم فى كتابه الكريم بقوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .

وقد طلب قوم ثمود من النبى صالح أن يأتيهم بمعجزة خارقة تبين لهم صدق رسالته ، فأخرج لهم صالح من الصخر ناقة بإذن الله ، وأمرهم ألا يمسوها بسوء ولكنهم تطيروا من هذه الناقة وعدوها خطراً عليهم فذبحوها ، فلما فعلوا

ذلك وعدهم صالح بالعذاب الأليم من رب العالمين فأخذتهم الرجفة أى أبادتهم الصاعقة عن آخرهم ولم يبق منهم أحد . قال تعالى بصدد نهاية قوم ثمود : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ .

وقوم مديَن ، كانوا عرباً يسكنون مديَن ، الواقعة على أطراف الشام مما يلى الحجاز ، وكانوا يعبدون الأوثان من دون الله . فبعث الله إليهم نبيه شعيب لهدايتهم إلى عبادة الله ، فلم يستجيبوا له وسخروا منه ، فدعا شعيب عليهم ، واستجاب الله لدعوته فابتلاهم بصيحة عظيمة من السماء أهلكتهم ، ولم ينج منها إلا شعيب ومن آمن معه . قال تعالى : ﴿ ولمّا جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ .

أما طسم وجديس ، فلم يرد لهما ذكر فى القرآن الكريم ، لكن الأخباريين ذكروا أنهما سكنا اليمامة ، شرقى نجد ، وقال آخرون أنهما سكنا الأحقاف والبحرين وأن حرباً وقعت بينهما أهلكتهما معاً ، وبقيت اليمامة ، بعدهما خالية إلى أن حل بها بنو حنيفة الذين ظلوا بها حتى ظهور الإسلام .

وروى الأخباريون أن الرئاسة على قبيلتى طسم وجديس كانت فى بادىء الأمر لطسم ، وقد ظل الحال كذلك حتى ولى أمرها رجل ظالم قام بإذلال قبيلة جديس وانتهاك أعراض نسائها . فقررت جديس الانتقام لشرفها والقضاء على سيادة طسم عليها . فاشتبك الطرفان فى معركة شديدة انتهت بهزيمة طسم وقتل كل رجالها دون رجل واحد هو رياح بن مرة . وقد فر رياح إلى ملك حميَر اليمنى حسان بن تبع ، حيث طلب منه المساعدة لمحاربة جديس . فوافقه الملك الحميرى وأمده بجيش كبير سار على رأسه إلى اليمامة . وبينما كان الجيش

الحميرى على مسافة مسيرة ثلاثة أيام من اليمامة أبصرت (زرقاء اليمامة) ، أخت رباح بن مرة ، وكانت حادة البصر ، جيشَ الحميريين وحذرت جُديْساً بقولها إنها رأت شجراً يتحرك ومن ورائه جنود يحملون سلاحاً . وقد كان الجيش الحميرى قد عمل تلك الحيلة حتى لا يراه الأعداء ، فلم يصدقها قومها . وقد ثبت بعد ذلك صحة قولها ووصل الجيش الحميرى إلى مكامن جديس فأبادها عن آخرها . وهكذا كان فناء طسم على يد جديس وفناء جديس على يد الحميريين ، وصارت بذلك طسم وجديس من العرب البائدة .

أما أميم ، فقد كانوا من طبقة طسم وجديس ، وكانوا معاصرين لهما ، وكانوا يسكنون بين اليمامة والشحر ، فانهارت عليهم الرمال وأهلكتهم وصاروا من العرب البائدة .

أما عُبيل ، فهم إخوان عاد ، من نسل أخيه عوصى ، لحقوا بموضع يثرب ، حيث اختطوا هنالك مدينة يثرب ، وقد سميت على إسم أحد رجالهم ، وقد قام باختطاطها ، وهو : يثرب بن بائلة بن مهلهل بن عُبيل . وظلت عُبيل فى يثرب مدة إلى أن هجمت عليهم جماعة من العماليق فأخرجوهم منها فارتحلوا عن يثرب ونزلوا موضع الجحفة ، وأقاموا هنالك . إلا أن هذه المنطقة كانت منطقة سيول ، فأقبل أحد هذه السيول عليهم وهاجمهم ، وقالوا : « اجتحفهم وذهب بهم » ، فسميت تلك المنطقة بالجحفة بعد أن باد فيها قوم عبيل .

أما جُرهم ، وهى جرهم الأولى ، وكانوا يقيمون فى مكة ، فقد أبادهم القحطانيون . وأما العماليق ، فهم ينتسبون إلى عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وكانوا أمماً تفرقت فى البلاد . وقد ذكروا فى التوراة على أنهم من أقدم الشعوب التى سكنت جنوب فلسطين . ولقد قامت لهم دول فى العراق ومصر .

ومن دولهم التى قامت فى العراق : الدولة البابلية الأولى ، التى أسسها حمورابى (٢٤٦٠ - ٢٠٨٠ ق . م) . ومنهم الهكسوس الذين هاجموا مصر فى عهد الدولة الوسطى وحكموها ، وكانوا يسمون الشاسو ، أى البدو الرعاة ، وقد سماهم اليونانيون الهكسوس ، وهى تعنى ملوك الرعاة .

هذا عن العرب البائدة ، أما العرب العاربة ، فهم العرب الأُصل ، وكانوا معاصرين لإخوانهم من العرب البائدة ومظاهرين لهم على أمورهم . وقد عرفوا بالعرب اليمنية ، والسبئية ، والقحطانية ، وبعرب الجنوب . وكانوا فى الأصل يسكنون العراق ، ثم هاجروا إلى اليمن واستقروا فيه . ولقد ارتحلوا من اليمن وتفرقوا شيعاً على أثر نزول سيل العرم وانهيار سد مأرب سنة ٥٢٥ للميلاد ، وتوزعت قبائلهم فى شبه الجزيرة وخارجها .

ويقسّم النسابون العرب العاربة القحطانيين إلى قسمين كبيرين ، هما : جُرهم (الأولى) ويعرب . وقد بادت جُرهم الأولى ، وبقيت يعرب ، التى انقسمت بدورها إلى مجموعتين كبيرتين من القبائل ، هما حميّر وكهلان .

وتنتسب حمير إلى حميّر بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وقد أنجب حمير عدد من الأبناء كانوا هم رؤوس قبائل حمير الشهيرة . ومن أشهر قبائل حمير : قبيلة قضاعة ، التى يرجع نسبها إلى قضاعة بن مالك الحميرى . ومن بطون قضاعة : كلب ، وتنوخ ، وجهينة ، وعذرة ، وبهراء ، وبلى . وقد تفرقت هذه البطون فى شتى الأنحاء . ومن حميّر أيضاً كان التتابعة ملوك اليمن .

أما كهلان ، فيرجع نسبها إلى كهلان بن سبأ ، شقيق حميّر بن سبأ ، ومن أشهر بطونها : الأزد ، وطىء ، وبجيلة ، وخثعم ، وعاملة ، وهمدان ، وكندة ، ومذحج ، ولخم ، وجذام . ومن بطون الأزد : أزد عُمان ، والأوس

والخزرج الذين سكنوا يثرب بعد هجرتهم إليها من اليمن . ومن الأزد : خزاعة ، التى نزلت وادى مكة وأجلت عنها سكانها من جرهم الثانية . ومنهم الغساسنة ، ملوك الشام .

وأما طيء ، فهى أكثر العرب بطوناً ، وقد نزلت نجد . أما كنده ، فنزلت حضرموت ثم نجد واليمامة ودومة الجندل . ونزلت عاملة : الشام ، ونزلت لخم : الحيرة ، ومنها ملوك المناذرة .

والعرب المستعربة ، وهم العرب غير الخُلص ، وقد جاءوا من نتاج زواج العرب الخُلَّص مع أهل البلاد التى ارتحلوا إليها وأقاموا فيها . وهم من صلب إسماعيل بن إبراهيم الخليل وزوجه رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى . وقد أنجب إسماعيل من رعلة إثنى عشر ولداً ، هم آباء العرب المستعربة . وقد نشأ العرب المستعربة فى مكة ، ومنها انتقلوا إلى سائر البلاد العربية .

ويقال للعرب المستعربة : الإسماعيلية ، والقيسية ، والنزارية ، والمعدية ، وعرب الشمال ، وعرب الحجاز ، والعدنانيون .

ولقد تفرعت القبائل العدنانية كلها من نسل ولدين لعدنان ، هما : عك ومعدّ . وقد خرجت عك إلى اليمن بعد أن تزوج زعيمهم عك من الأشعريين اليمنيين وأقامت هناك معهم ، وهناك اختلط نسب العدنانيين بالقبائل القحطانيـة .

أما معدّ ، فقد أنجب أربعـة أولاد تزعم كل منهم قبيلته ، وهم : أياد ، ونـزار ، وقنص ، وأنمار . وينتسب الأياديون إلى الإبن الأكبر أياد بن معد ، وكانت منازلهم القديمة فى تهامة ، لكنهم اختلفوا ودارت حروب بينهم فارتحل قسم منهم إلى العراق ونزلوا الأنبار وتكريت ، وارتحل الباقون إلى البحرين وعاشوا هناك مع قضاعة . وذهب قسم منهم إلى الغساسنة بالشام .

أما قنص فقد خلف أباه فى الإمارة على العرب ، واختلف مع أخيه نزار وأراد أن يخرجه من الحرم ، لكن أهل مكة ناصروا نزاراً علي أخيه وأجمعوا على طرده هو . ومن نزار تفرعت أشهر البطون العدنانية وبخاصة مضر وربيعة .

وكانت أشهر بطون ربيعة بن نزار : أسد وضبيعة ، ومن نسلهما تشعبت قبائل ربيعة . فمن أسد كانت : عنزه ، وجديلة ، وعميره .

وقد تفرع عن عنزه بطون وأفخاذ كثيرة فى نجد والحجاز وبادية الشام وتفرع عن جديلة : عبد القيس ووائل . وتفرع عن وائل : بكر وتغلب .

وتعتبر مُضر من أعظم القبائل العدنانية ، وقد تفرع عنها كل من إلياس (خندف) وقيس عيلان . وقد كانت أشهر بطون قيس عيلان : سعد وخصفه ، ومازن ، وسليم ، وغطفان ، وعدوان .

أما أهم بطون إلياس بن مضر ، المعروف بخندف فهى : طابخة ، ومن طابخة : تميم وهى أكبر القبائل . ومن تميم قبائل : مدركة ، وهذيل ، وخزيمة ، ومن خزيمة : كنانة ، ومن كنانة : النضر ، ومن النضر : مالك ، ومن مالك : فِهر (وهو قريش) ، وقد ظلوا حول مكة حتى أنزلهم قُصى بن كلاب الحرم . وقد وُلد لقريش : غالب ، والحارث ، ومحارب . وقد عُرف بنو الحارث وبنو محارب بقريش الظواهر ، لأنهم سكنوا ظاهر مكة ولم يدخلوا بطحاء مكة (وسطها) مع قصى . ويقال لبنى غالب وبقية قريش : قريش البطاح ، لسكناهم بطحاء مكة .

ووُلد لغالب لؤى ، ووُلد للؤى عدة أولاد منهم كعب بن لؤى ، ومن كعب : مُرة ، ومن مُرة : كلاب ، ومن كلاب : قُصى ، ومن قُصى : عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى . ومن عبد مناف : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل . ومن عبد شمس : أمية (جد الأمويين) ، ومن هاشم :

عبد المطلب (جد الرسول) . ولعبد المطلب إثنى عشر ولداً ، هم : أبو طالب ، والزبير ، والعباس ، وعبد الكعبة ، وضرار ، وحمزة ، وحجل ، وعبد العزى (أبو لهب) ، وقثم ، والغيداق ، والحارث ، وعبد الله (والد الرسول) .

ولما تكاثرت القبائل العدنانية وضاقت بهم البلاد التى يقيمون بها ، تفرقوا حيث الماء والزرع وهاجروا . وممن هاجر منهم : بنو ربيعة ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تيم بن مرة ، هاجروا إلى البحرين . وهاجر بنو سليم إلى الأراضى الممتدة بين وادى القرى وخيبر ، شرقى يثرب . وهاجرت ثقيف إلى الطائف وسكنت فيها ، وهوازن إلى شرقى مكة ، وبنو أسد إلى شرقى تيماء . أما قريش فقد أقامت بمكة وبضواحيها .



المـمالك العربية قبل الإسلام



الممالك العربية قبل الإسلام

أ- ممالك اليمن

قامت فى بلاد اليمن ، قبل الإسلام خمس دول وممالك ، هى : دولة معين ، ومملكة حضرموت وحكومة قتبان ، وحكومة سبأ ، ومملكة حميَّر . وتمتد تواريخ هذه الدول ما بين القرن الرابع عشر قبل الميلاد وحتى ظهور الإسلام فـى القرن السابع الميلادى . وكانت الدولة المعينية التى عاشت وازدهرت فى الفترة ما بين ١٣٠٠ - ٦٣٠ ق . م أقدم هذه الدول .

١- الدولة المعينية (١٣٠٠-٦٣٠ ق ٠ م):

تُعد الدولة المعينية من أقدم الدول العربية التى بلغنا خبرها ، وقد استمرت قائمة ومزدهرة مدة سبعة قرون تقريباً ؛ على رأى بعض العلماء وقد وصلت إلينا أخبارها من الكتابات المدونة بالخط المسند والمصادر التاريخية القديمة . ولم يرد بصدد هذه الدولة ذكر فى المصادر العربية الإسلامية .

وأقدم من ذكر المعينيين من كتاب اليونان : ديودور الصقلى ، وسترابون ، وايراتوستينس ، وثيوفراستوس ، وبلينى ، وبطليموس الجغرافى . ولقد قام بعض علماء الآثار الغربيين المحدثين بعمل حفائر فى بلاد اليمن ، استطاعوا بواسطتها إضافة معلومات جديدة عن هذه الدولة لم تكن معروفة من قبل . ويأتى على رأس هؤلاء العلماء : هاليفى (يوسف) ، وكلاسر (إدوارد) ، وجوسن ، وغيرهم.

وقد ظهرت هذه الدولة فى منطقة الجوف شرقى صنعاء ، وهى أرض سهلية خصبة ذات مياه ، تقع بين نجران وحضرموت ، وقد ذكر الهمدانى جملة مواضع فيها . وقد كانت مدينة القرن ، عاصمة تلك الدولة . وقد أمدتنا الكتابات

التى عُثر عليها فى الجوف وفى خرائب مدينة ديدان ، التى كانت مستوطنة معينية فى طريق البلقاء من ناحية الحجاز ، وفى مناطق أخرى بأكثر معارفنا عن هذه الدولة وعن حكم ملوكها .

وقد حصل قراء الكتابات المعينيـة على أسماء بعض ملوك حكموا دولة معين ، وليس على أسماء كل الملوك ، كذلك صادفتهم مشكلة ترتيب قائمتهم ومعرفة سنوات حكمهم بالتحديد ، وقد كان عدد الملوك الذين توصل المنقبون إليهم ستة وعشرين ملكاً ، ومن أشهر أسماء هؤلاء الملوك الذين ورثوا الملك الإبن عن أبيه :

اليفع يثع ، واليفع ريام ، وتُبع كرب ، وحفن ريام ، وحفن صدق ، ومعد يكرب ، وأبيد ع يثع . ويُلاحظ أن ملوك معين كانوا يحملون ألقاباً مثل : يثع ، بمعنى المنقذ أو المخلص ، وصدق : بمعنى الصادق والعادل ، وريام ، بمعنى العالى .

وكانت حكومة معين حكومة ملكية يرأسها ملك ، وقد أطلق عليه هذا الإسم كما شاركه فيه أبناؤه وأشقاؤه . وكان للملك مجلس استشارى من كبار رجال خاصته ، وكان يستشيرهم فى أمور الدولة الهامة ولم يكن ينفرد برأيه . وقد كان لكل مدينة حكومتها الخاصة ، ولكل مدينة مجلس استشارى يدير شئونها فى السلم والحرب وهو الذى يفصل فيما يقع بين الناس من خصومات وينظر فى شئون الجماعة .

وكان رؤساء القبائل ينون دوراً يتخذونها مجالس يجتمعون فيها وتُعرف هذه الدور باسم (مزود) ، وجمعها (مزاود) ، وهى تشبه دار الندوة عند أهل مكة . وتتألف مملكة معين من مقاطعات على رأس كل مقاطعة ممثل عن الملك يُعرف عندهم باسم (كبر) ، أى الكبير .

ويتشكل دخل الحكومة من الضرائب التى تحصلها من الناس ومن واردات الأراضى الحكومية . ومن الضرائب التى وردت أسماؤها فى الكتابات : ضريبة فرعم ، أى الضريبة الفرعية ، وضريبة عشرم ، أى العشرية . وكانت للمعابد أراض خاصة تستغلها وتصرف من ريعها ، كذلك كان لها مورد ضخم من النذور التى كان يقدمها الناس لآلهة معين . ويعبر عن هذه النذور التى تقدم للآلهة باسم : أكرب ، أى قربان يتقرب به للآلهة . وتخزن المعابد حصتها من البخور واللبان والمر والحاصلات الأخرى فى خزائن المعبد وتأخذ منها ما تحتاج إليه للأعياد وللشعائر الدينية وتبيع الفائض بإرساله مع القوافل لبيعه فى البلاد الأخرى ، وقد تعود قوافلها محملة ببضائع اشترتها بثمن ما باعته من بضائع فتجنى من وراء ذلك الأرباح الكبيرة . لذلك كان أكثر كهان معين من كبار الأغنياء ومن أهل البيوتات الكبيرة .

وكان فى كل مدينة من مدن معين معبد أو أكثر من معبد خصصت لعبادة إله معين ، ويشرف الكاهن على المعبد ، وقد عرف عندهم باسم (شوغ) . وكان عشتر (عشتار) ويرمز له بالزهرة فى مقدمة آلهة معين . كذلك الإله ود ، والإله نكرح ، وكان يرمز إلى الشمس ، والإله وُد وكان يرمز إلى القمر .

ومدينة القرن من أشهر مدن معين ، وكانت العاصمة ، وهى تقع على مسافة سبعة كيلومترات ونصف من شرق قرية الحزم ، مركز الحكومة الحالى فى منطقة الجوف . ويقع خارج سور المدينة معبد رصاف الشهير . وقد كانت القرن مأهولة حتى القرن الثانى عشر الميلادى ثم هجرت وتحولت إلى خرائب .

ومن مدن حكومة معين أيضاً مدينة (يثل) أو براقش ، وهى من المراكز الدينيــة الهامة . ومن بقية مدن معين : نشق ، وريشان ، وهريم ، وكمنه ، ونشان ، وبيحان .

وقد تعامل المعينيون فى معاملاتهم بنظام المقايضة ، ثم عرفوا بعد ذلك نظام التعامل بالنقود فسكوا نقوداً لهم . وقد عُثر على قطعة نقد من نقودهم هى درهم ، عليها صورة ملك من ملوكهم جالس على عرشه أمسك بيده ورده ، وخلفه كُتب اسمه واضحاً بالمسند وهو : أب يثع ، ويرجع تاريخ هذه العملة إلى القرن الثالث قبل الميلاد .

وقد عثر على كتابات معينية خارج اليمن ، ولا سيما فى موضع ديدان (العلا) ولحيان ، وذلك يدل على نزول المعينين الأراضى المجاورة لدولتهم وتركهم أثراً ثقافياً فيمن اختلطوا بهم أو جاوروهم ، وتكوين دويلات لهم هناك . وقد نزل المعينيون فى أعالى الحجاز وفى بلاد الأردن وفلسطين . ومنهم من تاجر مع بلاد الشام ومصر وبلاد البحر المتوسط . وقد دلنا على ذلك عثور المنقبين على كتابات معينية فى مصر والشام وجزيرة ديلوس من جزر اليونان .

٢- مملكة حضرموت (١٠٢٠ ق م - ٢٩٠ م):

عاصرت مملكة حضرموت دولة معين ، وقد ظهرت قبل الميلاد أيضاً . وقد ورد اسم حضرموت فى الكتابات العربية الجنوبية ، كما عُثر على كتابات حضرمية ورد فيها أسماء عدد من ملوك حضرموت وأسماء أسر حضرمية ومدن كانت عامرة ومزدهرة فى أيام ازدهار هذه الدولة . وبفضل هذه الكتابات توصلت لنا معلومات لا بأس بها عن حضرموت وعن علاقاتها بمن جاورها من الدول فى جنوب شبه الجزيرة العربية .

وليس من المعروف ، بسبب قلة المعلومات ، حكام هذه الدولة الأول ولا عددهم ولا مدد حكمهم ، كذلك لم يتفق العلماء على مبدأ قيام حكومة هذه المملكة وتاريخ سقوطها فى يد ملوك سبأ .

ومن أسماء ملوك حضرموت التى وردت فى القوائم التى أعدها المستشرقون : صدق آل (صديق إيل) ، وقد حكم فى تقدير فلبى حوالى سنة ١٠٢٠ ق . م ، شمر علن بن صدق آل (شهر علان بن صديق ايل) وقد تولى الحكم سنة ١٠٠٠ ق . م ، معد يكرب ، وقد تولى الحكم سنة ٩٨٠ ق . م ، العزيلط ، السمع ذبيان بن ملك كرب ، ورب شمس وغيرهم .

ولقد قامت بعثة بريطانية صغيرة بأعمال الحفر فى موضع يُقال له : الحريضة ، من أعمال حضرموت ، فاكتشفت فيه آثار معبد الإله سين ، وهو يرمز إلى القمر ، وعثرت على قبور عثر فيها على عظام فى حالة جيدة وعلى أوانى من الفخار والخزف وعلى خرز ومسابح ترجع إلى القرن السابع قبل الميلاد . كما عُثر فى خرائب شبوه وعقلة وفى مواضع أخرى على عدد من الكتابات الحضرمية . ويُظن أن المقابر التى عثر عليها وبعض واجهات معبد سين تعود إلى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد .

ولقد ورد فى الكتابات الحضرمية أسماء بعض (المكربين) الذين ساعدوا ملوك حضرموت فى إدارة الدولة . كانوا من كبار الموظفين أو الأعيان البارزين فى حكومة حضرموت . ومن هؤلاء المكربين : المكرب (يرشع بن أبى يشع) ، الذى ورد اسمه فى كتابة سجلها المهندس المعمارى (شكم سلحان بن رضوان) ، وكان المكرب قد كلفه ببناء سور وباب وتحصينات لحصن (قلت) الذى يهيمن على وادٍ يقطعه الطريق القادم من مدينة حجر والمؤدى إلى ميناء (قنا) . كما كان قد كلفه بإنشاء جدار وحواجز فى ممرات الوادى المهمة لحماية منطقة حجر من المغيرين من الأعداء الذين يغزون حضرموت . وقد وضع المكرب تحت تصرف المهندس شكم موظفين وعمال ومعماريين لتولى أعمال البناء الذى تم فى خلال ثلاثة شهور . وتوجد اليوم فى (وادى لبنة) بقايا جدار

كان يسد هذا الوادى فى أيام مكربى حضرموت ، ويبدو أن بانيه هو المهندس شكم سلحان المذكور . ويرى بعض الباحثين أن الكتابة التى دونها شكم سلحان على جدار (لبنا) وعثر عليها فى مكانها هى أقدم كتابة حضرمية وصلت إلينا حتى الآن ، وهى ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد .

ولقد اشتهرت مملكة حضرموت بتجارتها الخارجية ، نظراً لموقع بلادها التجارى الهام ، وكان ميناؤها (قنا) هو ميناء تجارتها بحراً مع الهند وافريقية ، وكانت دولة حضرموت تتحكم بطول الساحل بين عدن وقنا ، شرقى عدن . وكانت السفن تأتى إلى ميناء قنا وتخرج منه لتذهب إلى افريقيه والهند وعمان وأرض فارس .

وقد ورد فى بعض الكتابات ما يفيد استقبال الملك (العزيلط) ، ملك حضرموت ، لضيوف وفدوا عليه من الهند ومن تدمر ومن الحجاز . وتفيد النصوص الواردة فى هذه الكتابات بالاتصال الذى كانت عليه مملكة حضرموت بالعالم الخارجى فى ذلك الزمن ، وبالروابط التجارية التى كانت تربطها بالعالم آنذاك .

ولقد ذكر بعض العلماء المتخصصين فى تاريخ اليمن أن سقوط مملكة حضرموت واندماجها النهائى فى مملكة سبأ أيام آخر ملوكها (شمريهرعش) قد وقع سنة ٣٠٠ ميلاديه .

ولقد وردت فى الكتابات التى تتصل بتاريخ مملكة حضرموت بعض أسماء القبائل الحضرموتية ، ومن هذه القبائل : قبيلة شكمم ، وقبيلة مقنعم ، وقبيلة يهبار ، وقبيلة يام .

ومن المدن والمواقع الحضرمية المشهورة : شبوه ، وهى عاصمة حضرموت ، وقد زارها فلبى وعثر على آثار معابدها وقصورها القديمة ، كما شاهد بقايا

السدود التى كانت فى واديها لحصر مياه الأمطار والاستفادة منها فى رى مناطقها الخصبة الواسعة . أما حصن أنود ، وموضعه (عقلة) فى الزمن الحاضر ، فكان موضعاً يحتفل فيه ملوك حضرموت عند تتويجهم وتوليهم الحكم . وهو خراب الآن ، وقد زاره فلبى وعثر به على عدد من الكتابات الحضرمية .

ومن مدن الحضرميين أيضاً مدينة (ميفعت) ، وكانت عاصمتهم القديمة ، وكانت من المدن الهامة . وقد عثر على كتابات عديدة عن تحصين هذه المدينة وعن سورها المتين والأبراج التى أقيمت فوقه لصد المهاجمين للمدينة . وقد حل الخراب بهذه المدينة فى القرن الرابع الميلادى .

وكان ميناء قنا من أهم موانى حضرموت ، وقد ذكر عنه بلينيوس أن السفن تأتى من مصر فى طريقها إلى الهند ، أو السفن الآتية من الهند إلى مصر ، كانت ترسو إما فى ميناء قنا أو ميناء عدن . وقال مؤلف كتاب (الطواف حول البحر الأرتيرى) عن قنا أنه « ميناء حضرموت وله تجارة واسعة مع عُمان على الخليج ومع سواحل الهند ومع سواحل الصومال فى إفريقية » . وفى ميناء قنا كان يُجمع اللبان والبخور وغير ذلك ويصدر إلى الخارج إما براً أو بحراً .

ولمدينة قنا حصن خارجها يُعرف بحصن غراب يحميه من قراصنة البحر ، ولا تزال آثار مخازن مائه القديمة باقية ، وهى صهاريج تُملأ بالأمطار عند نزولها لتُستعمل وقت انحباسها .

ومن مدن حضرموت القديمة مدينة (مذاب) التى اشتهرت بمعبدها الذى خصص لعبادة الإله سين ، وتقع بقاياه الآن فى الموضع المعروف باسم الحريضة .

ويُرجع الخبراء تاريخ المدينة ومعبدها إلى الفترة الواقعة بين القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد .

ومن بقايا الحصون والقلاع الموجودة الآن ، وترجع إلى أيام مملكة

حضرموت : حصن عر ، وحصن ثوبه ، وحصن المكنون . ويظهر من آثار الحصون والقلاع الباقية فى حضرموت أن هذه المملكة كانت قد حصنت حدودها وقامت بحمايتها بحاميات عسكرية أقامت على طول الحدود لمواجهة المغيرين عليها والمهددين لأمنها . وقد أقيمت هذه الحصون والقلاع على قمم جبال ومرتفعات تشرف على السهول ومضايق الأودية حيث يكون من السهل على الجنود إصابة العدو وإنزال الهزيمة به .

٣- مملكة قتبان (١٠٠٠ ق . م - ٢٥٠ ق . م) :

عاصرت مملكة قتبان مملكة معين ، وكانت تقع غربى اليمن ، وقد امتدت منازلهم حتى باب المندب . وقد تحدث عنها مؤرخو اليونان وجغرافيوها من أمثال بطليموس وايراتوستينس وسترابون ، بينما لا نجد فى المصادر العربية عنها معلومات ذات بال لانقطاع أخبارهم قبل ظهور الإسلام بزمن وكل ما ورد عنهم فى هذه المصادر أنهم من قبائل حمير .

ولقد كشف المستشرقون الأوربيون ، بعد رحلاتهم التى قاموا بها إلى اليمن فى أواخر القرن التاسع عشر ، أول كتابات قتبانية ترجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد ، وهو الزمن الذى انقرضت فيه مملكة قتبان . وقد جمع المستشرق كلاسر من هذه الكتابات القتبانية أسماء ثمانية عشر ملكاً من ملوكهم حكموا المملكة .

ولقد زارت بعثات أثرية أمريكية وادى بيحان للتنقيب عن الآثار هناك ، وبخاصة فى موقع مدينة (تمنع) المدينة القتبانية القديمة وعاصمة المملكة وبعض المواقع القريبة منها .

وقد تبين من دراسة الكتابات القتبانية أن لهجتها أقرب إلى اللهجة المعينية منها إلى اللهجة السبئية . ولقد اختلف العلماء فى تحديد عمر مملكة قتبان ، فأرجع

هوميل تاريخها إلى ما قبل سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ، بينما ذهب ملاكر إلى أن ابتداء حكم قتبان كان فى حوالى سنة ٦٤٥ قبل الميلاد ، وأن نهاية استقلالها كان فى القرن الثالث قبل الميلاد .

وقد وُجد من دراسة الكتابات القتبانية أن حكام قتبان الأول كانوا يلقبون أنفسهم باللقب الذى تلقب به حكام سبأ الأول نفسه وهو لقب : مكرِّب ، وهى مقرِّب ، والمكرِّب هو المقرب إلى الآلهة والواسطة بينها وبين الناس . وهو كناية عن الكاهن الحاكم الذى يحكم باسم الآلهة ويتحدث باسمها .

وقد كان هؤلاء المكربون يحكمون فى طوائفهم مثل حكم قضاة بنى إسرائيل ، فلمّا توسع سلطانهم وتجاوز حدود المعبد ، لم يعد حكمهم حكماً دينياً فحسب ، بل صار أيضاً دنيوياً ، فلقبوا أنفسهم بلقب الملوك ، ومن هنا تحولت طبقة المكربين إلى ملوك ، وبذلك كان المكربون فى حكم دولة قتبان أسبق من الملوك .

ومن أقدم مكربى قتبان : المكرب (سمه على وتر) وابنه (هوف عم يهنعم) ، وقد حكما فى القرن السادس قبل الميلاد . وجاء بعده ، فى قائمة فلبى ، إسم المكرب : (شهر يجل يهرجب) وهو ابن هوف ، وقد ذكر أنه اتخذ لقب ملك . وحكم بعده ابنه (شهرهلل) ، شهر هلال ، ثم ابنه : (نبط عم يهنعم) .

ويرى بعض المؤرخين أن دولة قتبان قد سقطت فى القرن الأول للميلاد بعد سقوط عاصمتها (تمنع) فى يد حكام سبأ وفقد القتبانيون استقلالهم واندمجوا فى حكومة سبأ وذى ريدان فى النهاية . وقد عُثر على كتابة فى وادى بيحان تفيد بأن ملك حضرموت بنى مدينة ذى غيلان فى هذا الوادى على مسافة عشرة أميال من موضع (بيحان القصب) الحالية ، أى فى أرض قتبانية ، وذلك

بعد سقوط مدينة تمنع عاصمة قتبان . ويتفق جمهع الباحثين على أن السبئيين هم الذين قضوا على استقلال حكومة قتبان .

ولا يعنى سقوط دولة قتبان أن الشعب القتبانى زال من الوجود ، فإننا نرى استمرار وجودهم فى جزيرة العرب ، ونجد الجغرافى الشهير بطليموس يذكر اسمهم ضمن من ذكرهم من شعوب تقطن فى جزيرة العرب .

وقد استدل المستشرق البرايت من طبقة الرماد الكثيفة التى عثر عليها ، وقد غطت أرض العاصمة القتبانية تمنع ، على أنها كانت قد أصيبت بحريق هائل أتى عليها وأتى على استقلال المملكة غداة فتح السبئيين لها . وقد كانت عادة السبئيين وغيرهم حرق المدن والقرى التى تقاوم مهاجميهم . وفى كتابات المسند أخبار كثيرة عن فناء مدن وقرى بتعرضها للحرق والتدمير .

ومن القبائل القتبانية ، قبائل : بنى جدن ، وبنى يهر ، وشعبن أهربن ، أى قبيلة أهربن ، وبنى ذران ، وبنى هران ، وبنى طدام ، وبنى ردمان ، وآل قفعان ، وغيرها .

ومن أهم مدن قتبان ، مدينة تمنع ، وكانت العاصمة ، وتُعرف حديثاً بكحلان ، وبهجر كحلان ، وبخْرائب كحلان . ومن مدنها أيضاً ، مدينة شور ، ومدينة حرب (حريب) ، وبرم .

ولقد عبد القتبانيون الإله : عم ، وجعلوا أنفسهم أبناءه ، فسموا أنفسهم : ولد عم . وكانوا يقيمون له التماثيل على صورة الإنسان العملاق فى معابده ، ويتقربون إليه بالنذور والذبائح . وأشهر معابده كانت معبد : (عم ذلنج) أى معبد عم فى لنج فى منطقة ذى غيل . ويرى بعض الباحثين أنه بعد بناء هذا المعبد فى منطقة ذى غيل ، أنشأ الملك (يدع أب غيلان) مدينة حول هذا المعبد عُرفت بذى غيلان ، وهى موضع مدينة هجر بن حميد الحالية .

٤- مملكة سبأ (١٠٠٠ ق . م - ١١٥ ق . م):

قامت مملكة سبأ فى الركن الجنوبى الغربى من بلاد اليمن ، وكانت مجاورة ومعاصرة للدولة المعينية . ولمّا قويت شوكة مملكة سبأ وعظُم أمرها انتزعت سلطان دولة معين وضمتها إليها ، واتخذت مدينة صرواح عاصمة لها فى أول الأمر ، ثم اتخذت بعد ذلك مدينة مأرب عاصمة لها .

ولقد ورد إسم سبأ فى القرآن الكريم ، وسُميت سورة فيه باسمها لما كان لها من مكانة كبرى فى التاريخ القديم . ويذكر الأخباريون أن نسبة هذه الدولة يرجع لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ومن أولاده قبائل كثيرة انتشرت فى كل مكان فى جزيرة العرب ، قبل الإسلام وبعده ، وإليه نُسب نسله السبئيون . وقد زعموا أن إسمه الحقيقى : عبد شمس ، وأما سبأ فهو لقب لُقب به لأنه أول من سبأ وسن السبى من ملوك العرب وأدخل السبايا بلاد اليمن . وذكروا أنه قام ببناء مدينة أسماها سبأ ، وبناء سد مأرب وقام بالغزو خارج اليمن .

وليس فى النصوص العربية الجنوبية شىء عن هوية سبأ ولقبه المزعوم ، وكل ما ورد فيها أن سبأ إسم شعب كوّن له مملكة ، وترك عدداً كافياً من الكتابات ، وكان يتعبد لآلهة خاصة به ، وله حكام حاربوا غيرهم .

ولقد وصلتنا معلومات طيبة عن هذه الدولة أكثر من غيرها ، لما ورد عنها فى التوراة وفى الكتابات الآشورية والكتب اليونانية واللاتينية ، فضلاً عما ورد عنها فى القرآن الكريم . وقد ورد أقدم ذكر لسبأ كشعب عربى فى النصوص السومرية القديمة ، وبذلك كان السبئيون أول شعب عربى جنوبى تصلنا أخباره من المصادر التاريخية . وقد كانوا أصلاً يسكنون شمال شبه الجزيرة ، ثم ارتحلوا إلى جنوب جزيرة العرب واستقروا فى منطقتى صرواح ومأرب وأقاموا دولتهم هناك .

وقد وصفت التوراة أرض سبأ (شبا) بأنها كانت تُصدر اللبان ، وأنها كانت

ذات تجارة كبيرة ، وأن تجارها كانوا يتاجرون مع العبرانيين ، وأنها أرض عُرفت بثروتها وبوجود الذهب فيها . ويتبين من المواضع التى ورد فيها ذكر السبئيين فـى كتاب العهد القديم ، أن معـارف العبرانيين عنهم قد جاءتهم نتيجة اتصالهم التجارى بهم ومعلوماتهم الواردة عنهم تتصل فقط بهذا الأمر . ولقد ذكر كتاب العهد رحلة ملكة سبأ إلى فلسطين على عهد حكم سليمان حوالـى سنة ٩٥٠ ق . م ، ولكنه لم يذكر اسم هذه الملكة . كذلك قص القرآن الكريم قصة ملكة سبأ والنبى سليمان دون أن يذكر إسم الملكة وذكر أنها وأهلها كانوا يسجدون للشمس من دون الله . وقد ذكر المفسرون المسلمون وأهل الأخبار أن إسم هذه الملكة هو بلقيس ، وأنها كانت من ملوك التبابعة ، وأرجعوا نسبها إلى جدها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وقد تبين من الكتابات السبئية أن فترة حكم ملوك سبأ قد انقسمت إلى حقبتين ، الحقبة الأولى ، وهى أقدمها ، وقد حمل حكامها لقب المكارب ، ومفردها مكرب دون أن يتخذوا لقب ملك . والحقبة الثانية ، وهـى الحقبة التـى اتخذوا فيها لقب ملك ، فصاروا يعرفون بملوك سبأ حتى نهاية دولتهم سـنة ١١٥ قبل الميلاد .

وبفضل الكتابات الأثرية التى خلفها مكارب وملوك سبأ ، وبفضل البقايا الباقية من خرائب مدنهم وقراهم استطعنا أن نتعرف على بعض تاريخهم وشىء من حضارتهم وعدد من أسماء ملوكهم وأهم أعمالهم .

ويقدر بعض الكتاب أن بداية حكم المكربين في دولة سبأ فى مطلع القرن التاسع قبل الميلاد ، بافتراضهم أن حكم المكرب الأول كان حوالى سنة ٨٠٠ قبل الميلاد . وجعلوا نهاية حكم المكربين حوالى سنة ٦٥٠ ق . م . وقد تمكن العلماء من جمع زهاء سبعة عشر مكرباً وردت أسماؤهم فى الكتابات العربية

الجنوبية ، وذكروا أن عاصمتهم كانت مدينة صرواح ، عاصمة سبأ القديمة . ويعد المكرب سمه على ، أقدم مكرب ورد إلينا إسمه ، وقد جعل فلبى بداية حكمه سنة ٨٢٠ قبل الميلاد . وقد نسب إلى هذا المكوب بناء مدينة مأرب ، وتقديمه القرابين إلى الإله عشتر بهذه المناسبة .

وقد جاء بعد المكرب (سمه على) فى النصوص السبئية اسم المكرب : (يثع أمر وتر) وبعده إبنه وخليفته : (يدع إبل بين) وهو المكرب التالى له . وحكم بعده المكرب : (يثع أمر) . وتولى الحكم بعد يثع إبنه المكرب : (كرب إيل بين) ، وهو آخر حكام سبأ فى المجموعة الأولى من حكامها التى اتخذت لقب المكربين .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن المكرب (سمه على) والمكرب (يثع أمربين) كانا المؤسسين الأصليين لسد مأرب . ويرجعون زمانهما إلى القرن السابع قبل الميلاد ، فيكون بذلك إنشاء السد يرجع إلى هذا القرن . وقد استمر من جاء بعدهما فى إصلاحه وتوسيعه وترميمه بسبب ما كان يحدث فيه من تلفيات . ويبدو أن تلفاً عاماً قد أصابه فى الفترة ما بين سنوات ٥٤٢ و ٥٧٠ ميلادية فلم يصلح مما اضطر الناس إلى ترك أراضيهم الزراعية والهجرة من اليمن ، كما وردت الإشارة إلى ذلك فى القرآن الكريم .

وإلى المكرب سمه على تشير الكتابات السبئية التى عثر عليها فى مأرب بتوسعه فى أرض قتبان وأرض معين وإخضاعه القبائل والمدن التى لم تكن خاضعة لسبأ حتى أرض نجران . وقد قام المكرب (يثع أمر بين) بأعمال عمرانية عديدة ، منها تحصينه لمدينة مأرب وبناء معابد فى ريدان وعدن وبناء سد مقرن وسد يثعن . ولقد أدى بناء هذه السدود إلى اتساع الزراعة فى دولة سبأ وتحويل أراضيها إلى جنات ، كما ورد ذلك فى القرآن الكريم .

ولقد كانت مدينة صرواح ، بين صنعاء ومأرب ، هى عاصمة السبئيين أيام حكم المكربين ، وفيها معبد إلههم الأكبر الذى أطلقوا عليه إسم (المُقَه) ، بمعنى الواقى ، وبعد حكمهم انتقلت العاصمة عنها إلى مأرب .

ويبدأ العهد الثانىّ من حكام دولة سبأ ، بعد أن اتخذ آخر المكاربة وهو (كرب إيل وتر) لنفسه لقب ملك ، فصار حكام الدولة يُعرفون بملوك سبأ ، بسبب استمرار حكام الدولة التلقب بهذا اللقب . ويُقدر العلماء بداية هذا العهد بسنة ٦٥٠ ق . م ، وهو ينتهى ببداية العهد الثالث وهو عهد ملوك سبأ وذى ريدان سنة ١١٥ ق . م .

ويُعد كرب إيل وتر هو أول ملوك سبأ فى العهد الثانى ، ثم حكم بعده إبنه الملك (سمه على ذرح) سنة ٦٠٠ ق . م . ثم حكم بعده إبنه : (كرب إيل وتر) ، ثم إبنه : (يدع آل بين) . ثم من بعده إلى الملك (يكرب ملك وتر) . ثم بعده ابنه الملك : (يثع أمر بين) . ثم بعده إبنه الملك (كرب آل وتر) . ثم بعده حكم إبنه الملك : (ذمر على) . وبعد ذلك حكمت سبأ أسرة تنتمى إلى عشيرة مرثد بن همدان . وكانت قبيلة همدان من القبائل الكبيرة التى اكتسبت قوة وسلطاناً فى ذلك العهد ، وكان أول ملوكها فى سبأ هو الملك : (يرم أيمن) .

ولقد أُتخذت مأرب عاصمة لدولة سبأ فى ذلك العهد دون صرواح ، ولقد اندثرت هذه المدينة القديمة وبنيت على أنقاضها مأرب الحديثة . وقد كان أعظم أبنية مأرب وأشهرها قصر ملوكها ، المعروف باسم سلحم ، كذلك معبدها الكبير ، معبد الإله المقه بعل ، الذى تُعرف خرائبه اليوم بحرم بلقيس .

وترينا كتابات العهد الأخير من حكم دولة سبأ أن الوضع فى الدولة كان قلقاً مضطرباً . وأن حروباً متوالية كثيرة قد وقعت لم يكن فيه منتصر ،

والمتحاربون البارزون في تلك الحروب هم سادات همدان وسادات حمير وأصحاب ريدان وسادات حضرموت وقتبان وأذواء وأصحاب طموح أرادوا اقتناص الفرص لتوسيع نفوذهم وانتزاع الحكم من الجالسين على عرشه . وقد أضعف هذا الوضع دولة سبأ بالطبع حتى أطمع الأحباش فيها ، فصاروا بذلك طرفاً في النزاع .

وفضلاً عن الحروب الكثيرة التي وقعت في أواخر أيام دولة سبأ ، فإن هذه الدولة تأثرت تأثراً كبيراً بانهيار سد مأرب ، الذى وقع ما بين سنوات ٦٥٠ - ٦٣٠ ق . م ، مما أدى إلى غرق أراضيها الزراعية وهجرة قبائلها عنها إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة وتشكيل الهجرة القحطانية الكبرى . فضلاً عن تحول التجارة عنها إلى حكام مصر البطالمة وقيام الأنباط عنهم بدور الوسيط التجارى . لكل هذه الأسباب سقطت دولة سبأ وقامت على أنقاضها دولة عربية أخرى كبرى ، هى دولة حمير .

٥- مملكة حمير (١١٥ ق . م - ٥٢٥ م) :

كانت حمير من القبائل العربية الكبيرة المعروفة في منطقة ريدان جنوب شبه جزيرة العرب ، وهم ينتسبون إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وقد ذكر بعض أهل اللغة أنه سمى حمير ، لأنه كان يلبس حلةً حميراء . وقد وصل خبر دولة حمير إلى اليونان والرومان ، وذكروا أن عاصمتهم كانت مدينة ظفار . وقد ذكر صاحب كتاب (الطواف حول البحر الأرتيرى) أن الحميريين كانوا يحكمون في أيامه منطقة واسعة من ساحل البحر الأحمر وساحل المحيط حتى حضرموت ، كما كانوا يمتلكون قسماً من الساحل الشرقى لإفريقية ، وهو ساحل عزانيا ، وكان عليهم ملك يدعى (كرب إيل) وعاصمته مدينة ظفار ، وكان على صلات طيبة بالروم .

ويُطلق أهل الأخبار لقب (تُبع) على الملوك الحميريين الذين حكموا اليمن ويُجمع بالتتابعة ، وقد ذُكر أنهم سُموا كذلك لأنهم يتبعون بعضهم بعضاً وكلما مات أحدهم قام مقامه تابع له على مثل سيرته ، وقيل أيضاً لأن التُبع ملك يتبعه قومه ويلتزمون بطاعته . وأن أول من لُقب منهم بذلك : الحارث بن ذى شمر ؛ وأن هذا اللقب ظل فيهم إلى أن زالت مملكتهم على يد الأحباش بعد غزوهم اليمن .

ويظهر من الكتب العربية أن الحميريين كانوا يقطنون حول لحج فى منطقة ظفار ورداع ، وقد عُرفت الأرض التى أقاموا فيها بذى ريدان ، وهى نسبة إلى قصر ريدان الذى بناه ملوكهم فى ظفار بأرض قتبان على جبل يسمى بذى ريدان ، وقد كانوا أتباعاً لمملكة قتبان . ولذلك أطلق السبئيون عليهم : ولد عم ، أى ولد الإله عم إله قتبان ، برغم أنهم لم يكونوا يتعبدون للإله عم .

ويرى بعض الباحثين أن سنة ١١٥ قبل الميلاد ، هى سنة نشوء حكومة حمير وظهورها إلى الوجود بصورة فعلية ، ولهذا صار الحميريون يؤرخون بها لما لها من أهمية سياسية عندهم .

وقد كان الحميريون يغزون أرض مملكة حضرموت ويقطعون طرق تجارتها ، ولا سيما طريق : شبوه – قَنا ، المؤدى إلى المدن الجنوبية والساحل ، لذلك اضطرت مملكة حضرموت إلى إقامة سور على طول وادى لبنه ، وكان ذلك قبل سنة ٤٠٠ قبل الميلاد .

ولم تلبث دولة حمير أن ازدهرت واستوى عودها وتقوت ودخلت فى حرب مع السبئيين وانتصرت عليهم واحتلت بلادهم ، وصار ملوكها ، بعد ذلك ، يُعرف كل واحد منهم « بملك سبأ وذى ريدان » ، وكان ذلك بداية من سنة ١١٥ قبل الميلاد . وقد اتخذ ملوكها مدينة ظفار عاصمة لهم.

وقد انقسم حكم دولة حمير إلى فترتين زمنيتين ، الأولى عُرفت بدولة حمير الأولى فى المدة ما بين سنوات ١١٥ ق . م حتى سنة ٣٠٠ ميلادية ، وعرف ملوكها « بملك سبأ وذى ريدان » ، والفترة الثانية من ٣٠٠ ميلادية حتى نهاية الدولة سنة ٥٢٥ ميلادية ، وقد أخذ كل ملك من ملوكها لقب : « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات » ، وذلك بعد أن تغلبت حمير على مملكة حضرموت وضمتها إلى أملاكها .

ومن ملوك حمير ، ذكر الأثريون إثنين وعشرين ملكاً ، كان أشهرهم فى الدولة الأولى : الشرح يحصب ، الذى كان أول ملوك حمير الذى لقب نفسه بملك سبأ وذى ريدان ، وقد نسب إليه قصر غمدان . وقد قام هذا الملك بغزو مملكة حضرموت وانتصاره عليها وحصوله على أسرى وغنائم كثيرة منهم . وفى كتابات عثر عليها ، منذ عهد غير بعيد ، وردت أخبار عن معارك وحروب وقعت بين الملك الشرح يحصب وشقيقه (يأزل بين) من جهة وبين الأحباش ومن كان إلى جانبهم من قبائل من جهة أخرى عند وادى سردد شمالى الحديدة ، وانتصاره عليهم انتصاراً كبيراً .

كذلك كان (ياسر يهصدق) ، الذى حكم ما بين سنة ٧٠، ٨٠ ميلادية ، وابنه الملك (شمريهرعش الأول) الذى حكم حوالى سنة ١٤٠ ميلادية ، من أعظم ملوك حمير . ولقد قام هذان الملكان بفتوحات عظيمة فى أرض العراق وفارس ووصلت قواتهما إلى بلاد ما وراء النهر . ولقد اتخذ الملك شمر لنفسه لقب « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات » فى النصف الثانى من عهده بعد أن استولى على حضرموت وعلى السواحل الجنوبية من شبه الجزيرة التى عرفت آنذاك باسم يمنات (اليمن) . ويمثل عصر هذا الملك عصر الانتقال إلى العصر الحميرى الثانى .

ومن ملوك العصر الحميرى الثانى المشهورين : الملك أبى كرب أسعد الذى يزعم الأخباريون عنه أنه أول من اعتنق اليهودية من الملوك التبابعة ونشر اليهودية بين أهل اليمن . وقد طال حكم هذا الملك وقيل أنه حكم أكثر من خمسين عاماً وأن وفاته كانت سنة ٤٣٠ ميلادية . وينسب إلى هذا الملك قصر غيمان الذى شيد على مقربة من مدينة غيمان ، وقد دفن هذا الملك أسفل التل الذى أقيم عليه القصر ولازال قبره هناك حتى الآن .

ولقد قام هذا الملك بفرض سيادته على الأعراب الضاربين فى منطقة نجد وتهامة والحجاز ، كذلك قام بعدة حملات على الحيرة والموصل من مدن العراق ، وعلى منطقة أذربيجان ، وعلى قبائل عسير وتهامة حتى ساحل البحر .

وينسب إلى هذا الملك أقدم قانون سنه لشعب سبأ ، أهل مأرب وما والاها ، فى تنظيم البيوع بالمواشى والرقيق ، فحدد المدة التى يعد البيع فيها تماماً وهى مدة شهر ، والمدة التى لا يجوز فيها رد المبيع إلى البائع وهى بين عشرة أيام وعشرين يوماً . كما حدد مدة الحيوان الهالك فى أثناء المدة التى يحق للمشترى فيها رد ما اشتراه إلى البائع وجعلها أسبوعاً .

وقد حكم (حسان يهأمن) بن أسعد أبو كرب بعد أبيه ، وقد ذكر فى الأخبار اسمه (بحسان بن تبع أسعد أبى كرب) ، وقد زعموا أنه أغار على طسم وجديس باليمامة ، وأنه فقأ عينى زرقاء اليمامة ، وأنه حارب جذيمة ملك الحيرة .

وحكم بعده (شرحبيل يعفر) وهو أخو حسان ، وقد قام بترميم سد مأرب سنة ٤٥٦م ، بعد حدوث تصدع فيه . لكن السد تهدم بعد ذلك بوقت قصير ، مما اضطر القبائل إلى الرحيل لمواضع أخرى مثل صنعاء ، التى تألق نجمها حتى صارت مقراً للحكام الذين أقاموا فى قصر غمدان .

وقد انتقل الحكم بعد شرحبيل إلى عبد كلال ، الذى حكم من ٤٥٥ م حتى سنة ٤٦٠ م ، وحكم بعده الملك : (شيمبيل يكف) حتى نهاية ٤٧٠م.

وقد عثر على كتابة ورد فيها إسم ملك من ملوك (سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت أعرابها فى الجبال وفى تهامة) ، وهو الملك (معد يكرب يعفر) وأرخت هذه الكتابة بسنة ٥١٦ ميلادية .

ويُفهم من نص هذه الكتابة أن حرباً أو فتنة كبيرة قد وقعت فى أيام هذا الملك ، أسهمت فيها قبائل عربية وردت إسمها فى النص ، وهى : سبأ وحمير ورحبة وكنده ومضر وثعلبه . وكان ذلك قبل احتلال الحبش لليمن بقليل . وقد مهدت هذه الفتنة الطريق للأحباش أن يدخلوا جـزيرة العرب ويحتلوها بسهولة ، وذلك بسبب الخصومات التى كانت بين القبائل وظهور روح الفرقة القبلية بينها .

وتولى المُلك بعد معد يكرب يعفر الملك ذو نواس ، وهو زرعة ذى نواس بن تبان أسعد أبى كرب ، وقد لُقب بيوسف بعد أن اعتنق اليهودية ، كما زعم أهل الأخبار والسير . وقد كان ذو نواس آخر ملوك حمير .

ولا يُعرف شيئاً عن أخبار هذا الملك إلا اعتناقه اليهودية وتعذيبه لنصارى نجران ، وقد كان شديد التحامل على النصارى والنصرانية . وكانت نهاية حكم ذى نواس سنة ٥٢٥ م باحتلال الحبش لليمن حتى سنة ٥٧٥ م حيث طردهم الفرس منها ، وظلت تابعة لدولة الفرس الساسانية حتى الفتح الإسلامى لها .

وكانت الدولتان العظميتان فى العالم آنذاك هما دولتى الفرس والروم ، وقد وقع الصدام بين هاتين الدولتين حول التوسع وإحراز السيادة السياسية والاقتصادية فى العالم . وبسبب الرغبة فى السيطرة على طرق التجارة العالمية طمعت الدولتان فى السيطرة على اليمن وجنوب شبه جزيرة العرب لما لها من موقع تجارى هام

على الطريق بين تجارة الشرق والغرب العالمية .

وقد اتخذ الرومان من نشر المسيحية فى العالم وسيلة لتحقيق أهدافهم السياسية والعسكرية والاقتصادية وبخاصة فى بلاد جنوب شبه جزيرة العرب ، فأرسلوا المبشرين المسيحيين إلى تلك البلاد لنشر المسيحية بينهم . لكن المسيحية اصطدمت مع اليهودية فــى اليمن فــى عهد ذى نواس الذى كان يمقت المسيحية ، وقد قام ذو نواس بإحراق نصارى نجران ، معقل المسيحية فى جزيرة العرب ، بحفر أخدود لهم فى الأرض وملئه وقوداً وحطباً وإلقاء النصارى فيه وإشعال النار فيهم وقد قيل أنه لم يترك فى نجران إلا اليهود وأنه أحرق كل من اعتنق المسيحية فيها وقد روى القرآن الكريم هذه الحادثة فى سورة البروج . فقال الله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ ، وقد ورد أن عدد قتلى نصارى نجران بلغ عشرين ألفاً

ولقد سلطت الدولة الرومانية الأحباش النصارى للانتقام من ذى نواس وما فعله مع أبناء ملتهم ، بغزو أراضيه والقضاء على حكمه ، وكانت بلاد الأحباش آنذاك ولاية رومانية مسيحية فأغار الأحباش على اليمن ، بعد أن طلب الامبراطور الرومانى جستنيان (٥١٨ - ٥٢٧م) من نجاشى الحبشة (ملكها) غزو اليمن والانتقام والثأر للمسيحيين الذين أحرقهم ذو نواس فى نجران . فأرسل النجاشى أحد قواده على رأس ٧٠ ألف جندى ، ويدعى : (أرياط) على رأس حملة كبيرة لغزو اليمن سنة ٥٢٥ م عن طريق البحر الأحمر . وقد نجحت هذه الحملة فى مهمتها التى أنهتها بقتل ذى نواس واحتلال بلاده . وبذلك سقطت بلاد اليمن ودولة حميّر تحت حكم الأحباش ، وقد قيل أن ذا نواس انتحر باقتحامه بفرسه البحر والموت غرقاً . ولقد ظل أرياط الحبشى يحكم اليمن من قبل نجاشى الحبشة ، حتى ثار ضده قائد آخر يدعى (أبرهة) واستطاع

الانتصار عليه وقتله والحلول مكانه فى حكم اليمن . وقد أصيب أبرهة هذا فى إحدى شفتيه ، أثناء القتال مع أرياط ، فشُجت شفته، وعُرف لذلك بأبرهة الأشرم . وقد وافق ملك الحبشة على تولى أبرهة حكم اليمن بعد مقتل أرياط .

وانصرف أبرهة لنشر المسيحية فى اليمن وجنوب شبه الجزيرة ، ومن أجل ذلك بنى فى صنعاء كنيسة كبرى زينها بأحسن زينة وأسماها العرب « القُليس » وهو تعريب إكليزيا اليونانية بمعنى كنيسة ، وجعلها محجاً لقبائل العرب لإقناعهم بالمسيحية وصرفهم عن الحج إلى كعبة مكة . ولما لم تنجح خطة أبرهة فى جذب العرب إلى كنيسته والديانة المسيحية صمم على هدم الكعبة حتى يجبرهم على اتباع قبلته . وقد خرج أبرهة بجيشه متجها نحو مكة فى عام الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية ، تتقدمه أعداد من الفيلة .

وكان عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ، يتولى أمر البيت الحرام آنذاك وكان زعيم قريش وكبير مكة ، فلمّا رأى قوات أبرهة متقدمة نحو الكعبة لهدمها بواسطة أفيالها ، طلب من قريش أن يخرجوا عن مكة إلى رؤوس الجبال . وعندما تقدمت القوات الحبشية نحو الكعبة لهدمها حفظ الله بيته العتيق من الهدم ، بحسب رواية القرآن ، بأن ﴿ أرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾ . ولم ينج من جيش أبرهة إلا القليل بما فيهم أبرهة ، وقد انسحبوا عن مكة عائدين إلى صنعاء وقد أصابهم مرض الجدرى . وما لبث أبرهة إلا قليلاً حتى هلك فى صنعاء . ويُعرف هذا العام الذى تم فيه الغزو للكعبة ، عند العرب بعام الفيل ، وقد اتخذوه بدايه لتأريخهم ، كذلك تشرف هذا العام بمولد الرسول محمد أشرف من وضعته الأمهات واحتفلت بمولده الأرض والسماوات .

وقد خلف أبرهة فى حكم اليمن إبنه (يكسوم) ، ثم خلفه من بعده أخوه

مسروق ، وقد اشتط الاثنان فى معاملة أهل اليمن والإساءة إليهم ، مما أدى إلى تذمرهم من حكم الأحباش ورغبتهم فى الخلاص منهم . وقد ثارت فى أهل اليمن الروح الوطنية والرغبة فى الاستقلال ، وقد تزعم حركتهم الوطنية أحد أمرائهم وأقيالهم من قبيلة ذى يزن ، وهو سيف بن ذى يزن .

ورأى سيف أنه لن يستطيع بإمكانيات شعبه العسكرية أن يطرد الأحباش من بلاده ومن ورائهم الروم يساعدونهم . فقرر أن يستعدى الروم على الأحباش وأن يعرض ولاءه على ملك الروم فيكون لهم الحكم فى اليمن بواسطته لا بواسطة الأحباش . فذهب ابن ذى يزن إلى القسطنطينية وهنالك التقى بامبراطور الروم جستنيان وعرض الأمر عليه . إلا أن ملك الروم رفض عرضه مؤثراً ولاء الأحباش له فى حكم اليمن عن حكم اليمنيين أنفسهم لبلادهم .

لذلك قرر سيف بن ذى يزن أن يستفيد من الصراع القائم بين الفرس والروم آنذاك والمنافسة فى السيادة على العالم ، فقرر أن يستعين بملك الفرس فى أمره . فاتجه إلى طيفسون (المدائن) عاصمة فارس لمقابلة الملك الساسانى كسرى أنوشروان ، بعد أن اصطحب معه النعمان بن المنذر ، ملك الحيرة وحليف ملوك الفرس ، وسيطاً له عنده . وما أن عرض إبن ذى يزن الأمر على ملك الفرس وأطمعه فى بلاده بعد أن ذكر له مواردها ، وافق الملك أنوشروان على مساعدته ، فأرسل معه جيشاً ضعيفاً قوامه ثمنمائة سجين من سجناء بلاده يقودهم قائد عجوز ، ضعيف البصر ، يدعى (وهرز) . وقد سار هذا فى البحر الأحمر إلى باب المندب فى ثمان سفن على كل سفينة مائة جندى . وقد غرقت سفينتان فى الطريق ولم يصل إلى اليمن إلا ست سفن عليها ستمائة جندى . وانضم اليمنيون إلى جيش وهرز وسيف واستطاع أن يخلص اليمن من الأحباش بعد حكمهم لها أكثر من سبعين عاماً . وحكم سيف اليمن ، نائباً عن الملك الفارسى ، مقابل دفع جزية سنوية لملك الفرس .

وقد قام سيف بن ذى يزن بقتل كثير من الأحباش المقيمين فى اليمن ، وقد جاءت نهاية ابن ذى يزن بأن قتله أحد الأحباش . وأرسل كسرى جيشاً آخر ثبت به حكم الفرس على اليمن . وظل ولاة الفرس يتتابعون على حكم اليمن حتى كان آخرهم باذان الذى أسلم هو وقومه على أثر ما دار بينه وبين رسول الله من مخاطبات . فأقره الرسول على ولاية اليمن ، وأرسل إليه الصحابى الجليل معاذ بن جبل ليفقه أهل اليمن فى الدين ، ومنذ ذلك الوقت دخلت اليمن ضمن دولة الإسلام .

ب- ممالك الشام والعراق

لقد استغلت القبائل العربية الضعف الذى ظهر على الحكومة السلوقية ، التى قامت فى سوريا فى أعقاب تقسيم دولة الإسكندر الأكبر بين قواده ، وأخذت فى الزحف من شبه جزيرتها نحو الشمال ، وقامت بتهديد المدن القريبة من البوادى وحاولت الإستيلاء عليها . وقد نجحت هذه القبائل ، بالفعل ، فى الإستيلاء على بعضها وتكوين إمارات أو مشيخات لها هناك ، وهى حكومات توقفت حياتها على قوة مؤسسيها وقوة من حكم فيها من بعدهم ، كذلك توقف توسعها أو تقلصها على هذا الأمر ، إضافة إلى أحوال الدول الكبرى التى أقاموا على أطرافها . وكان تواجد القبائل العربية على أطراف الشام والعراق قديماً منذ أيام الدولة الآشورية ، وقد قامت الحكومة الآشورية بمحاربتهم ودفع خطرهم والبادية والهلال الخصيب امتداد طبيعى لأرض جزيرة العرب ، والهجرة بين هذه المواضع قديمة قدم ظهور هذه المواضع إلى الوجود ولم يكن أمام أعراب جزيرة العرب من مخرج حين تلفظهم أرضهم وطبيعتها القاسية إلا الهجرة إلى أماكن يجدون فيها الماء والنماء ولم يكن هنالك على طول التاريخ ما هو أخصب من بلاد الهلال الخصيب وأطراف جزيرة العرب فى الجنوب .

وقد علّمت الطبيعة حكومات العراق وبلاد الشام دروساً فى كيفية التعامل والتفاهم مع الأعراب ، علمتهم أن القوة والصرامة ضرورية معهم لوقف طموحاتهم والحد من توسعاتهم على حساب أراضيهم . ولذلك أقامت هذه الحكومات مراكز محصنة لها على حواشى الصحراء ، أقاموا فيها حاميات قوية مزودة بالطعام والماء والأهراء لمجابهة غزو الأعراب . وقد كانت هذه المراكز خطوط دفاع أمامية تحول دون تقدم أبناء البادية إلى مواطن الحضر والعبث فيها .

وعلّمت الطبيعة ، أيضاً ، حكومات العراق وبلاد الشام أن القوة وحدها لا

تكفى لحماية حدودهم ، وأنه لابد لهم من مداهنة العرب واسترضائهم وذلك بالاتفاق مع سادات القبائل الأقوياء ودفع هبات مالية سنوية لهم يرضون عنها مقابل ضبط الحدود وحمايتها من هجمات الأعراب وغاراتهم عليها وتقديم الخدمات الضرورية اللازمة لهم فى الحروب مع أعدائهم . وقد عُرفت هذه الإمارات العربية التى سمحت حكومات الفرس والروم بإقامتها على أطراف دولتيهما ، وجعلت الحكم فيها لرؤساء القبائل العربية الكبيرة باسم الإمارات الحاجزة (Buffer states) .

ومن هذه الإمارات : إمارة الرها ، وإمارة الرستن (حمص) ، وإمارة سنجار ، وحكومة تدمر ، وحكومة الأنباط ، وحكومة الغساسنة فى بادية الشام ، وحكومة المناذرة فى بادية العراق ، وهى مملكة الحيرة .

وقد تمتعت هذه الإمارات فى مناطقها بالاستقلال الذاتى مع الولاء إما لدولة الفرس أو دولة الروم ، لكن هاتين الدولتين الكبيرتين لم تبقيا على استقلال هذه الإمارات طويلاً فعملت على القضاء عليها وعلى حكامها ؛ برغم الخدمات التى قدموها لهما ، وقاموا بضمها إلى بلادهم .

ولمّا جاء الإسلام وقضى على دولة الفرس وقلص أجنحة دولة الروم ضم هذه الإمارات إلى الدولة العربية الإسلامية الوليدة التى أقامها المسلمون مع مطلع القرن السابع الميلادى ، ودخل تاريخها ، منذ ذلك الوقت ، فى طور متغير جديد .

١- دولة الأنباط :

يظهر الأنباط لأول مرة فى التاريخ فى القرن السادس قبل الميلاد كقبائل بدوية فى الصحراء الواقعة فى شرقى ما يسمى اليوم بشرق الأردن فى المنطقة التى عُرفت عند اليونان والرومان باسم : (العربية الحجرية) Arabia Patraea . وأخبارنا

عنهم مستمدة من كتب اليونان القديمة ، ومن الكتابات النبطية واليونانية واللاتينية التى عُثر عليها فى بادية الشام فى المنطقة التى قامت دولتهم فيها ، وفى مناطق : تيماء وصيدا والجوف وسيناء واليمن ومصر . وكانت هذه البلاد منذ بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد مقر ممالك صغيرة كنعانية وآرامية ، وهى مملكتا آدوم ومؤآب فى الجنوب ، ومملكتا عمون وجلعاد فى الشمال .

ودولة النبط دولة عربية ، تثقف أهلوها بثقافة آرامية وكتبوا بكتاباتهم وتأثروا بلغتهم حتى غلبت الآرامية عليهم . وقد اتخذ النبط كتابة لهم وعُرف قلمهم عن بقية الأقلام ، وقد اقتبس من القلم النبطى الخط العربى المستدير الذى عُرف بالخط النسخ ، تمييزاً له عن الخط الثانى الذى تفرع عن هذا الخط (النبطى) كذلك ، وهو الخط ذو الزوايا المعروف بالخط الكوفى ، الذى تطور فى الكوفة ونُسب إليها ، واستعمل فى الإسلام فى كتابة القرآن الكريم ، والوثائق الرسمية القديمة وعموماً فلقد خالف الخط النبطى خط المسند اليمنى الحميرى ، الذى كان استعماله قاصــراً على أهل اليمن ، وكان مغايراً للخط الذى كُتب به الوحى .

ولا يُعرف الموطن الأصلى الذى جاء النبط منه على وجه التحديد ، ولا الزمان الذى هاجروا فيه ، ويُظن ، بوجه عام ، أنهم كانوا فى الأصل بدواً من سكان البادية الواقعة شرقى نهر الأردن ، وأنهم ظلوا رحلاً حتى القرن الرابع قبل الميلاد وأنهم كانوا يعيشون فى خيام ويتكلمون العربية ويكرهون الخمر ولا يهتمون بالزراعة . وفى القرن التالى ارتحلوا نحو الغرب فنزلوا فى أرض آدوم التى ارتحل عنها أصحابها شمالاً وغرباً ، وهناك ترك النبط حياة الرعى واتبعوا حياة الاستقرار فى مواطنهم الجديدة وعملوا فى الزراعة والتجارة . وفى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد تحول النبط إلى مجتمع منظم متقدم فى الحضارة ومتصف بالتطور والترف . وكان مثالهم هذا مثالاً آخر يوضح الحادث الذى كان يتكرر فى

تاريخ الشرق الأدنى القديم ، وهو تحول الرعاة إلى مزارعين ثم إلى تجار فى بلاد قليلة الموارد لكنها تتمتع بموقع ممتاز بالنسبة لتجارة القوافل ، فعوضها العمل فى التجارة عن قلة مواردها الطبيعية .

وتبين من أقدم الأخبار الواردة عن النبط فـى مصادر اليونان القديمة أنهم كانوا ، فى بادىء أمرهم ، رعاة للماشية وأعراب ، وكان منهم أصحاب قوافل تجارية ، وأنه كانت لهم حصون قوية تحميهم من هجمات العدو ، كما أن لهم علماً بصحاريهم ودروبها ومواضع المياه فيها . وقد ذُكر أيضاً أنهم جمعوا ثروات طائلة من الذهب والفضة بسبب اشتغالهم بتجارة المرور بين الشرق والغرب التى كانت تعبر أراضيهم .

وإن أول تاريخ ثابت فى عهد الأنباط هو عام ٣١٢ ق . م حين نجحوا فى صد هجمات حملتين من سوريا بقيادة انتيخونس ، أحد خلفاء الإسكندر السلوقيين ، ضد صخرتهم البتراء (أم البيارة) . وكانت البتراء عاصمتهم وقد بدأت كحصن جبلى ثم أصبحت محطة للقوافل عند ملتقى طرق التجارة التى كانت تنقل التوابل والبخور واللبان . ولقد كانت البتراء ، هذا الملجأ الصخرى ، قبل عهد الأنباط مدينة يلجأ إليها الأدوميون ، وكانت محفورة فى قلب صخر رملى يظُهر جميع ألوان (قوس قزح) وكان لها منظراً جميلاً .

وكلمة بتراء Petra ، هى اللفظ اليونانى لكلمة صخرة ، وفى العربية الفصحى إسمها (الرقيم) ، وقد ورد هذا الإسم فى القرآن الكريم فى سورة الكهف ، وهى ترجمة كلمة (سلع) العبرية الواردة فى التوراة . ووادى موسى هو الإسم الحديث للموقع بأكمله .

وقد وسّع الأنباط سلطتهم ومراكزهم من عاصمتهم إلى المنطقة الشمالية المجاورة حيث أعادوا بناء المدن الأدومية والمؤابية القديمة وأقاموا مراكز جديدة

لحماية القوافل ومحطات مستحدثة لاستثمار الموارد المعدنية . وكانت مدينتهم المدينة الوحيدة بين الأردن والحجاز التى توجد فيها مياه غزيرة ونقية . وأصبحت البتراء منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد المدينة الرئيسية على طريق القوافل التى تربط بين جنوبى الجزيرة العربية وبين مراكز الاستهلاك والبيع فى الشمال . وكانت تسيطر على الطرق المؤدية إلى ميناء غزة فى الغرب وإلى بصرى ودمشق فى الشمال وإلى أيله (إيلات) على البحر الأحمر ، وإلى الخليج العربى عبر الصحراء . وكانت محطة لاستبدال جمال القوافل فيها بجمال أخرى نشيطة .

ولم يكتف المهندسون الأنباط بمياه ينابيعهم ، بل قاموا باستخراج المياه الجوفية من باطن الأرض وفى استخدام مياه الأمطار القليلة وحفظها . وهكذا تمكنوا من انتزاع أجزاء من الصحراء وتحويلها إلى أراض مزروعة أكثر مما فعله أى شعب عربى من قبل أو من بعد .

ولا نسمع سوى القليل عن الأنباط فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد كان سكانها يعملون آنذاك على تنمية موارد دولتهم . وفى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد أصبحت دولة الأنباط قوة يحسب لها حساب فى سياسة الشرق الأدنى .

وقد أدت سياسة البطالمة الرامية إلى السيطرة على البحر الأحمر واحتكار التجارة البحرية إلى إلحاق أضرار فادحة بالنبط وبغيرهم من العرب الذين كانوا يتاجرون فى البحر الأحمر . فاضطر النبط إلى التحرش بسفن البطالمة وبمهاجمة السفن المتجهة إلى مصر وأخذ ما فيها . فاضطر بطليموس الثانى (٢٨٥ - ٢٤٦ ق . م) إلى إنشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية البطلمية ، وقد ألحقت هذه القوة خسائر فادحة بأسطول النبط . وقد منعت هذه القوة النبط مدة طويلة من التعرض لقوافل البطالمة ، غير أن النبط كانوا ينتهزون أى فرصة لمهاجمة سفن البطالمة . ولقد قام بطليموس فيلادلفوس بفرض سيطرة البطالمة

الكاملة على البحر الأحمر ، وأنشأ لذلك ميناء بيرنيس (بالقرب من أسوان) على هذا البحر لحماية أسطول تجارتهم ، الأمر الذى أثر كثيراً على التجار العرب عموماً ، وعلى تجار النبط على وجه الخصوص .

وعن ملوك دولة النبط ، نجد إسم الحارث (أريتاس) Aretas يغلب على أسماء ملوكهم . ولقد كان الحارث الأول (حوالى ١٦٩ ق . م) على رأس قائمة هؤلاء الملوك . وقد تسمى باسم الحارث كثير من ملوك الغساسنة أيضاً فيما بعد كما سوف نرى عند الحديث عن مملكة الغساسنة .

وكان الحارث الأول معاصـراً لمؤسس الأسـرة المكابية فـى فلسطين ، وبدأت الأسـرتان النبطية والمكابية عهديهما كحليفتين طبيعيتين ضـد ملوك سوريا السلوقيين ، خلفاء الإسكندر الأكبر فى حكم سوريا . ولكنهما أصبحتا فيما بعـد متنافستين وقد سـارع الحارث الثانى (ايروتيموس) Erotimus (حوالى ١١٠ - ٩٦ ق . م) إلى مساعدة غزة (فى عام ٩٦ ق . م) أمام الحصار المكابى لها .. وحوالى عام ٩٠ ق . م ، أحرز عبادة الأول ، خليفة الحارث الثانى (Obados) نصراً هاماً على السلوقيين ، مما مهد للأنباط الطريق لاحتلال الجنوب الشرقى من سوريا ، وهى منطقة حوران وجبل الدروز اليوم . واستغل الملك عبادة ، وخلفه الحارث الثالث حوالى (٨٧ - ٦٢ ق . م) ضعف السلوقيين والبطالمة فوسعوا حدود دولتهم النبطية إلى الشمال ، فى الوقت الذى لم تكن روما قد ظهرت فيه على مسرح الأحداث .

والحارث الثالث هو من أشهر الملوك المتقدمين من النبط ، وقد اشتهر بتوسيعه رقعة دولته ، وقد نسب إليه انتصاره على الملك السلوقى انتيوخوس الثانى عشر فى معركة حاسمة عند موقع يعرف باسم (قنا) حيث قضى على معظم جيش الملك السلوقى وقتل الملك نفسه فى المعركة (حوالى سنة ٨٦ ق . م) .

ومن نتيجة هذه المعركة أن استولى الملك النبطى الحارث الثالث على مدينة دمشق (سنة ٨٥ ق . م) وتوسعت بذلك مملكته وأحاطت بمملكة المكابيين من الشرق والجنوب ، وقام الحارث بغزو أرض فلسطين وهزم الجيش المكابى فى معركة (أديدا) ، على مقربة من اللد ، انهار على أثرها الجيش اليهودى وتشتت شمله . وبعد اثنى عشر عاماً من هذه المعركة صد الحارث الثالث هجوماً قام به القائد الرومانى الشهير (بومبى) على بلاده ، وقد كان بومبى يحلم بتوسيع الحدود الرومانية حتى البحر الأحمر ، وبدا كأنه أقوى سيد فى سوريا ، وكان ذلك أول احتكاك مباشر بين النبط وروما .

وبينما كان الحارث الثالث يصد الرمان بيد كان يمد يده الأخرى يفتح بها باب بلاده على مصراعيه للحضارة اليونانية الرومانية . وقد أدخل هذا الملك مملكته ضمن المحور التام للحضارة الهيلنستية ، وكسب لقب : محب الهيلينية Philhellene . وكان أول من سك نقوداً نبطية على غرار نقود البطالمة . كما أنه جلب الصناع السوريين إلى عاصمته وأدخل معهم نماذج الصناعة الهيلنستية . وبدأت البتراء ، منذ ذلك الحين ، تتخذ مظاهر مدينة هيلنستية نموذجية .

ومنذ هذا الوقت أيضاً ، أخذت دولة الأنباط تقوم بدور الحليف لروما والموالى لها . وقد طلب يوليوس قيصر فى عام ٤٧ ق . م ، من الملك النبطى مالك الأول Malchus (حكم حوالى ٥٠ – ٢٨ ق . م) أن يشارك بفرسانه فى حربه فى الإسكندرية ضد البطالمة . وساعد الملك النبطى عبادة الثالث (حكم حوالى ٢٨ – ٩ ق . م) حاكم مصر فى عهد أغسطس قيصر فى الحملة التى أرسلها إلى بلاد العرب سنة ٢٤ ق . م) . وعندما اعتلى عرش الأنباط الملك الحارث الرابع دون أن يستأذن الامبراطور قيصر أغسطس ، كاد ذلك يكلفه عرشه .

وبلغت مملكة الأنباط ذروتها فى عهد أطول حكامها عهداً وهو الحارث

الرابع (الذى حكم فى الفترة ما بين ٩ ق . م - ٤٠ م) . وقد تابع هذا الملك نشر الحضارة الرومانية فى بلاده . وكان من ولاة هذا الملك آنذاك والى دمشق الذى حاول القبض على الرسول بولس . وقد تزوج حاكم فلسطين آنذاك هيرودوس ابن هيرودوس الكبير إبنة الحارث هذا ، لكنه تجرأ على تطليقها ليتزوج من راقصة تدعى (سالومى) كانت السبب الرئيسى فى مقتل يحيى المغتسل النبى (يوحنا المعمدان) . فقام الحارث الرابع ، بسبب ذلك ، بمحاربة هيرودوس . ويرجع تاريخ الأماكن المرتفعة التى لا تزال قائمة فى البتراء والقبور الجميلة التى تمثلها قبور الحجر (مدائن صالح) فى الحجاز ، التى كانت مركزاً لقوم ثمود ، إلى زمن حكم هذا الملك النبطى .

ولقد ضمت دولة الأنباط ، فى أقصى اتساع لها ، جنوبى فلسطين وشرقى الأردن وجنوب شرقى سوريا وشمالى الجزيرة العربية .

ونحن لا نعرف عن حكام الأنباط غير بعض الحقائق المستخرجة من الكتابات الأثرية المحلية والنقود والكتابات القديمة . ومنذ عهد حكم عبادة الثالث (٢٨ - ٩ ق . م) أخذت تظهر فى نقود الأنباط صورة الملكة إلى جوار الملك . واستمرت التماثيل النصفية المزدوجة للزوجين الملكيين تظهر منذ ذلك الحين حتى نهاية حكم دولة النبط . وهناك كتابة أثرية على تمثال للملك عبادة الثالث تدعوه بالإله ، مما يدل على أن الأنباط كانوا يؤلهون ملوكهم بعد الموت . وقد وصفت الملكة على نقود الملك مالك الثانى (٤٠ - ٧٠ م) ابن الحارث الرابع ، بأنها شقيقة الملك ؛ مما يشير إلى أن بعض الملكات النبطيات كن زوجات شقيقات للملوك الأنباط الحاكمين ، متبعين فى ذلك عادة الفراعنة وحكام البطالمة . كذلك أشارت كتابة أثرية على أن إحدى زوجات الحارث الرابع كانت أختاً شقيقة له .

ومن ملوك النبط المتأخرين الملك مالك الثانى الذى أرسل فى عام ٦٧ ميلادية ألف فارس وخمسة آلاف جندى من المشاة ، لمساعدة الامبراطور الرومانى تيتوس فى هجومه على أورشليم سنة ٧٠ ميلادية . وفى أثناء حكم هذا الملك صارت دمشق فى أيدى الرومان . وبموت مالك هذا ينتهى العصر الذهبى لحكم ملوك الأنباط .

وتذكر الكتابات الأثرية التى وُجدت فى حوران أن رابيل الثانى Rabbil (حوالى ٧١ – ١٠٥ م) كان آخر ملوك الأنباط وهو ابن مالك الثانى ووريثه . وتدلنا بعض نقوده بأنه حكم لمدة من الزمن مع أمه . ولم يعرف بالضبط ما الذى حدث فى عام ١٠٥ م مما أدى إلى انهيار هذه الدولة النبطية وضمها إلى الامبراطورية الرومانية . ولعل الرومان فى نهاية حكم رابيل رفضوا الاعتراف بخليفة نبطى له ، ثم كان تحرك كورنيليوس ، نائب تراجان فى سوريا ضد البتراء كافياً لسحق أية مقاومة نبطية . وأصبحت بلاد الأنباط فى السنة التالية جزءاً من الولاية العربية الرومانية ، التى عُرفت بالكورة العربية Provincia Arabia وقد دمجت روما هذه الولايات العربية لحماية سوريا ، وجعلت عاصمتها مدينة بُصرى ، التى ورثت مكانة مدينة التبراء ، عاصمة النبط الأولى .

وأصبحت البتراء منذ ذلك الوقت فى ذمة التاريخ ، وما زالت أطلالها تقع الآن على بعد خمسين ميلاً تقريباً إلى الجنوب من البحر الميت . وكانت البتراء قد اعتنقت المسيحية فى القرن الثالث الميلادى ، وصارت إسلامية فى القرن السابع والقرون التالية . وقد انتزع بلدوين الأول المدينة المحصنة من المسلمين مباشرة بعد تنصيبه ملكاً فى ١١٠٠ م ، واحتفظ بها الصليبيون حتى انتصار صلاح الدين الحاسم فى حطين ١١٨٩ م ، وبقيت أطلال هذه المدينة مهملة حتى قام المستشرق السويسرى بركهاردت بكشف آثارها للعالم ١٨١٢ .

ومن مدن النبط أيضاً القديمة الهامة : مدينة الحجر ، التى كانت تقع على شريان التجارة فى العالم القديم ، وكانت منازل قوم ثمود ، وهم قوم النبى صالح . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها مدائن صالح ، وذهب بعض آخر إلى أن مدائن صالح ، هى : العلا وليست الحجر . وتقع خرائب الحجر الآن بين جبل أثلث وقصر البنت وخط سكة حديد الحجاز حيث تشاهد آثار حصن قديم وبعض بقايا أبراج وآثار سور . وتقع خرائب العلا إلى الجنوب من الحجر . وقد عثر الباحثون على بقايا قبور الحجر القديمة وقد نقشت مداخلها وجدرانها بنقوش جميلة متقنة .

لقد كانت حضارة الأنباط ، حضارة عربية فى لغتها ، آرامية فى كتابتها ، سامية فى ديانتها ، ويونانية ورومانية فى فنها وهندستها المعمارية . وهى كذلك حضارة مركبة ، لكنها كانت عربية فى أساسها هيلنية فى مظهرها وليس هنالك شك فى أن لغة الأنباط الوطنية كانت لهجة عربية شمالية ، وفى كتاباتها الأثرية ترد أسماء عربية مثل : على وحبيب وسعيد والحارث وعبادة ، وهى أسماء عربية شائعة . ولقد وجدت بعض كتابات نبطية أثرية تكاد كلمات نصوصها جميعها تكون كلمات عربية . وإلى جانب العربية كان الأنباط يتكلمون أيضاً الآرامية ، وهى لغة الحضارة فى ذلك العصر ، يستعملها الأنباط كما كان يستعملها جيرانهم فى الشمال . وكان الأنباط يكتبون أول الأمر بالآرامية ، وبالتدريج صارت لهم كتابتهم النبطية الخاصة التى انفصلت عن الكتابة الآرامية ، واتخذت فى حوالى منتصف القرن الأول قبل الميلاد طابعها المميز ، وأصبحت ذات صفة ثابتة .

ومما يزيد فى أهمية الحروف النبطية أن الأبجدية العربية قد انحدرت منها مباشرة كما يستدل من رواية الكتابات الأثرية العربية القديمة . وأقدم نص عربى

وصلنا هو نص النمارة فى شرقى حوران من عام ٣٢٨ م ، وهو مكتوب بحروف نبطية .

وكانت ديانة النبط من النوع السامى الشائع وأساسها طقوس الخصب المتصلة بالزراعة . وكان على رأس آلهة الأنباط الإله (دوشارا) ، إله الشمس ، الذى كان يُعبد بشكل مسلة أو حجر أسود له أربع زوايا . وكان النبط يعبدون اللات ، كما كانوا يعبدون القمر ، وعبدوا كذلك منات والعزى وهُبل . وكانت عبادة الأفعى تشكل جزءاً من ديانتهم .

وقد أوجد الأنباط نموذجاً جديداً من العمارة يشتمل على معابد وقبور وغيرها من الأبنية المحفورة فى الصخر . ومن صفات بنائهم الغُرف ذات العقود . وتأثر الصُناع الأنباط بالنماذج اليونانية فى صناعتهم فأدخلوا نوعاً جديداً من الخزف يأتى فى المرتبة بين أحسن الأنواع التى أنتجتها تلك المنطقة . وتظهر بقايا الكؤوس والفناجين والصحون والأباريق والكاسات التى خلفوها دقة صناعتهم ورقتها .

٢- مملكة تدمر :

تُنسب هذه المملكة إلى مدينة تدمر التى كانت عاصمة لهذه المملكة ، وهى تُعرف بإسم بالميرا عند الغربيين ، بمعنى مدينة النخيل ، لكثرة ما كان بها من نخيل . وكانت تدمر ، مثل البتراء ، مدينة تجارية تقع فى طرف البادية التى تفصل بين الشام والعراق ، وهى تبعد ١٥٠ ميل شمال شرقى دمشق ، ونحو ١٠٠ ميل عن حمص ، وينسب اليهود والعرب بناءها إلى الجن بأمر من النبى سليمان بن داود .

وكان بداية ظهور هذه المدينة سنة ١٨٠٠ ق . م . وكان غالبية أهل تدمر

من العرب برغم أن كتاباتهم كانت باللغة الآرامية والقلم الآرامى ، شأنهم فى ذلك شأن نبط البطراء . ويرجع بعض العلماء سبب كتابة التدمريين بالآرامية أن الآرامية كانت لغة الكتابة والثقافة فى المنطقة الواقعة غربى الفرات وفى المنطقة التى نزلت فيها القبائل العربية - شرقى أرض كنعان بعد سقوط الدولة البابلية . ونجد فى بعض هذه الكتابات مصطلحات وكلمات عربية أصيلة ، كما نجد أسماء أصنام عربية مع أصنام آرامية . وعلى العموم فلقد كانت ثقافة مملكة تدمر هى خلاصة جملة ثقافات عربية وآرامية ويونانية ولاتينية . وأقدم كتابة عثر عليها خاصة بمملكة تدمر ترجع إلى العام التاسع قبل الميلاد .

وقد كانت تدمر مركزاً تجارياً خطيراً ومحطة كبرى لمرور القوافل عبر بادية الشام والعراق . وكان أهل تدمر خليطاً من التجار والمزارعين . أما سكان أطرافها فكانوا بدواً رعاة . وكانت فى تدمر جاليات يونانية ورومانية ويهودية .

ولقد خلفت مدينة تدمر مكانة مدينة البتراء بعد أن سقطت الأخيرة فى يد الرومان وانتقلت أسواق الأنباط إلى أيدى التدمريين . وتولت قوافل تدمر نقل البضائع بين العراق والشام واصلة إلى نهر الفرات . وقد عادت هذه التجارة بالثروة الكبيرة على سكان المدينة ، تجلت آثارها فى المبانى الجملية المنقوشة التى بنوها وفى معابدهم الفخمة التى لا تزال آثارها الباقية تشهد على غنى أهلها حتى الآن . ولما كانت تدمر مدينة حياتها الأساسية التجارة صار للتجار ولزعماء القوافل التجارية شأن خطر فى حياة هذه الدولة الاجتماعية .

إلا أن وجود مثل هذه الثروة بهذه المدينة ، دون أن يكون لها جيش قوى أطمع الطامعين فيها من الشرق والغرب ، فقد طمع فيها أهل العراق والفرس كما طمع فيها اليونانيون والرومان والبيزنطيون . وقد قام الإسكندر الأكبر بضم تدمر إلى إمبراطوريته ، وبعد موته صارت من نصيب السلوقيين .

كذلك حاول الرومان ضم تدمر إلى دولتهم ، وحاول ماركوس انطونيوس فتحها في منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، ولم يفلح في ذلك . لكن الامبراطور هادريان نجح في سنة ١٣٠ م في إدخال تدمر في حمايته . وقد ظهرت مكانة تدمر على مسرح السياسة العالمية في منتصف القرن الثالث الميلادى خلال حروب دولة الروم مع دولة الفرس الساسانيين . وقد أنعم لذلك الامبراطور الروماني غالينوس ، بسبب ولاء التدمريين له ، على أذينه ملك تدمر بلقب قنصل ، ولقب : زعيم الشرق Dux Orientis سنة ٢٦٢ م ، وقد جعل منه هذا اللقب ما يشبه بنائب للامبراطور على القسم الشرقي من الامبراطورية . وأعطيت تدمر درجة مستعمرة رومانية عليا ، فاكتسبت بذلك حق الامتلاك التام والحرية الكاملة في إدارة سياسة المدينة والإعفاء من الخراج ونال سكانها حقوق المواطنة الرومانية . وقد تمتعت بهذه المكانة أيضاً في عهد الامبراطور (كرا كلا) ٢١١ - ٢١٧ م .

وتبعاً لذلك قامت تدمر بتوسيع تجارتها وزيادة عدد قوافلها ، وحصلت بذلك على ثروات طائلة . وتعد الفترة ما بين سنوات ١٣٠ و ٢٧٠ ميلادية أزهر سنى هذه الدولة . وإلى هذه السنين ترجع معظم الآثار العظيمة التي خلفتها حضارة هذه الدولة .

ولقد قام أذينة باتخاذ لنفسه لقب ملك Rex سنة ٢٥٠ م ، وجمع الناس عليه ، فتخوف الرومان منه على مصالحهم فأوعز القيصر إلى أحد رجاله في حمص باغتياله فقتل وتخلص الرومان من بأسه سنة ٢٦٧ م بينما كان يحتفل بأحدى المناسبات .

وانتقل الملك في تدمر بعد مقتل أذينه إلى إبنه (وهب اللات) من زوجته زنوبيا (الزباء) ، ويعرف في اليونانية (أثينودورس Athenodorus) . ولما كان

وهب اللات قاصراً تولت أمه الوصاية عليه وحكمت نيابة عنه حتى يبلغ سن الرشد . وقد ادعت الزباء قرابتها من الملكة كليوباتره حاكمة مصر البطلمية ، ورعت الثقافة اليونانية وتكلمت باليونانية واللاتينية والآرامية والمصرية . وقد اتسعت مملكة تدمر فى عصر الزباء فشملت سوريا وجزء من آسيا الصغرى وشمالى الجزيرة العربية ومدينة الإسكندرية .

وقد اتبعت الزباء سياسة عربية تعتمد على التقرب من الأعراب والتودد إليهم والاعتماد عليهم فى القتال والحروب ، وذلك بعد أن أدركت طمع الرومان فى دولتها . فتقربت من العناصر العربية المستوطنة فى المدن وأخذت تعمل على تكوين دولة عربية واحدة قوية تحت زعامتها . فأخذت الزباء تعمل على تكوين هذه القوة إلا أن الرومان كانوا أسرع منها فقضوا على مخططها قبل أن تنفذه واستولوا على دولتها وأسقطوا حكمها .

وقد فطن حكام الرومان لخطر الزباء حين حاولت قواتها الاستيلاء على مصر وضمها لبلاد الشام ، فتحرك الامبراطور أورليان (٢٧٠ – ٢٧٥ م) حين أعلنت الزباء نفسها ملكة وقامت بمحو صورة الإمبراطور الرومانى من عملة بلادها إعلاناً بعدم اعترافها بسيادة روما الإسمية على بلادها وأمرها بضرب إسم ابنها وهب اللات عليها . كذلك قامت بتلقيب نفسها وابنها بلقب أغسطس ، وهو لقب القيصر الرومانى أورليان ، وكان ذلك تحدياً صريحاً منها للامبراطور الرومانى .

فتحرك الامبراطور الرومانى بجيشه إلى بلادها سنة ٢٧٢ م ، وأخضع الحاميات التدمرية فى آسيا الصغرى ، ثم تابع مسيره لاحتلال سوريا . وانتصرت القوات الرومانية على قوات زنوبيا خارج تدمر ، وأصبحت بعد ذلك الطريق المؤدية فى البادية إلى العاصمة مفتوحة أمام العدو المهاجم . وتمهل أورليان فى حمص وقدم القرابين لإله الشمس ، ثم قام بمحاصرة تدمر ، بعد ذلك ، ولم تتلق

زنوبيا أية مساعدة من بلاد فارس . وعرض أورليان ، أول الأمر ، على الملكة الاستسلام ، ولكنها رفضت ، وبعد أن تبين لها ضعف قواتها حاولت إنقاذ نفسها بالهرب ليلاً على هجين سريع . وقد أدركها الخيالة الرومان الذين كانوا يلاحقونها بينما كانت تحاول عبور نهر الفرات . وكان ابنها وهب اللات قد سقط قتيلاً وهو يدافع عن مدينته . ولم يكن أمام تدمر سوى الاستسلام . فقام الفاتح الرومانى بتجريدها من مصنوعاتها الغنية وزخارفها الثمينة التى أخذ بعضها لتزيين معبد الشمس الجديد فى روما . واقتصر عقابه لسكان تدمر على فرض غرامة مالية كبيرة عليهم ، وتعيين حاكم رومانى ، وإبقاء قوة رومانية من الرماة فى تدمر .

أما زنوبيا فقد أخذت أسيرة إلى روما مع أحد أبنائها ، وسارت ، وهى فى كامل زينتها ، مقيدة بسلاسل ذهبية فازدان بها موكب أورليان عند دخوله المظفر عائداً إلى عاصمة روما سنة ٢٧٤ م . وقدمت لها دار خاصة قرب (تيفولى) حيث أمضت بقية سنى حياتها محددة إقامتها حتى وفاتها .

ودخل تاريخ تدمر ، بعد ذلك ، فى عالم النسيان ، وانتهت دولة التدمريين بضمها إلى الامبراطورية الرومانية . لكن دولتهم وإن كانت قد انتهت من التاريخ إلا أن آثارهم لا زالت باقية حتى الآن تحكى أمجادهم وتعكس حضارتهم . وتعتبر آثار تدمر اليوم من أكثر المناظر جلالاً فى الصحراء ، وهى تجذب هواة الآثار من جميع أنحاء العالم ويفتنون بها . وقد تحول معبد الإله بعل الذى يقوم على سطح مرتفع إلى ما يشبه المتحف . وأمام المعبد ينتصب قوس أثرى يبدأ عنده شارع الأعمدة الكبير الذى كان يضم أكثر من ٣٧٥ عموداً أثرياً ، لم يبق منهم سليماً اليوم سوى ١٥٠ عمود ، وغالبية هذه الأعمدة من الحجر الكلسى الأبيض الوردى اللون ، ولها تيجان كورنثية ، وبعضها من الجرانيت المصرى المنقط بالأزرق . وقد تضمنت الأعمدة زخارف وازدانت بتماثيل . وقد خلف التدمريون

قبوراً تنتصب خارج المدينة كأبراج عالية وتتألف من غرف موزعة على عدة طوابق ومزخرفة من الداخل بالألوان والصور المنحوتة للموتى .

وكانت الحضارة التدمرية حضارة غريبة فهى مزيج من عناصر سورية ويونانية وفارسية ، وقد كان السكان الأصليون من قبائل عربية وقد تبنوا فى كلامهم وكتابتهم اللغة الآرامية السائدة . وبقيت أكثرية سكان تدمر عربية رغم امتزاجهم بالآراميين . والكتابة التدمرية جاءت باللغة الآرامية ، وهى كتابة سكان سوريا فى العصر السلوقى .

وتألفت الآلهة التدمرية من عدد متنوع من الآلهة من سوريا وبلاد العرب وفارس وبابل . وكان بعل صاحب السيطرة العظمى عندهم ، وقد كُرس المعبد الكبير لعبادته . كذلك عبد التدمريون إله القمر (عجل بعل) ، كذلك كانوا يعبدون اللات التى كان يعبدها الغساسنة أيضاً .

٣- مملكة الغساسنة :

فى حوالى نفس الوقت ، الذى كانت فيه دولة تدمر فى طريقها إلى الزوال ، أى فى أواخر القرن الثالث الميلادى ، كانت إحدى القبائل العربية الجنوبية تتجه من اليمن إلى الشام فى طريقها إلى حوران ، متخذة الطريق الموصل بين مأرب من اليمن ودمشق فى سوريا ، مخترقة منطقة حوران جنوبى بلاد الشام . وقد كان ذلك بعد وقوع سيل العرم وانهيار سد مأرب ، لتستقر هذه القبيلة عند ماء تسمت بإسمه يقال له غسان . وقد عُرف هؤلاء القوم ، وهم من قبائل الأزد ، باسم الغساسنة ، كما عُرفوا أيضاً باسم بنى جفنة . وقد أقامت هذه القبيلة لنفسها حكماً فى بادية الشام ودولة استمر ملكها إلى مجيء الإسلام . ولما فتح المسلمون بلاد الشام ضموا هذه المملكة إلى دولتهم وصارت جزءاً من دولة الإسلام .

وكان الغساسنة قد استطاعوا ، حين نزلوا منطقة حوران ، أن يكوّنوا لهم مركزاً ممتازاً هناك ، وكانوا قد صادفوا هناك سكاناً من العرب كانوا قد ارتحلوا إليها قبلهم وهم الضجاعم من بنى سليم . وكان شأن الضجاعم قد ضعف هناك فتسيد الغساسنة عليهم وأقاموا دولتهم فى حوران .

ولقد اعتنق الغساسنة المسيحية خلال القرن الرابع الميلادى واتصلت ببيزنطة ، وتحالفت معها ، وقد وجد الروم فيهم خير معاون لهم فى حماية طرق التجارة ووقف البدو عند حدهم وحماية حدودهم من توسع الفرس . وقد بلغت هذه الدولة قمة ازدهارها فى القرن السادس الميلادى تحت حكم أعظم ملوكها الحارث بن جبلة .

وكان جفنة بن عمرو ، هو مؤسس دولة الغساسنة فى الشام ، ويعتبر جد الغساسنة ، وقد ولاه ملك الروم ملكاً على العرب فى الشام . وتولى بعد جفنة إبن عمرو إبنه ثعلبة ، وقد حكم سبع عشرة عاماً . ثم تولى من بعده إبنه الحارث ، الذى حكم عشرين عاماً . ثم تولى بعده إبنه جبلة الذى حكم عشر سنين .

وحكم بعد جبلة إبنه الحارث (الثانى) بن جبلة فى الفترة ما بين سنوات ٥٢٩ و ٥٦٩ ميلادية ، وقد عُرف هذا الملك عند أهل الأخبار بالحارث الأعرج أو الحارث الأكبر . وقد ارتفعت مكانة هذا الملك عند أباطرة الروم فعينه الامبراطور جستنيان سيداً على كل القبائل العربية فى سوريا ، ومنحه لقب فيلارك (رئيس قبيلة) Phylarck وبطريق Patricius ، وقد ترجم العرب هذه الألقاب إلى (ملك) ، وقد اعتبر الغساسنة أنفسهم خلفاء لملوك الأنباط وكان الحارث هذا أول حكام الغساسنة الذين يحملون هذين اللقبين اللذين انتقلا منه إلى أبنائه فيما بعد .

ولما كان الحارث موالياً للأباطرة البيزنطيين ، فقد استمر فى صراعه مع اللخميين وحارب مع الجيش البيزنطى تحت إمرة القائد البيزنطى الشهير بليزاريوس ، قائد الامبراطور جستنيان فى بلاد العراق سنة ٥٣١ م ، تلك الحرب التى هزم فيها الروم . وفى عام ٥٤٤ م شارك الحارث فى الحرب التى دارت بين الروم والفرس وحلفائهم المناذرة ، وقد وقع إبن الحارث أسيراً فى هذه الحرب وقام المنذر بأسره وقتله بيده وقدمه قرباناً للإلهة العزى (أفروديت) . وانتقم الحارث لنفسه بعد عشر سنوات فى معركة حاسمة وقعت سنة ٥٥٤ م قرب قنسرين حين قتل غريمه اللخمى ، ويرجح أن هذه المعركة هى المشهورة فى أيام العرب بإسم معركة حليمة ، أو يوم حليمة ، وهى حليمة بنت الحارث . وقد تسمت بذلك لأن حليمه قد دهنت بيديها جنود أبيها بالطيب قبل دخولهم المعركة فعرف اليوم بيوم حليمة .

وقام الحارث فى سنة ٥٦٣ م بزيارة لبلاط الامبراطور جستنيان ، واستقبل هناك استقبالاً حافلاً . وحصل الحارث ، أثناء وجوده فى العاصمة البيزنطية ، على تعيين يعقوب البراذعى أسقفاً على الكنيسة المونوفيزيتية السورية ، وقد كان الحارث يعتنق المسيحية على المذهب المونوفيزيتى المخالف لمذهب الامبراطور الملكانى ، وقد وافقته الامبراطورة تيودورا على اعتناق المذهب المونوفيزيتى لاعتناقها هى هذا المذهب رغم مخالفته لمذهب الامبراطور . وقد انتشر هذا المذهب المونوفيزيتى ، الذى صار يعرف بالمذهب اليعقوبى ، فى سوريا كلها أثناء حكم الحارث وحكم إبنه من بعده . ويقال أن يعقوب البراذعى رسم مائة ألف كاهن ونصب تسعة وثمانين أسقفاً فى تلك البلاد .

ووصلت مملكة الغساسنة أيام حكم الحارث بن جبلة إلى ذروة اتساعها إذ كانت تمتد من قرب البتراء إلى الرصافة شمالى تدمر ، وتشتمل على البلقاء والصفا وحران . وأصبحت بصرى التى بنيت كاتدرائيتها سنة ٥١٢ م العاصمة

الدينية فى المنطقة كما اشتهرت كمركز تجارى . أما العاصمة السياسية للغساسنة فقد كانت فى مدينة الجابية فى منطقة الجولان .

وتوفى الحارث بن جبلة سنة ٥٧٠ م ،وقد خلفه من بعده فى الحكم إبنه المنذر (٥٧٠ - ٥٨١ م) ، فى نحو نفس الوقت الذى ولد فيه محمد رسول الله . وسار الإبن على خطى أبيه فدعمً قضية اليعقوبية فى البلاد ، وحارب المناذرة حلفاء الفرس . واستهل المنذر حكمه بمحاربة ملك الحيرة والانتصار عليه فى معركة عين أباغ سنة ٥٧١م.

ولقد وقع الخلاف بين المنذر وبين الامبراطور الرومانى الجديد جستين الذى تولى الحكم بعد وفاة جستينان ، لأن جستين لم يكن متفقاً مع المنذر فى المذهب . ولقد كان جستين متحمساً للمذهب الملكانى ، فباعد هذا الأمر بينه وبين المنذر حتى أنه إرتاب فى ولائه السياسى له . وتطور الأمر إلى قطيعة بين المنذر والامبراطور البيزنطى . ولذلك كتب الامبراطور جستين رسالة إلى حاكمه فى سوريا يأمره فيها بالتخلص من المنذر ، ولكن الكاتب أخطأ فوجه الرسالة إلى المنذر نفسه . وقد اكتشف المنذر فحوى الرسالة ، وأمر الامبراطور لعامله مرقيانوس فى أن يحتال على المنذر ويقتله ، ولما اكتشف المنذر ذلك تمرد على الروم ، ولم يحارب المناذرة أعداءهم ، فانتهز المناذرة الفرصة وأمعنوا فى غزو بلاد الشام وإيقاع الرعب فى نفوس سكان مناطق الحدود مما حمل الروم على مراسلة المنذر والتودد إليه ومحاولة استرضائه . وأرسل الامبراطور إليه من يقوم بمصالحته من رجاله فوافق المنذر على الصلح وتعهد للامبراطور بالدفاع عن حدود الشام . وقد عبّر المنذر عن مصالحته للامبراطور وصفاء نفسه بذهابه إلى القسطنطينية سنة ٥٨٠ م مصطحباً معه إبنين من أبنائه ، وقد قوبل هناك بالترحاب من الامبراطور وكبار رجال الدولة وكبار رجال الدين . توفى الامبراطور جستين فخلفه الامبراطور تيبريوس ، ثم موريقيوس .

وتغيرت العلاقة ثانية بين الامبراطور البيزنطى والمنذر ، فاحتال الامبراطور فى القبض على المنذر وإرساله مخفوراً إلى القسطنطينية وتحديد إقامته هناك . وكان موريقيوس يكره المنذر بسبب اعتناقه المذهب اليعقوبى ، فأمر بنفيه إلى صقليه وبقطع المعونة التى كان الروم يرسلونها إلى الغساسنة فى كل عام . ونجح المنذر فى الهرب من صقلية ، وقام أبناء المنذر وعلى رأسهم الإبن الأكبر النعمان بن المنذر بمهاجمة حدود الدولة الرومانية ، لكن القائد البيزنطى تمكن من القبض على النعمان وأرسل ليُسجن فى القسطنطينية .

تفرقت كلمة الغساسنة بعد ذلك وانقسم أمراؤهم على أنفسهم حوالى سنة ٥٨٤ م ، وقد ورد أنهم انقسموا ، بعد القبض على النعمان إلى خمس عشرة فرقة تركت بعضها ديارها فهاجرت إلى العراق وتشتت الباقون ولم يبق لهم ذكر . وفى سنة ٦١٣م غزى الفرس بلاد الشام واكتسحوها جميعاً ، وفى سنة ٦٢٩ م تمكن الروم من طرد الفرس من الشام وإعادة فرض حكمهم عليها ، وظهر فى ذلك الوقت (جبلة بن الأيهم) آخر ملوك الغساسنة ، الذى أعاده الروم على مملكتهم القديمة . وقد قام ابن الأيهم بمحاربة المسلمين إلى جانب الروم حين تقدموا لفتح هذه البلاد . ويقال أنه أسلم بعد معركة اليرموك (١٣ هـ / ٦٣٦ م) ، غير أنه ما لبث أن عاد إلى الروم وتحول إلى المسيحية وهجر وطنه ليستقر نهائياً فى القسطنطينية عاصمة الروم حتى وفاته بها سنة ٢٠ هـ / ٦٤٣ م .

ولقد خلدت آثار الغساسنة حضارتهم التى أخذوا بمعظمها عن الروم . ولقد شيد الغساسنة قصوراً كثيرة فخمة ذكرت فى دواوين شعراء الجاهلية والشعراء المخضرمين ، كذلك فى شعر الشاعر العربى الكبير النابغة الذبيانى ، وشاعر الرسول حسان بن ثابت الذى عاش فى بلاط آخر ملوك الغساسنة قبل إسلامه ، وقد كان كثير الإغداق عليه . ومن أبنية الغساسنة الفخمة فى مدينة بصرى التى

اتخذوها عاصمة لهم ومدينة الجابية التى تقع جنوبى دمشق ، وكانت عاصمة لهم أيضاً أحياناً أخرى ، من هذه الأبنية : قصر المشتى ، وقلعة القسطل المجاورة للقصر ، وقد برز فيها الطرازان البيزنطى والساسانى . وقد فعل الغساسنة ، مثلما فعل الأنباط من قبل ، بأن قاموا باستخراج الحروف العربية من الحروف النبطية . كذلك قاموا بنقل الحضارة المادية البيزنطية إلى العالم العربى لتأخذ منها الحضارة الإسلامية ، بعد ذلك ما يناسبها ويتلاءم مع تكوينها .

٤- مملكة الحيرة :

تقع إمارة الحيرة على بُعد ثلاثة أميال من الكوفة ، إحدى مدن العراق ، على بحيرة النجف ، موطن الشيعة اليوم . وكانت على أرض خصبة تمر بها فروع من نهر الفرات . ويرى بعض المستشرقين أن كلمة حيرة كلمة آرامية وهى (حرتا) أو سريانية الأصل وهى (حيرتا أو حيرتو) ، ومعناها المخيم والمعسكر . وقد أدى ميلاد الكوفة فى الإسلام إلى أفول نجم الحيرة ، إذ انتقل الناس من المدينة القديمة إلى المدينة الإسلامية الجديدة ، واستعملوا حجارة الحيرة وقصورها فى بناء الكوفة . وهذا مما أدى إلى اندثار تاريخ تلك المدينة القديم مع اندثارها نفسها .

وقد عُرف ملوك الحيرة عند أهل الأخبار باللخميين ، وببنى نصر ، وبالمناذرة . وكانت قبائل عربية يمنية قد هاجرت ، بعد انهيار سد مأرب باليمن ، إلى غربى الفرات ونزلت فى موضع الحيرة ، وكانت هذه القبائل من تنوخ ولخم . فسكنوا الحيرة ، وعرفوا هنالك بالعُباد . ولو أن بعض المؤرخين يعتبرون تنوخ ولخم هم أعراب الحيرة ، وكانوا يعيشون فى أطرافها فى بيوت الشعر والخيام ، أما العُباد فهم الذين سكنوا الحيرة نفسها وابتنوا فيها ، وهم حضر مستقرون ، ويقول معظم الأخباريين أنهم كانوا على دين المسيحية ، ولذلك

سموا بالعُباد تمييزاً لهم عن الوثنيين . وقد لحقت بالحيرة أعداد أخرى من عرب اليمن بعد ذلك من غير تنوخ ولخم ، وعُرفوا هنالك بالأحلاف . وأنشأ مجموع هذه القبائل هنالك مملكة الحيرة العربية ، أو مملكة المناذرة . ويرجع تاريخ هذه المملكة إلى القرن الثالث الميلادى ، واستمر قيامها إلى ظهور الإسلام .

وكان العراق خاضعاً لدولة الفرس ، وكان الفرس فى حرب مع اليونانيين ، ولمّا انهزم الملك الفارسى (دارا الثالث) من الإسكندر الأكبر المقدونى سنة ٣٣٣ ق . م ، ضعفت دولة الفرس وتقسمت ، وحكمها ملوك عرفوا باسم ملوك الطوائف ، ظلوا يحكمون البلاد مجزأة حتى سنة ٢٣٠ ميلادية . وفى هذا التاريخ ظهر الملك الفارسى الكبير (أردشير بن بابك) ، مؤسس دولة الفرس الساسانية ، التـى وحدت بلاد الفرس من جديد تحـت حكمه وحكم آل بيته من آل ساسان .

وقد جاءت هجرة عرب اليمن إلى العراق أيام حكم ملوك الطوائف ، منتهزين فرصة ضعف الدولة الفارسية ، لكن دولة الفرس بعد أن قويت وتوحدت تحت حكم ملوك ساسان ، عملت على وقف حد هجرة الأعراب إلى بلادها . كذلك عمل الملك أردشير على إخضاع العرب الواقعين على تخوم مملكته لطاعته ، ومن هؤلاء عرب لخم وتنوخ فى الحيرة . وقد فكر أردشير فى القضاء نهائياً على هؤلاء العرب وإجلائهم عن حدود دولته لكنه آثر ، فى النهاية ، أن يصطنعهم لنفسه ليتقى بهم غارات بنى جلدتهم من عرب شبه الجزيرة ، وكذلك ليكونوا عوناً لدولة الفرس فى حربها ضد الروم وحلفائهم الغساسنة . فيقيموا بذلك إمارة حاجزة بينهم وبين الروم مثلما فعل الغساسنة فى الشام . ولذلك أبقى الملك الفارسى كتيبة من رجاله الفرس عند ملك الحيرة ، قوامها ألف رجل ، يتجددون فى كل عام ، أطلق عليها إسم (الأشاهب) ، يستعين

بهم ملك الحيرة على الخارجين عن سلطانه من عرب البادية ، وفـي نفس الوقت ، يضمن ملك الفرس بقاء ولاء المناذرة له .

ولقد كان معظم نصارى الحيرة على مذهب النساطرة ، وهو مذهب شجعه الفرس في بلادهم نكايةً بالروم ، غير أن هنالك جماعة منهم كانت على مذهب اليعاقبة . وكانت الحيرة من المراكز الهامة في حركة التبشير المسيحية بين العـرب ، ومنها ذهب قسم من المبشرين إلى اليمن وأجزاء أخرى من شبه الجزيرة . وكانت للوثنيين من أهل الحيرة أصنام ، منها : اللات والعزى ومحرق . وقد كان بين أهل الحيرة جماعة من النبط ، كما كانت بينهم جماعة من الفرس ومن اليهود . ولقد انقسم ملوك الحيرة إلى قسمين :

أ- مـن ملكها من الأزد التنوخيين ، وقد حكموا ٦٦ عاماً (من ١٩٢ - ٢٥٨ م) .

ب- من ملكها من بني نصر اللخميين ، وقد عرفوا باسم المناذرة ، وقد حكموا ٣٧٤ عاماً (من ٢٥٨ إلى ٦٣٢ م) .

أ- ملوك الأزد التنوخيين :

كان أول حكامهم (مـالك بن فهم) ، وقد حكم فـي الفترة ما بين ١٩٢ - ٢٠٨ م ، وقد ذكر المؤرخ حمزة الأصفهاني ، أنه تملك تنوخ العراق في زمان ملوك الطوائف ، وأن مقر دولته كان في مدينة الأنبار ، وقد حكم ست عشرة عاماً ، ومات مقتولاً على يد إبنه (سليمة) بطريق الخطأ ، وقد قال فيه قبل موته :

جزانـي ، لا جـزاه اللـه خيرا سُـليمـة ، إنه شـراً جـزاني

أعلمـه الرمايـة كل يـوم فلمـا اشـتد سـاعدُه رمانـي

وحكم بعد مالك أخوه (عمرو بن فهم) ، ولا تُعرف مدة حكمه على الدقة ، ثم حكم بعده إبن أخيه (جذيمة بن مالك بن فهم) ، وقد عُرف بجذيمة الأبرش ، وجذيمة الوضاح (لوجود وضح فى جلده) ، وقد حكم ستون عاماً ، وكان معاصراً للملك الفارسى (أردشير بن بابك) ، الذى حكم فارس فى المدة ما بين ٢٤٢ - ٢٧٢ م . وكان جذيمة الأبرش من أفضل ملوك العرب وأشدهم حنكة ودراية وأكثرهم فروسية . وكان ميالاً إلى الغزو ، فشن الغارات على قبائل البادية ، واستولى على البلاد ما بين الحيرة والأنبار من بلاد سواد العراق . وحارب جذيمة الغساسنة ، وكانت حربه مع مليكهم عمرو بن الظرب ، فانتصر عليه وقتله . ولمّا قتله عزمت الزباء (زنوبيا) إبنة عمرو بن الظرب التى تولت حكم الغساسنة آنذاك بعد مقتل أبيها ، أن تنتقم له من جذيمة . فعمدت إلى الحيلة معه ، وعرضت عليه الزواج منها ، وكانت فائقة الجمال ، فوافقها ، فاستدرجته إلى بلادها ، بعد أن استخلف على ملكه مكانه ابن أخته (عمرو بن عدى) ، واصطحب معه ، فى رحلة زواجه ، الحكيم قصير بن سعد ، وكان قصير قد حذر جذيمه من احتمال مكيدة الزباء له ، إلا أنه لم يستمع له وأصر على الذهاب لديار الغساسنة بالشام . ولمّا وصل جذيمة هناك قتلته الزباء ، أخذاً بثأر أبيها . ونجح الحكيم قصير فى الهرب والعودة إلى الحيرة حيث أخبر عمرو بن عدى بما صار لخاله ، وقال له : « لقد نصحته ، ولكن لا يطاع لقصير أمراً » ، فصارت مثلاً . ووضع عمرو بن عدى مع قصير خطة وحيلة للانتقام من الزباء ، ونجحت هذه الخطة التى انتهت فى النهاية بهزيمة قوات الزباء وموتها . وقد قيل أنها ماتت منتحرة حين أدركت نهايتها بمصها السم الذى ادخرته فى خاتمها لمثل هذا اليوم ، وقالت وهى تودع الحياة : « بيدى لا بيد عمرو » ، فصارت مثلاً . وغنم عمرو بن عدى ما كان للزباء ولأبيها وعاد إلى الحيرة بعد أن ثأر من أعدائه ، وتولى حكم الحيرة بعد خاله ، وبتوليه الحكم

ينتقل حكم الحيرة من بيت ملوك الأزد التنوخيين إلى ملوك بنى نصر اللخميين ، ويعد عمرو بن عدى أول حكامهم .

ب- ملوك بنى نصر اللخميين ، المعروفين بالمناذرة :

وأول حكامهم عمرو بن عدى (٢٢٨ - ٢٨٨ م) ، ثم خلفه على الحكم بعد وفاته إبنه إمرؤ القيس (الأول) ، الذى حكم فى الفترة ما بين ٢٨٨ إلى ٣٢٨ م . وقد عاصر عدداً من ملوك الفرس : سابور بن أردشير ، وهرمز بن سابور ، وبهرام بن هرمز ، وسابور ذى الأكتاف . وينسب إلى هذا الملك بناء قصر (المشتى) الذى نقلت أحجار جدرانه المزخرفة إلى متحف برلين .

وحكم بعد امرؤ القيس ، إبنه عمرو ، وقيل إنه حكم خمساً وعشرين عاماً ، وقد نعته الأخباريون بأنه (مسعر الحرب) أى موقد الحرب ، مما يدل على أنه كان محارباً ، ولكنهم لم يذكروا شيئاً عن تلك الحروب . ثم خلفه فى الحكم من بعده أخوه (النعمان بن امرؤ القيس) أشهر ملوك الحيرة ، والذى حكم فى الفترة ما بين ٣٩٠ و ٤١٨ م . ولقد اهتم النعمان ببناء جيش كبير من عرب تنوخ ورجالات الفرس ، وجعل به كتيبتين من الفرسان زودهما بالسلاح الخفيف ، عرفت الأولى : بالدوسر ، وهى من تنوخ ، والثانية : بالشهباء ، من الفرس . كما ينسب إلى هذا الملك بناء قصرى : الخورنق والسدير ، الخورنق فى الحيرة وكان قصره الشتوى ، والسدير فى بادية الشام ، وهو قصره الصيفى ومنتجعه الخاص . وقد بنى الخورنق مهندس معمارى من الروم يدعى (سنمار) وقد استغرق بناؤه عشرون عاماً . وأراد النعمان أن يحتفظ بسر بناء هذا القصر ، فكافأ سنمار على بنائه بأن قتله بطرحه من أعلى القصر ، وبذلك ضرب المثل وقالت العرب « جوزى جزاء سنمار » لمن يجازى الخير بالشر .

وتولـى الحكم بعد النعمان إبنه المنذر ، وهو المنذر الثالث ، المعروف بابن ماء السـماء ، نسبةً إلى أمه مـاء السـماء ، وقد حـكم فـي الفتـرة ما بين ٥٢٠ و ٥٥٤ م . وقد كان المنذر من ملوك الحيرة المشهورين أيضاً لمعاصرته أشهر ملوك الفرس وهما : الملك قباذ وإبنه كسرى أنو شروان ، كذلك لمعاصرته أشهر ملوك الروم وهو الامبراطور جستنيان ، والحارث بن جبلة أشهر ملوك الغساسنة .

وفى أيام حكم المنذر هذا للحيرة فتح الأحباش بلاد اليمن على يد أرياط الحبشى وأبرهة الأشرم ، وكان المنذر ووفده من جملة الوفود التى ذهبت إلى اليمن لتهنئ قواد الحبش بهذا الفتح .

ولقد وقعت الحرب بين المناذرة والغساسنة فى عهد المنذر هذا بينه وبين الحارث بن جبلة الغسانى (الأعرج) ، وكانت بسبب النزاع على الأرض الواقعة جنوبى تدمر ، وكان كل منهما يدعى السيادة على القبائل النازلة بها . كذلك وقعت حرب ثانية بينهما حوالى سنة ٥٤٤ م ، نجح المنذر فيها فى أسر أحد أبناء الحارث وقتله بيده . فأعلن الحارث الحرب على المنذر ، انتقاماً لقتله إبنه ، وانتصر عليه سنة ٥٥٤ م فى المعركة التى ذكرتها أيام العرب بيوم حليمة ، وقد سميت كذلك لأن حليمة إبنه الحارث قامت بتطييب الرجال المقاتلين من الغساسنة بيدها قبل المعركة وعادت الحرب بين الطرفين بعد ذلك سنة ٥٧٠ م وانتهت بالمعركة التى عُرفت (بعين أباغ) ، بالقرب من الأنبار ، وقد انتهت بانتصار الغساسنة على المناذرة ومقتل الملك المنذر الثالث ملك الحيرة هذا فى المعركة .

ثم تولى مُلك الحيرة بعد وفاة المنذر الثالث إبنه النعمان بن المنذر المعروف بالأسود ، وكانت توليته سنة ٥٧٠ م . لكن خلافاً وقع بينه وبـين ملك الفرس (كسرى أبرويز) ، قتله بسببه ، وكان ذلك سنة ٦٠٢ م ، وكان الشاعر العربى الشهير النابغة الذبيانى قد مدح هذا الملك الغسانى بعدة قصائد وأشاد فيها

بمكارمه . وقد أقام الملك الفارسى على حكم الحيرة ، بعد قتله النعمان أميراً من غير بيت المناذرة يدعى (إياس بن قبيصة) وأشرك معه فى حكم الحيرة قائداً من قواده الفرس . وقد نقم عـرب الحيرة على الملك الفارسى ما فعله بهم وبمليكهم ، لذلك انقلبوا على الفرس وأعلنوا الثورة عليهم وجهزوا قواتهم لمحاربة قوات الفرس . وقد وقعت بين الطرفين معارك كبيرة عُرفت فى التاريخ بيوم (ذى قار) انتهت بنصر العرب وهزيمة الفرس وأميرهم إياس . وذو قار ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط . ولم يكن يوم ذى قار يوماً واحداً ، أو معركة واحدة وقعت فى ذى قار وانتهى بأمرها بانتصار العرب على الفرس ، بل هو جملة معارك وقعت قبلها ثم ختمت بذى قـارٍ حيث كانت المعركـة الفاصلة فنُسبت لذلك المعـارك كلها لهذا المكان وعُرفت بيوم ذى قار . وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ يوم ذى قار بالتحديد فمنهم من قال أنه فـى عام ٦٠٤ م ، ومنهم من قال أنه فى عام ٦١٠ م ، وأكثر أهل الأخبار يروون أنه وقع بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعلى أثر النصر فى ذى قار ، انفرد بحكم الحيرة الأمير أراز بن بابيان الهمدانى لمدة سبع عشرة عام ، وبعد وفاته تولى مُلك الحيرة الأمير : (المنذر بن النعمان بن المنذر الثالث) ، الذى لم يلبث فى حكم الحيرة سوى ثمانية شهور ، حتى قدم خالد بن الوليد العراق وفتح الحيرة ، ضمن ما فتح ، وضم إمارتها سنة ١٢ هجرية إلى دولة الإسلام .

وبذلك انتهت مملكة الحيرة ، وصارت جزءاً من دولة الإسلام ، وهى بدون شك مملكة كانت لها حضارتها ، وعمل ملوكها علـى الأخذ بالحضارة الفارسية والتشبه بملوك الفرس فى حياتهم الخاصة وبلاطهم ، فورد علـى بلاطهم كثير من أشهر شعـراء الجاهلية والمخضرمين من أمثال : طرفة بن العبد ،

ولبيد بن ربيعة ، وحاتم الطائى ، وعنترة بن شداد العبسى ، والنابغة الذبيانى ، وغيرهم .

كذلك عمل ملوك الحيرة علـى تطوير الخط العربى عن الخط النبطى المتأخر ، فتقدمت الكتابة عندهم ، ونسب إليهم نشأة الخط العربى ، ويشهد على ذلك ما فعلوه من كتابات لا زالت تدرس حتى الآن . كذلك تقدم الطب فى الحيرة ، وكان فى بلاط ملوكها خيرة الأطباء من عرب وسريان وفرس وممن درس فى مدرسة جنديسابور .

وازدهر العمران فى عهد دولة المناذرة ، وشاهد على ذلك بقايا آثارهم فيما بنوه من قصور مثل ، قصرى : الخورنق والسدير ، وقصر الدوسر ، وقصر المشتى، تلك القصور التى تأثرت بالفن والمعمار الساسانى وما صاحبه من نقوش جميلة على جدرانها وفخامة فى بنيانها . وتجلت مظاهر جمال أبنية ملوك الحيرة أيضاً فيما بنوه من كنائس وأديرة فخمة ، وبخاصة دير هند بنت النعمان بن المنذر الشهير .

بلاد الحجاز قبل الإسلام



بلاد الحجاز قبل الإسلام

بلاد الحجاز ، جزء من جزيرة العرب ، وهو جزء هام لأن به نزل الوحى ، وفيه وُلد رسول الله ﷺ ، وعلى أرضه قامت ، أول ما قامت ، دولة الإسلام . وجغرافياً ، يقع الحجاز شمال اليمن وشرقى تهامة وغربى نجد ، وقد سُمى حجازاً لأنه يحجز بين نجد وتهامة ، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو سبعمائة ميل ، وعرضه مائة وسبعون ميلاً ، وتبلغ مساحته ٩٦ ألف ميل مربع . وهو يتكون من عدة أودية تتخللها سلسلة جبال السراة ، وأشهر مدنه مكة والمدينة والطائف ، وأشهر موانيه جدة وينبع على البحر الأحمر .

مكة المكرمة :

إن أبرز ما يلحظه الزائر المسلم لهذا البلد الحرام ، الطبيعة القاسية التى تحيط به ، من جبال سود جرداء إلى أودية قفراء لا زرع فيها ولا ماء ، إلى مناخها القاسى الشديد القيظ خاصةً فى فصل الصيف ، مما يجعل المرء يتساءل سبحان ربى عن حكمته تعالى فى أن تتفجر من هذه البيئة القاسية ينابيع الرحمة والحنان وتشع منها أنوار الهداية والإيمان . فى هذه المدينة التى تحتضنها الجبال الصماء وتخاصم العيش فيها معظم الكائنات من الأحياء وُلد الهدى محمد رسول الله وعاش أيام رجولته وصباه وتلقى الوحى فيها من عند الله ، وارتقى بها برسالته لتكون من أقدس أرض الله . ولقد اختار الله تعالى موضع مكة المقدس حين أمر نبيه إبراهيم الخليل أن يرتحل من مصر إليها ، وأن يترك ذريته بها ، فيناجى ربه يسأله أن يرأف بهم وأن يرزق أهل هذا الموطأ الجديد من ثمرات رزقه بقوله تعالى على لسانه : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذرينى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات

لعلهم يشكرون ﴾ ، ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر .. ﴾ .

وإسم مكة إسم قديم ، قال الباحثون أنه ورد فى الكتابات اليونانية القديمة أنه يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأنه تحريف لإسم (مكربه) واختصار له ، وأنها كانت مدينة مقدسة يقصدها الناس من مواضع عديدة من حضر وبادية . وقد ورد ضمن الكتابات الثمودية القديمة نسبةً لرجال عُرف الواحد منهم بأنه (مكى) وربما كان هؤلاء الرجال ينسبون إلى مكة .

والقرآن الكريم سمى مكة أيضاً : بكة ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ . كذلك عُرفت مكة بأسماء أخرى ، منها : صلاح ، وأم رحم ، والباسة ، والناسة ، والحاطمة ، وذكرت فى القرآن الكريم بأم القري : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ مصدقٌ الذى بين يديه ولتُنذر أم القرى ومن حولها .. ﴾ .

وللبيت الحرام فضل كبير على أهل مكة منذ نشأتها ، وبسببه يقصدها الناس من كل فج عميق حتى اليوم للحج إليه ، وقد عُرف البيت بالكعبة لأنه مكعب الشكل ، ويقال له أيضاً البيت العتيق . وقد رفع إبراهيم الخليل وإبنه إسماعيل أركان البيت بأمر الله ، وقد قيل أنه تعرض لسيول قديمة هدمته .

وبمكة جبل يطل عليها يُقال له : أبو قبيس ، وأمامه جبل آخر ، وبين الجبلين وادٍ نبتت فيه مكة ونمت فصارت محصورة بين جبلين ، وعرفوا بالأخشبين . وقد سكنت قبيلة جرهم جبل أبى قبيس قبل أن تسكن بطحاء مكة تجنباً لخطر السيول التى كانت تنزل فى بعض الفترات على الوادى فتغرقه وتدمر الحياة فيه . ولَمّا أسكن (قصى بن كلاب) القرشيين فى الوادى فى بيوت

ثابتة مبنية فى بطحاء مكة ، بقى منهم من فضلٌ السكن فى ظواهر مكة ، أى على الجبال ، فعُرفوا بقريشَ الظواهر .

وكان العماليق أول من سكن مكة ، علـى أثر هجرتهم إليها من بلاد العراق ، ثم خلفتهم عليها قبيلة جرهم الثانية اليمانية بعد أن هاجرت من اليمن وتغلبت على العماليق . وفى عهد سيادة جرهم على جبال مكة كانت هجرة نبى الله إبراهيم الخليل من العراق ، وكان نزوله مع زوجته المصرية (هاجر) وطفله الرضيع إسماعيل بطحاء مكة . وقد استجاب إبراهيم لأمر ربه بترك زوجته وطفله فى هذا المكان الصحراوى الموحش ، وتركهما بعد أن دعى ربه لهما ، فاستجاب الله لدعائه وأنبع الماء من تحت قدمى الطفل الرضيع ، وكانت بئر زمزم . وجاءت قبيلة جرهم على أثر الماء لتسكن مع هاجر وطفلها ، وقد هوت أفئدة الناس إليهم ورزقهم الله من طيب ثماره ، وقامت الحياة وازدهرت فى تلك البقعة القاحلة من صحراء الحجاز .

وحين وصل إسماعيل إلى سن الشباب ، تزوج من جرهم ، بعد أن أحرز الرياسة عليهم ، تزوج من رعلة بنت الحارث بن مضاض بن عمرو بن جرهم . وعاش نسله فى جرهم ، والأمر على البيت لجرهم لأن أبناء إسماعيل لم ينازعوا أخوالهم على الرئاسة . وقد ظلت الرئاسة فى جرهم حوالى قرنين من الزمان إلى عهد آخر رؤسائهم وهو (مضاض بن عمرو بن الحارث) .

وفى عهد رئاسة مضاض حدث أن نضبت مياه زمزم ، وتغلب على جرهم بنو خزاعة ، وهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وكانوا قد هاجروا من اليمن إليها بعد وقوع سيل العرم وانهيار سد مأرب . فاستولوا على مكة بقيادة زعيمهم حارثة ، الملقب بخزاعة .

وكان مُضاض الجرهمى قد حذر قومه عاقبة الفساد والترف الذى انغمسوا

فيه نتيجة الثروة التى حلت عليهم بسبب التجارة ، ولكنهم لم يستمعوا له . فلمّا أيقن مضاض زوال أمر دولته فى مكة عمد إلى بئر زمزم فأعمق حفرها ودفن بها ما كان مدخراً للكعبة مما أهدى إليها من مال وذهب وأهال عليها الرمال ، على أمل عودة جرهم للسيادة على مكة ثانيةً يوماً من الأيام فيعيد الكشف عنها وتستفيد جرهم وتتقوى بها . وخرج بنو إسماعيل مع مضاض من مكة ، ووليت خزاعة أمر مكة والبيت وكان رئيسهم يومئذ (عمرو بن لحى الخزاعى) ، الذى ينسب إليه إدخال عبادة الأصنام إلى بلاد العرب بعد أن استوردها من الشام .

وعمرو بن لحى هو أول رجل يصل إلينا خبره من الرجال الذين كان لهم أثر فى تكوين مكة وفى توسيع توجه القبائل إليها للإتجار معها وللتعبد للكعبة وللأصنام التى وضعها حولها وفى جوفها . وعلى رأس هذه الأصنام استورد ابن لحى صنماً أطلق عليه اسم هُبل وضعه فى جوف الكعبة ، وقد صنع من العقيق ، وحين كسرت إحدى يديه استبدلت بيد صنعت من الذهب الخالص وعُد هبل كبير آلهة العرب وكبير أصنامهم ، فصاروا يقدمون إليه ويقدمون القرابين له ولبقية الأصنام

واستمرت خزاعة على رياسة مكة حوالى ثلاثة قرون حتى تقوت عليها قبيلة قريش وانتزعت الرياسة منها ، وكان ذلك على وجه التحديد سنة ٤٤٠ للميلاد بقيادة (قصى بن كلاب) الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قام قصى بإجلاء خزاعة عن مكة إلى وادى فاطمة بالحجاز . وقد أقطع قصى مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم بمكة التى أصبحوا عليها ، وقد سكنوا بطحاء مكة ، وعرفوا بقريش البطاح وهم دون قريش الظواهر الذين سكنوا جبال مكة . ودون الأحابيش ، وهم حلفاء قريش وهم : بنو المصطلق والحياء بن سعد وبنو الهون بن خزيمة ، وهم من اجتمعوا بجبل أسفل مكة يقال له : ذنب حبشى .

وقصى من قريش ، وقريش كلها من نسل رجل إسمه : (فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان) ، وهي من القبائل العدنانية ، من مجموعة العرب المستعربة . فقريش هم : فهر وأبناؤه من سكان بطحاء مكة وظواهرها . وقد سمى قصى مجمعاً لأنه جمع قومه من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة .

وقد اشتهرت قريش بالتجارة ، وبها عرفت وذاع صيتها بين القبائل ، وتمكن رجالها ، بفضل ذكائهم ومهارتهم فى أسلوب التعامل ، من الاتصال بالدول الكبرى فى ذلك العهد وبسادات القبائل ، وتكوين علاقات طيبة معها . كما نجحوا فى عقد أحلاف مع سادات القبائل ضمنت الأمان لتجارتهم طوال أيام السنة ولرحلتى الشتاء والصيف اللتين كانوا يقومون بهما إلى اليمن والشام ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة الإيلاف : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف .. ﴾ .

وقد علمت الأسفار سادة قريش أموراً كثيرة من الحضارة والثقافة وأطلعتهم على بلاد متقدمة متحضرة فى الشام والعراق ، فتعلموا من الحيرة أصول كتابتهم وهذبوا لسانهم ودونوا به أمورهم . كما علمتهم الطبيعة أن كسب المال وتأمين الرزق يحتاج إلى الأمن والسلام ، لذلك اتصفوا بالمسالمة وبالحلم والنجدة ، وجاء لهم ذلك بأحسن النتائج فقصدهم التجار من كل مكان وهم مطمئنين على حياتهم وأموالهم وبضائعهم . وقد جعلت طبيعة مكة والوادى الذى يعيش فيه أهلها بين جبلين طبيعة مسالمة لا تركن إلى الغزو والحرب .

ولم تكن فى مكة حكومة مركزية بالمعنى المعروف للحكومة الآن ، وكل أمرها أنها قرية تتألف من شعاب ، كل شعب لعشيرة ، وأمر كل شعب لرؤسائه ، هم وحدهم أصحاب الحل والعقد والنهى والتأديب فيه . وليس فى

استطاعة متمرد مخالفة أحكامهم . هؤلاء الرؤساء هم الحكام وعقلاء الشعب وهم الزعماء ، وقد عرفوا باسم الملأ . وملأ مكة محافظون لا يقبلون تجديداً ويتعلقون بتراث الآباء والأجداد .

ودار الندوة هو دار مشورتهم فى أمور السلم والحرب ، وفى هذه الدار يجتمع أهل الملأ للتشاور فى أمورهم الهامة ، وفيها أيضاً تجرى عقود الزواج وتعقد المعاملات . وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن دار الندوة لم يكن بداخلها إلا إبن أربعين أو ما زاد . ولم تكن قرارات دار الندوة ملزمة ، ولا يحصل الإجماع فيها إلا باتفاق . ولم تكن الخصومات الداخلية للأسر تُعرض فى دار الندوة ولكنها تفض داخل الأسر ، فقد كان العرب لا يقبلون تدخل غريب عن الأسرة فى شأن من شئون تلك الأسرة . لذلك كان الملأ لا ينظرون إلا فى الأمور التى هى فوق مستوى الأسر والشعاب والتى تخص المدينة كلها .

فالحكم فى مكة إذن حكم لا مركزى ، حكم رؤساء وأصحاب جاه ونفوذ ومنزلة ، تُطاع فيها الأحكام وتنفذ الأوامر ، لا لوجود حكومة مركزية قوية مهيمنة لها سلطة على كل أهل مكة . بل لأن الأحكام والأوامر هى أحكام ذوى السن والشرف والرئاسة ، أحكام نابعة من العرف والتقاليد والعادة .

ودار الندوة هى أول دار بنيت بمكة على حد قول الرواة بناها قصى ، وكانت أشهر دار بمكة . وقد توارث بنو عبد الدار الندوة حتى اشتراها معاوية بن أبى سفيان من عكرمة بن عامر بن عبد الدار فجعلها دار الإمارة بمكة ، ثم أدخلت فى الحرم .

وذكر أهل الأخبار أن من جملة ما أحدثه قصى : الرفادة ، وهى إطعام الحجاج فى أيام موسم الحج حتى يعودوا إلى بلادهم . وقد فرضها على قريش إذ قال لهم : « يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم وإن الحاج

ضيف الله وزوار بيته وهم أحق بالضيافة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم » ففعلت قريش ذلك ، فكانوا يخرجون فى كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إلى قصى ، لكى يصنعه طعاماً للناس أيام منى ومكة ، وقد بقيت هذه السنة فى الإسلام .

وكانت إلى قصى أيضاً : الحجابة ، والسقاية ، واللواء . والحجابة هى سدانة الكعبة ، أى تولى مفاتيحها وخدمتها والإشراف عليها والتكفل بحمايتها وحراستها . أما السقاية فكانت تعنى توفير الماء ونبيذ التمر لحجاج بيت الله فى موسم الحج . أما اللواء ، فقد عقد قصى لهم راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا لقتال العدو . وقد ترك قصى أثراً كبيراً فى أهل مكة ، وعدوه المؤسس الحقيقى لكيان قريش ، وكانوا يذكرون إسمه دائماً بكل خير .

وكان لقصى أربعة أولاد ، هم : عبد مناف (المغيرة) ، وعبد الله (عبد الدار) ، وعبد العزى ، وعبد قصى ، وكانت له إبنه واحدة إسمها هند . ولما مات قصى دفن بالحجون ، وهو جبل بأعلى مكة كانوا يدفنون موتاهم فيه ، وقد كان القرشيون يزورون قبر قصى ويعظمونه .

وكان عبد الدار أكبر أبناء قصى وأحبه إلى قلبه وأقربهم إليه ، وكان عبد مناف أشرفهم . ولما طعن قصى فى السن وضعف بدنه ولم يعد قادراً على تولى أمور مكة أوصى لعبد الدار بما كان له من وظائف وأن يحل مكانه فيها ليعوضه بذلك ما نقصه من شرف أخيه عبد مناف . ولما توفى قصى سنة ٤٨٠ م قام عبد الدار بعده بأمر مكة ، ولم ينازعه أخوه عبد مناف فى ذلك ، احتراماً لرغبة أبيه . واستمر الحال على ذلك حتى توفى عبد الدار وعبد مناف . فتنازع أبناء الأخوين على الرئاسة بينهما ، وانقسموا فى ذلك إلى فريقين ، وتفرق بذلك أمر قريش . وصمم بنو عبد مناف ، وهم هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل أن يأخذوا الرئاسة من أبناء عمهم . فأبى بنو عبد الدار ترك ما فى أيديهم وأصروا على

الاحتفاظ به . وانقسمت قريش إلى قسمين : فريق مع بنى عبد الدار ، وفريق مع بنى عبد مناف . فأخرجت أم حكيم البيضاء ، توأمة عبد الله والد الرسول جفنة فيها طيب فوضعتها فى الحجر ، فقالت : « من كان منا فليدخل يده فى هذا الطيب » فأدخلت عبد مناف أيديها ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وبنو زهرة وبنو تيـم ، وبنو الحارث بن فهر ، فسُموا بالمطيبين . فعمدت بنو سهم بن عمرو ، فنحرت جزوراً ، وقالوا « من كان منا فليدخل يده فى هذه الجذور » فأدخلت أيديها عبد الدار ، وسهم ، وجمح ، ومخزوم ، وعدى ، فسميت بالأحلاف . وقام الأسود بن نضلة فأدخل يده فى الدم ثم لعقها ، فلعقت بنو عدى كلها بأيديها ، فسموا لعقة الدم .

وكاد القتال أن ينشب بين الطرفين ، لولا أن تداعى الناس إلى الصلح ، فاصطلحوا على أن تُقسم الاختصاصات بينهما ، على أن يأخذ بنو عبد مناف : السقاية والرفادة ، وأن تبقى الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت ورضى الفريقان بهذا ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وظل الأمر كذلك حتى مجىء الإسلام . وحين فتح الرسول مكة ، طلب العباس عم الرسول الحجابة لنفسه فأراد النبى أن يسلمه مفتاح الكعبة ، لكنه رده إلى عثمان بن طلحة من بنى عبد الدار حين نزل قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلـى أهلها ﴾ . وظلت الحجابة باقية فى بنى عبد الدار إلى اليوم كما أراد الله تعالى .

وكان هاشم بن عبد مناف كبير بنى عبد مناف فتولى أمرهم ، ولزم السقاية والرفادة حتى وفاته سنة ٤٦٤ م . وقد سن هاشم لقريش رحلتى الشتاء والصيف باتجار مكة وخروج تجارها فى رحلة شتوية إلى اليمن والحبشة وأخرى صيفية إلى الشام فى كل عام . وقد توفى هاشم بالشام فى رحلة من هذه الرحلات فخلفه أخوه المطلب فى مناصبه ، وكانت قريش تسمى المطلب بالفيض ، لسماحته وفضله .

وقد حاول أمية بن عبد شمس ، ابن أخى هاشم ، أن ينافس عمه فى زعامة مكة ، وأن يتولى أمر السقاية والرفادة ، ولكنه لم يستطع ، وحكم عليه القداح أن ينحر خمسين ناقة عند الكعبة ، وأن يخرج عن مكة إلى الشام مدة عشر سنوات ، فامتثل لأمر القداح وخرج إلى الشام ، وكان ذلك بداية العداء بين بنى أمية وبنى هاشم وبداية التثبيت لأمر بنى أمية بالشام .

وكان هاشم قد تزوج فى يثرب من سيدة من الخزرج ذات شرف ونسب ، تُدعى : سلمى بنت عمرو الخزرجية من بنى النجار ، وأنجب منها ولداً أسمته أمه : شيبه . وقد ترك هاشم إبنه شيبه مع أمه بيثرب قبل أن يلقى منيته . فلما مات هاشم فى غزة ، ذهب أخوه المطلب إلى يثرب ليُحضر إبن أخيه من هناك ليعيش مع أهله فى مكة فلما جاء به إلى مكة أطلق الناس عليه إسم عبد المطلب ، وغلب هذا الإسم عليه حتى نسى الناس إسمه الأصلى شيبه . وقد قام عبد المطلب (شيبه) فى مناصب أبيه هاشم بعد وفاة عمه المطلب ببلدة ردمان من بلاد اليمن سنة ٤٩٥ م ، فصارت له السقاية والرفادة . ولقد وقع حب عبد المطلب فى قلوب قومه وعظم خطره عندهم ، وخاصةً حين تصدى لحملة أبرهة النجاشى على مكة وفشل محاولته فى هدم الكعبة فى عام الفيل .

ولم يكن لعبد المطلب ، حين تولى أمر السقاية والرفادة ، إلا ولد واحد اسمه الحارث ، ولقد لقى عبد المطلب ، بسبب ذلك ، مشقة كبرى وخاصة فى أمر سقاية الحاج ، ذلك أن الماء اللازم للسقاية كان يؤتى به من آبار عدة مبعثرة حول مكة ، وكانت تُجمع وتوضع فى أحواض إلى جدار الكعبة . وكان بئر زمزم قد جف ورُدم منذ قرون . وجاء الهاتف فى المنام لعبد المطلب ، وهو نائم فى حجر الكعبة ، وألح عليه فى أن يعيد حفر البئر . وتفاءل عبد المطلب من ذلك خيراً وتمنى أن يعيد الحفر للبئر الماء إليها فتخف عنه وعن إبنه مشقة جلب الماء من أماكن بعيدة متفرقة . وكانت المفاجأة لعبد المطلب أن عثر على الذهب والأموال

التـى كان مضاض بن عمرو الجرهمى قد دفنها فيها قبل خروجه وقومه من مكة . ونازعت قريش عبد المطلب فيما عثر عليه وأرادت مقاسمته فيه ، لكن القداح التى احتكموا إليها حكمت لصالح عبد المطلب ، فتقوى عبد المطلب بتلك الثروة على أداء ما عليه من واجب السقاية والرفادة .

ويروى أهل الأخبار أن عبد المطلب كان قد نذر لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم أن يذبح واحداً منهم عند الكعبة قرباناً للآلهة . ومع الأيام تحقق أمل عبد المطلب وصار له عشرة ذكور وكان عليه الوفاء بنذره ، فضرب بالقداح فخرج القداح على عبد الله أحب أبنائه إلى قلبه . ولكن القوم منعوه ، ثم أشاروا عليه بأن يرضى الآلهة بنحر إبل فدية عنه ، وكان كلما ضرب القداح يخرج على عبد الله حتى بلغ العدد مائة فخرج على الإبل ، فنحرها بين الصفا والمروة وخلى بينها وبين كل من يريد لحمها من إنسان أو سبع أو طائر . وكانت تلك الواقعة سنة ٥٦٥ م ، أى قبل عام الفيل بخمس سنوات .

وقد كان عبد المطلب فيمن وفد على سيف بن ذى يزن ليهنئه بطرد الأحباش من اليمن . وفـى أيام عبد المطلب كانت حملة أبرهة الحبشى على مكة ، وقد أرخـت قريش بوقوعها . وقد أشار عبد المطلب على قومه بالتحرز بشعاب الجبل وبترك البيت وشأنه لأن للبيت رباً يحميه ، وقد كانت من عادة أهل مكة إذا ما داهمهم الخطر تسلقوا الجبال واعتصموا بها .

ومات عبد المطلب بعد أن جاوز الثمانين ، حوالى سنة ٥٧٨ م ، والرسول له من العمر ثمان سنين ، ودفن بالحجون . ولم يكن أولاد عبد المطلب من رجال مكة الأثرياء ، وكانوا دون أوساط تجار مكة فى مالهم وتجارتهم . ولقد مات إبنه عبد الله ، والد الرسول عليه السلام ، ولم يخلف لأهله شيئاً كثيراً سوى خمسة من الإبل وعدداً قليلاً من الغنم وجارية هى (بركة) أم أيمن .

وقد توفى وهو فى طريقه من غزة إلى مكة ، وكان قد أقبل بتجارة له ، فنزل بيثرب وهو مريض وتوفى ودفن هناك ، وترك السيدة آمنة بنت وهب ، أم الرسول ، وهى حامل فيه فى شهرين .

وكانت أيام الفجار من الحوادث المؤثرة فى تاريخ مكة ، وسُميت كذلك لوقوعها فى الأشهر الحرم . وكان يوم نخلة هو أعظم أيام الفجار ، وكانت بين قريش وهوازن واقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم . وقد وقع هذا اليوم بعد عشرين عام من عام الفيل ، وقد شهده رسول الله وعمره عشرون عاماً .

وأغلب حروب الفجار معارك ومناوشات ، ولم تكن حروباً بالمعنى المعروف لكلمة حرب . أما أهميتها وسبب اشتهارها هو لوقوعها فى الشهور الحُرم ، ولخروج المتحاربين فيها على سنة قريش وعرفهم فى تحريم القتال فى هذه الشهور . ولهذا السبب حُفظ ذكرها وجاء خبرها فى كتب أهل الأخبار .

وحلف الفضول من الأحداث المهمة التى يذكرها أهل السير والأخبار فى تاريخ مكة ، وقد وقع هذا الحلف عام ٥٩٠ م ، وقد دعى له الزبير بن عبد المطلب . وقد شهد هذا الحلف بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم ، وذُكر أنهم تعاهدوا على أن يكونوا مع المظلوم على الظالم ، وألا يُظلم أحدٌ بمكة إلا قاموا معه حتى ترد ظلامته . وقد سُمى هذا الحلف بالفضول لأنه قام به رجال من جرهم كلهم يُسمى الفضل (الفضل بن شراعة ، والفضل بن قضاعة ، والفضل بن نصاعة) .

وقد قيل أن سبب عقد هذا الحلف أن رجلاً من زبيد من اليمن ، كان قد باع سلعة له العاص بن وائل السهمى ، والد عمرو بن العاص ، فماطله فى دفع ثمن بضاعته حتى يئس الرجل ، فاعتلى اليمنى جبل أبى قبيس ، وقريش فى مجالسها حول الكعبة ، فنادى رافعاً صوته يشكو ظلامته ويطلب إنصافه مستجيراً

بقريش فمشت قريش بعضها إلى بعض ، وكان الزبير بن عبد المطلب أول من سعى فى ذلك ، واجتمعت فى دار الندوة بنو هاشم وبنو المطلب ، وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث ، واتفقوا على أن ينصفوا المظلوم من الظالم ، فساروا إلى دار عبد الله بن جدعان وتحالفوا هنالك على ذلك .

ولقد كان فى مجتمع مكة عدد من الوجهاء تطلعوا إلى السيادة على مكة بل تطلع بعضهم إلى أن يصير ملكاً عليها ، مثل عثمان بن الحويرث ، إلا أن محاولته باءت بالفشل . ومن وجهاء مكة وسادتها المقدمين المعروفين : عبد الله إبن جدعان ، وكان ثرياً واسع الثراء وكريماً زائد الكرم ، وهو ينتسب إلى بنى تيم بن مرة ، وهو ابن عم والد الصديق أبى بكر .

ومن رجال مكة الأثرياء : الأسود بن المطلب ، المعروف بأبى زمعة ، وهشام إبن المغيرة المخزومى ، والد أبى جهل (عمرو بن هشام) ، وعمرو بن عبد الله إبن صفوان بن أمية ، والوليد بن المغيرة المخزومى ، وسعيد بن العاص بن أمية ، وقيس بن عدى بن سعد السهمى ، وأبو سفيان صخر بن حرب بن أمية ، وعبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب) ، عم الرسول . وقد كان عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من أغنياء العرب فى الجاهلية والإسلام .

وقد كانت بمكة جالية كبيرة من أصل أفريقى عرفت بالأحابيش ، وهم من الرقيق الأسود ، اشتراهم أثرياء مكة لخدمتهم والعمل لهم فى مختلف الأعمال .. وهم بخلاف القبائل التى حالفت قريش وكانت تسكن أسفل جبل خارج مكة يعرف باسم حبيش ، فنسبوا إليها .

كذلك كان فى مكة رقيق أبيض كان يشترى من أسواق النخاسة العالمية ، وقد كان أغلب هذا الرقيق الأبيض على المسيحية ، وكانوا لا يتقنون التحدث

بالعربية . وفى كتب السير أسماء جوارى يونانيات أو من بلاد الشام أو من العراق وقد تزوجن فى مكة وكانت لهن فيها ذرية قبل الإسلام .

ولقد تفاوت الوضع الاجتماعى فى مكة بين الغنى والفقر ، وكان هناك كبار الأثرياء والفقراء المعدمين ، وقد جاءت ثروة غالبية الأثرياء من التجارة (التجارة العالمية الخارجية والتجارة الداخلية) . وقد كان معظم الأثرياء فى مكة قساة القلوب ، لا يعينون المحتاج ويقرضون المال بالربا الفاحش ويستعبدون الفقراء ويسترقونهم مقابل ما عليهم من دين ويسخرونهم فى أشق الأعمال غير عابئين بآدميتهم .

وكان بعضهم لا يتورع عن أكل مال اليتيم ، وعن إكراه فتياتهم على البغاء ليستولى على ما يأتين به من مال . وفى الوقت الذى كان فيه بعض الأثرياء يأكلون فى صحان من ذهب وفضة ويلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب والأحجار الكريمة كان بعض الفقراء يتضور جوعاً وقد يقتله الجوع . ولقد أدى هذا التردى الاجتماعى فى مكة قبل الإسلام إلى الخلل فى المجتمع وإلى شيوع الفساد والرذيلة والظلم فيه ، وكان الأمر فى حاجة ماسة إلى الإصلاح ، وكانت مكة تعيش على بركان . ولقد جاء الإسلام وجاءت رسالة محمد لتصحح المسار ولتنقذ المجتمع المكى من متناقضاته وتخلصه من أدرانه وتسمو بقريش وتضعها على رأس القبائل العربية . والحقيقة أن الإسلام هو الذى أعطى المكانة لقريش وجعل لها السيادة على العرب جميعاً والقيادة على القبائل وجعل الخلافة فيها . فلولا الإسلام ، ولولا كون رسول الله منها لكانت مكة قرية عادية كبقية القرى ولكانت قريش قبيلة كسائر القبائل . ولقد عزت قريش ومكة بالإسلام وبانتسابهما إلى محمد رسول الله خير الأنام .

المدينة المنورة:

تقع المدينة المنورة على بُعد نحو ثلثمائة ميل شمالى مكة ، والمدينة المنورة ، هى يثرب ، وطيبة ، وجابرة ، ودار الهجرة ، وذكرأهل الأخبارأن لها تسعاً وعشرين إسماً . وإسمها الذى عُرفت به فى الجاهلية هو يثرب ، وقيل أنه نسبة إلى يثرب أحد أحفاد سام بن نوح . ويذكر بعض أهل الأخبار أن أقدم من سكن يثرب فى التاريخ القديم قوم يقال لهم (فالج) ، ثم سكنها العماليق ، ثم سكن اليهود فى مواضع العماليق بعد أن أجلوا عنها ، ونزل عليهم بعض قبائل العرب وسكنوا معهم ، وكان معظمهم من القبائل اليمنية ، وكان الأوس والخزرج آخر هذه القبائل قدوماً عليها .

وقد كان قدوم الأوس والخزرج يثرب على أثر حادث سيل العرم ، وفى نفس الوقت ارتحلت غسان إلى الشام والأزد إلى عُمان وخزاعة إلى تهامة . وأقامت الأوس والخزرج بيثرب وكان اليهود قوة فيها يزرعون الأرض ويمتلكون النخيل ويجمعون الأموال ، فمكثوا معهم أمداً وعقدوا معهم حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم بعضاً ويمتنعون به ممن سواهم . فلم يزالوا على ذلك زمناً طويلاً حتى نقض اليهود هـذا الخلف والجوار وتسلطت وحدها على يثرب واضطهدت العرب ، فاستعان الأوس والخزرج بقبائل عربية أخرى على اليهود فغلبوهم ، فصارت الغلبة للعرب فى المدينة بعد ذلك .

وكان أهل يثرب ، مثل غيرهم من العرب قبل الإسلام ، مشركين يتخذون لهم أصناماً فى بيوتهم يتقربون إليها ، كما كانوا يحجون إلى محجات بها أصنام كانت على مسافة من يثرب ، وكان منات معبودهم الأكبر .

وتنقسم يثرب إلى شعاب ، تسكن بطون الأوس فى عدد منها ، كذلك بطون الخزرج ، واليهود . وفى الشعاب دور مبنية بالآجر واللبن ، وبعضها ذو

طابقين ، وفيها بساتين صغيرة وآبار يسقون منها ويشربون . وقد احتفر اليهود بعض الآبار بيثرب وتملكوها وكانوا يبيعون ماءها بالدلاء لأهل يثرب . ومن آبار يثرب بئر أرومه التى اشتراها عثمان بن عفان من يهودىّ ووهبها للمسلمين ، وبئر ذروان ، وغيرها . وتحيط الوديان والجبال بيثرب من جهاتها الأربع ، ففى شمالها يقع جبل أحد ثم جبل سلع ووادى بطحان ورانوناء وفى الجنوب الشرقى وادى مهزور ووادى مذينب ، وفى الجنوب الغربى يقع جبل عير ويمتد إلى يساره وادى العقيق .

ولم يكن ليثرب سور يحيط بها ولا حصون تحميها ، وكان عماد أهلها التحصن فى بيوتهم وسد منافذ الطرق وقت الخطر . وقد كانت للأغنياء ولليهود قصورهم وحصونهم يتحصنون بها من العدو ، وكانت هذه الحصون الخاصة عند أهل يثـرب تعرف بالآطام ، وهى جمع أطم ، والأطم هو الحصن المبنى بالحجارة ، أو القصر .

والجو فى يثرب ، عموماً ، خير من جو مكة وألطف . ولم يعان أهلها معاناة أهل مكة من قحط فى الماء وشدة فى الحر . والماء عندهم قريب من سطح الأرض يسهل الحصول عليه بحفر الآبار ، لذلك زرع أهلها البساتين والحدائق والنخيل وقد دفع ذلك أهل يثرب إلى الاستقرار والتحضر .

وينتسب الأوس إلى أوس بن حارثة بن ثعلبة الأزدى ، وهم ينقسمون إلى بطون ، منهم : عوف ، والنبيت ، وجشم ، ومُرة ، وامرؤ القيس . ومنهم الشاعر الجاهلى وأحد أسيادهم ، وهو : أحيحة بن الجلاح بن الحريش .

وأما الخزرج ، فإنهم أخوة الأوس فى عرف النسابين ، والخزرج جدهم هو شقيق أوس جد الأوس ، وهو الخزرج بن حارثة بن ثعلبة الأزدى . ومن ساداتهم عند ظهور الإسلام : سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير . وينقسم الخزرج أيضاً إلى بطون ، منهم : بنو النجار والحارث وكعب .

وبالرغم من صلة الرحم القريبة التى كانت بين الأوس والخزرج ، فقد وقعت بينهما حروب هلك فيها من الطرفين خلق كثير ، وقد كان اليهود يشعلون نيران هذه الحروب حتى يضعف الطرفان لصالحهم . وأول حرب وقعت بينهما على رواية الأخباريين : حرب سمير ، وحرب سميحة ، ويوم السرارة ، وكان أشد هذه الحروب وآخرها حرب يوم بعاث سنة ٦١٧ م ، وقد ساعدت بعض القبائل كلا الطرفين فى هذه الحرب ، فقد ساعد الخزرج يوم بعاث ، أشجع من غطفان وجهينة من قضاعة . وساعد الأوس مزينه من أحياء طلحة بن إياس ، وقريظة والنضير ، وانتصرت فيها الأوس وهزمت الخزرج . وقد تخلل أخبار هذه الأيام كالعادة شعر ، قاله شعراء الطرفين فى الفخر وإثارة النخوة ، ومن هؤلاء الشاعر المخضرم الشهير حسان بن ثابت شاعر الرسول ، وهو لسان الخزرج والمدافع عنهم . ولقد جمع الإسلام الأوس والخزرج فى إخاء واحد بعد أن انتصر بهم رسول الله ، وعرفوا منذ هجرته إليهم بإسم الأنصار .

وكان أهل يثرب ، مثل غيرهم تجاراً يخرجون إلى أسواق الشام فيتجرون بها ، وكان يهود يثرب يتاجرون أيضاً ويأتون إلى أهل يثرب بما يحتاجون إليه من تجارات .

واليهود الذين سكنوا يثرب وفدوا إليها خلال القرن الأول والثانى الميلاديين هرباً من الرومان بعد أن أجلاهم الامبراطور تيتوس سنة ٧٠ م عن فلسطين ، وبعد أن دمر مدينة أورشليم وأحرق هيكلهم فيها . كذلك بعد قضاء الامبراطور هادريان على من تبقى منهم فى مدن فلسطين الأخرى سنة ١٣٥ م .

وكان ضمن الهاربين إلى جزيرة العرب من اليهود ثلاث قبائل هى : بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع ، ولقد استقرت هذه القبائل فى يثرب بعد أن جلى العماليق عنها . وقد سكن اليهود من بنى قينقاع وادى بطحان بداخل

المدينـة ، وبنو النضير سكنوا منطقة العوالى على وادى مذينب جنوب شرقى المدينة ، وسكن بنو قريظة وادى مهزور . وقد انتقى اليهود الأراضى الخصبة من المدينة وسكنوا فيها وعملوا على زراعتها وبخاصة زراعتها بالنخيل . وقد قام اليهود ببناء حصون وقلاع لهم فى مواطنهم فى المدينة وخارجها لحمايتهم على عادتهم فى بناء أى (جيتو) لهم فى أى موقع ينزلون فيه . ومن هذه فى المدينة : حصن أوطاس ، وفى خيبر : حصن ناعم وحصن القموص .

وكان أهل يثرب يفدون إلـى مكة مع من كان يغدو إليها من التجار والحجيج ، وبخاصة فى موسم الحج . فتحدث محمد معهم ، كما كان يتحدث مع كل وافد إلى مكة يدعوهم إلى الإسلام . وكان رسول الله يعرض نفسه على القبائل البدوية التى كانت تفد إلى مكة ، وكان يوافى المواسم كل عام يتبع الحاج فى منازلهم وأسواقهم ويعرض عليهم الدخول فى الإسلام ويدعوهم إلى عبادة الله الأوحد ويخبرهم بأنه نبى مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يظهر الله ما بعثه به . فلم تستجب القبائل له . ولم ييأس رسول الله فى محاولاته وهو على يقين من أن الله ناصره وظاهر لدعواه . فتطلع فى أحد المرات عند العقبة إلى وفد تجارى قادم من يثرب ، فتحدث محمد معهم كما كان يتحدث مع كل وافد إلى مكة ، وفى هذه المرة وجد آذاناً صاغية من أهل هذه المدينة التى قدر الله لها أن تلعب دوراً هاماً فى حياة النبى وحياة الدولة الإسلامية ، وليتغير إسمها من يثرب إلى طيبة والمدينة المنورة لما كان لها من دور عظيم فى الإسلام وقيام دولته . وكانت لمحمد علاقة خاصة بيثرب فأبيه قد مات ودفن هناك بين أخواله من بنى النجار من الخزرج . وأمه أخذته هناك وهو طفل لزيارة أخواله وماتت وهى فى طريق عودتها منها إلى مكة فى منطقة الأبواء .

وقد عرف النبى من وفد يثرب مدى العداوة الواقعة فى مدينتهم بين الأوس

والخزرج وتربص اليهود بهما وسخريتهم منهما ووعدهم لهما بمقدم رسول منهم تكون نهايتهم على يديه مثل نهاية عاد وإرم .

وكان سويد بن الصامت ، أخو بنى عمرو بن عوف من الأوس ، أول من استجاب لدعوة محمد من أهل يثرب ، وكان قوم سويد يسمونه بالكامل لنسبه وشرفه وأدبه وشعره وقد قدم مكة فتصدى له رسول الله حين سمع بمقدمه ودعاه إلى الإسلام ، ودارت بينهما محاورة انتهت بدخول سويد فى الإسلام .

كان وفد يثرب الأول الذى التقى به النبى عند العقبة ، على بعد ميلين عن مكة بينها وبين منى ، يتكون من ستة أشخاص من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فدعاهم النبى إلى الإسلام فأسلموا ، وعادوا إلى مدينتهم بعد أن واعدوه بالعودة واللقاء فى العام القادم . وفى العام التالى (٦١٢م) وفى الموسم وفد إلى مكة إثنا عشر رجلاً ، عشرة منهم من الخزرج واثنان من الأوس ، والتقوا بالرسول عند العقبة وبايعوه بالبيعة التى عرفت ببيعة النساء ، وهى بيعة العقبة الأولى . ولمّا انصرفوا إلى يثرب بعث معهم رسول الله مصعب بن عمير وعمرو بن أم مكتوم ليعلموهم القرآن ويفقهونهم فى الدين .

وكانت بيعة العقبة الأولى ، ثم بيعة العقبة الثانية هى الانطلاقة لدخول غالبية أهل يثرب فى الإسلام ، ثم لأن تصبح يثرب دار هجرة للمسلمين ودار هجرة لرسول الله وعاصمة لدولة الإسلام ، وليتحول إسمها من يثرب إلى المدينة المنورة بعد أن أنار الله قلوب أهلها بالإسلام وأشعت هى النور بدورها إلى كل العالم وسائر الأركان .

الطائف :

تقع الطائف على مسافة خمسة وسبعين ميلاً تقريباً إلى الجنوب الشرقى من

مكة ، وهى على عكس مكة أرض مرتفعة ذات جو طيب فى الصيف فيه زرع وضرع وغنى جادت الطبيعة به على أهلها . وقد كان وما زال مصيفاً طيباً يقصده أهل مكة فراراً من الحر وشدة القيظ . وتقع الطائف على ظهر جبل غزوان بارتفاع ستة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر ، وهو أبرد مكان فى الحجاز والمكان الوحيد الذى يجمد الماء فيه . وبينها وبين مكة وادٍ اسمه نعمان الأراك ، وهى كثيرة الشجر والثمر وأكثر ثمارها الأعناب والموز والرمان ، وهى تمير مكة بالبقول والفاكهة . وهى إلى جانب خصوبة أرضها وكثرة محاصيلها . كانت مركزاً تجارياً هاماً ومحطة للقوافل الذاهبة إلى اليمن .

وكانت الطائف تُسمى (وج) نسبة إلى وج بن حى من العماليق ، وقالت الأساطير أنها سميت بالطائف لأنها كانت قطعة من الجنة اقتطعها جبريل عليه السلام ، وطاف بها حول البيت العتيق ثم أنزلها موضعها الحالى . وهكذا أكسبت هذه الرواية الطائف قدسية وجعلت لها مكانة دينية ، ويبدو أن هذه الرواية وُضعت بتأثير من سادات ثقيف المتعصبين لمدينتهم والتى يرونها ليست بأقل مكانة ولا شأناً عن مكة أو يثرب . وقد كانوا يعتبرون مدينتهم توازى مكة فى المكانة ، وقد ورد قولهم هذا فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :﴿ وقالوا لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ . وزعم أهل الأخبار أن الطائف إنما سميت طائفاً بحائطها المطيف به ، وقد زعموا أن الذى أقام هذا الحائط رجل من الصدف بحضرموت ، اسمه الدمون بن عبد الملك كان قد قتل ابن عم له إسمه عمرو ، ثم فر هارباً إلى وج وكان معه مال كثير وكان تاجراً . فقابل مسعود بن معتب الثقفى ، سيد ثقيف وقتئذٍ ، فعرض عليه بناء حائط يطوف بوج كلها ، وذلك مقابل حماية ثقيف له وتحالفها معه وتزويجه من نسائها . فوافقوا على ذلك فبنى لهم طوفاً ، فسميت الطائف ، فزوجوه .

ولقد نزلت ثمود الطائف بعد العماليق ، قبل أن تنزل وادى القرى ، وتلتها عدوان التى ظلت بها حتى غلبهم بنو عامر بن صعصعة وثقيف ، واستطاعت ثقيف أخيراً أن تستقل بها وتحافظ عليها ، ودخلت فى سبيل ذلك حروباً متعددة إلى أن اعترف الجميع لها بالسيادة عليها ، وارتحل عنها بنو عامر إلى تهامة ، وتحكم بها بنو ثقيف .

وكان أغلب سكان الطائف ، عند ظهور الإسلام ، من قبيلة ثقيف . وترجع هذه القبيلة نسبها ، مثل القبائل الأخرى ، إلى جد أعلى يقولون أن إسمه قسى إبن منبه ، وقد اختلف النسابون فى نسبه فمنهم من جعله عدنانى من قيس عيلان ، ومنهم من يجعله قحطانى ، وهم حزبان : الأحلاف وبنو مالك .

ويختلف أهل الطائف عن أهل مكة ، وعن الأعراب من حيث ميلهم إلى الزراعة واشتغالهم بها وعنايتهم بغرس الأشجار . وثقيف حضر مستقرون متقدمون بالقياس إلى بقية أهل الحجاز ، تقدموا فى الزراعة وأحاطوا مدينتهم ببساتين مثمرة ، كما تفوقوا فى العمارة وفى اشتغالهم بالحرف اليدوية كالدباغة والنجارة والحدادة ، وهى حرف مستهجنة فى نظر العربى يأنف من الاشتغال بها . ولكن أهل الطائف احترفوها وربحوا منها . وقد عاش أهل الطائف فى مستوى أرفع من مستوى عامة أهل الحجاز ، وكون ثراتها ورؤساؤها ثروات كبيرة . وكان أغنياء الطائف كأغنياء مكة يتعاملون بالربا ، ولما أسلموا اشترط عليهم الرسول تحريم الربا وشرب الخمر .

وقد استغل أثرياء قريش أموالهم فى الطائف ، فاشتروا الأراضى فيها وزرعوها واستثمروها ، وبنوا لهم منازل للاصطياف فيها ، وأسهموا مع رؤساء ثقيف فى أعمال تجارية رابحة ، وحاولوا جهد إمكانهم ربط الطائف بمكة فى كل شىء . وقد كان بين أهل مكة والطائف تنافس وتحاسد . وقد حاول أهل الطائف جلب القوافل إليهم وجعل مدينتهم مركزاً للتجار يستريحون فيه ، وقد نجحوا فى

مشروعهم هذا بعض النجاح يوم استولى الفرس على اليمن ، وتمكنوا فيه من طرد الأحباش عن جنوب شبه الجزيرة العربية . فصارت قوافل الفرس التجارية ولطائم ملوك الحيرة تذهب إلى اليمن وتعود منها عن طريق الطائف . واتعبت بذلك أهل مكة وأقلقتهم وأثرت على مورد رزقهم الرئيسى وهو التجارة . غير أن أهل مكة تمكنوا من التغلغل إلى الطائف وبسط سلطانهم عليها بإقراض سادتها الأموال وبشراء الأرض فبسَطوا بذلك سلطانهم عليها وأقاموا بها أعمالاً اقتصادية خاصة ومشتركة ، وهكذا استغل أذكياء مكة هذا الموضع المهم للطائف وحولوه إلى مكان فى حكم التابع لسادات قريش .

ومن سادات الطائف : عبدياليل وإخوته الأربعة ، وكانوا أثرياء أجواد ، وبيت بنى علاج وهو من البيوت القديمة المعروفة بالطائف ، والشاعر أمية بن أبى الصلت .

وقد كان أهل الطائف وثنيين يعبدون اللات ، وكانت اللات على صخرة بالطائف وهى صخرة مربعة ، كانوا يضاهونها بالكعبة ، وكان سدنتها وحجابها من بنى معتب من ثقيف . وكانت تلبية صنمهم : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك كفى بيتنا بنية ليس بمجهود ولا بلية لكنه من تربة ذكية أربابه من صالح البرية ، لبيك اللهم لبيك ، أن ثقيف أتوك وأخلفوا المال ورجوك » .

وقد لقى الرسول مقاومة عنيفة من أهل الطائف حين حاصرها وأحاط بها فقد تحصن أهلها بحائطهم وحصونهم وأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم وصنعوا الصنائع للقتال . وكانت ثقيف قد ردت رسول الله عن بلدتها حين ذهب إليها يدعوهم إلى دين الله فى أعقاب عام الحزن ، وقد دعى لهم رسول الله بالهداية وهو عائد من بلدتهم .

ولمّا رأت ثقيف قوة دولة الرسول الجديدة ، واستسلام قريش لمحمد وفتحه مكة قررت تفاوض الرسول على الدخول فى الإسلام . فلما دخلوا عليه أبوا أن يبايعوه إلا بيعة الجاهلية ثم سألوه أن يدع لهم اللات وألا يهدمها إلا بعد مدة يحددونها له . فأبى رسول الله ذلك وأصر على هدمها . كما سألوه أن يعفيهم من الصلاة فأبى ذلك أيضاً ، وأخيراً ارتضوا الصلح وفقما أراد رسول الله .

الحالة السياسية في جزيرة العرب
عند ظهور الإسلام



الحالة السياسية في جزيرة العرب

عند ظهور الإسلام

يعتبر القرن السادس للميلاد من القرون الهامة فى حياة البشرية ، فقد شهد النصف الأول من هذا القرن والنصف الثانى منه أحداثاً هامة غيرت وجه البشرية وأوجدت فيها تغييرات هامة كانت لها نتائج خطيرة فى القرون التالية .

ففى النصف الأول من هذا القرن ظهر الضعف على الدولتين العظميتين فى العالم آنذاك ، وهما دولتى الفرس والروم ، بسبب الحروب الطاحنة التى كانت بينهما على فرض السيادة على العالم ، تلك الحروب التى أنهكت كليهما وأدت إلى انهيارهما فى القرن التالى . وفى النصف الثانى من هذا القرن وُلد الهدى محمد رسول الله ، الذى كان مولده وظهوره وبعثه من أهم الأحداث التى طرأت على العالم والتى غيرت مجرى التاريخ كله ، وجعل السيادة على العالم كله لجزيرة العرب تلك البقعة من الأرض التى كان الفرس والروم يحتقرون أهلها ويعتبرونهم مجرد بدو رعاة ليست عندهم إدارة ولم تكن لهم حضارة .

وكانت دولة الفرس التى سيطرت على النصف الشرقى من العالم تقريباً . فى القرن السادس يحكمها كسرى أنوشروان « الروح الخالدة » (٥٣١ – ٥٧٩م) ، وقد تولى الحكم وإمبراطوريته يعمها الاضطراب وتنخر فى عظامها الأدران ، وحاول إصلاح الأمور فيها على قدر الإمكان ، واستعان فى حكمه بمستشارين حكماء كانوا يعظونه ويرشدونه فى سياسة الرعية وتدبير أمور الدولة . كما اهتم هذا الملك بأمر الديانة المجوسية (الزرادشتية) ، ديانة الدولة الرسمية وعمل على مقاومة ما دخل عليها من انحراف من جوانب الدعوات الهدامة التى

نادى بها بعض الدعاة . ومن هذه الدعوات التى تفرعت عن المجوسية مذهبان ، هما : المذهب المانوى ، والمذهب المزدكى . وتنتسب المانوية إلى مؤسسها (مانى) الذى ظهر فى القرن الثالث الميلادى ، والذى قام بمزج تعاليم المجوسية مع البوذية والمسيحية وخرج بتعاليم جديدة لمذهبه عن المجوسية . وقد أخذ مانى من المجوسية عقيدة الثنيوية ، أى عبادة إلهين هما إله النور وإله الظلمة ، ومبدأ استباحة الزواج من المحرمات من البنات والأخوات . وأخذ من البوذية الاعتقاد فى تناسخ الأرواح ، كما أخذ من المسيحية النُسك والرهبنة .

أما المزدكية ، فهى تنتسب إلى داع ظهر فى بلاد فارس فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، يُدعى مزدك . كان قد انحرف عن المجوسية برغم أنه كان ثنيوياً يؤمن بإلهى النور والظلمة وبتقديس النار ، إلا أنه جاء بدعوة صارخة إلى العكوف على الملذات والشهوات والاستغراق فيها حتى الأذقان . كما نادى بشيوعية المال والنساء وجعلهما شركة للناس جميعاً . وقد اعتنق المذهبين الجديدين كثير من شعب الفرس ، وبخاصة المذهب المانوى لما يدعو به صاحبه من تحرر وتحلل وفساد .

ولقد قام الملك كسرى بمحاربة المزدكيين والمانويين ومحاربة أفكارهم الخطرة على المجوسية . كذلك رحب هذا الامبراطور بالمسيحيين الفارين إلى دولته والمخالفين لمذهب ودولة الروم الرسمى وهو المذهب الملكانى ، وسمح لهم بالإقامة فى بلاده نكاية فى دولة الروم المعادية .

وحاول كسرى أنوشروان إصلاح أحوال بلاده الاجتماعية والمالية والعسكرية ، بإصدار قوانين وتشريعات جديدة وإدخال تعديلات عليها جعلت دولته أقوى مما كانت عليه فى عهد والده . ولما أكمل إعداد جيشه وتجهيزه وتسليحه قام بغزو سوريا التى كانت خاضعة لحكم الروم آنذاك

وللأمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥ م) ، واستولى على مدينة أنطاكية الهامة ودمر أهم معالمها نكاية فى أهلها الذين دافعوا عن مدينتهم وتصدوا ببسالة لقواته الغازية . كذلك أرسل الملك أنوشروان حملة إلى اليمن ، بناءً على طلب الأمراء المعارضين لحكم الحبشة عليها ، ساعدتهم فى وضع خطة لإزاحة الأحباش ، حلفاء البيزنطيين وإخوانهم فى الدين ، عنهم . وقد كان الروم هم الذين طلبوا من نجاشى الحبشة فتح اليمن نصرةً لنصارى نجران .

واتبع كسرى الثانى (أبرويز) (٥٩٠ – ٦٢٨ م) ، خطوات أسلافه من ملوك ساسان فى محاربة البيزنطيين ، فاستولى على بلاد الشام كلها وأرمينيه ومد بأطماعه إلى البحر المتوسط وطرقت قواته أبواب القسطنطينية عاصمة الروم . وقد ساعد الفرس على هذا الاجتياح لمستعمرات الروم تلك الاضطرابات التى سادت ولايات الروم الشرقية بسبب الخلافات الدينية بين أهليها ، واضطهاد الدولة للعناصر المسيحية اليعقوبية المعارضة لمذهب الدولة الملكانى . وقد ساعد أهالى هذه البلاد الفرس فى الاستيلاء على بلادهم وفتحوا أبواب مدنهم لهم ودلوهم على نقاط الضعف فى التسليح الرومى بسبب هذا الاضطهاد ، وبسبب سياسة التسامح الدينى التى انتهجها الفرس مع سكان هذه البلاد المفتوحة ممن كانوا على المذهب اليعقوبى . كذلك بسبب حماية الفرس للمذهب النسطورى الذى انتشر فى الأقاليم الشرقية .

ولقد نجح الفرس سنة ٦١٤ م فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وإباحة هذه المدينة المقدسة لجنودهم ثلاثة أيام ، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها ، كما أسروا عدداً أكثر ممن قتلوا ، وكان من بين هؤلاء الأسرى الأب زكريا ، بطريرك المدينة . كذلك استولوا على (صليب الصلبوت) ، أهم آثار المسيحية الدينية ، وهو الصليب الذى يدعى المسيحيون أن المسيح قد صلب عليه ، ونقلوه إلى عاصمتهم طيفسون (المدائن) . وقد دمرت حرائق الفرس كنيسة القيامة ، التى

كانت قد شيدها قسطنطين الكبير فى القدس ، وهى من أقدس كنائس المسيحية هناك .

وبعد أن فتح الفرس سوريا واستولوا عليها جميعها ، قاموا بغزو مصر وفتحها ، وقد كانت مستعمرة رومانية ، فسقطت الإسكندرية العاصمة فى أيديهم سنة ٦١٩ م ، ثم استولوا ، بعد ذلك فى سهولة على بقية بلاد مصر فى الدلتا والصعيد . وقد دوّخ كسرى بفتوحاته الروم ، إلى أن عاجله إبنه بخلعه فاستراح الروم منه ، ثم لم يلبثوا أن استردوا من الفرس أكثر مما أخذوه منهم فى تلك الحروب .

وقد أضعفت هذه الحروب المتوالية الحكومة الفارسية الساسانية وآذت الشعوب التى خضعت لحكمها وأفقرتها ، وأثرت على الأمن الداخلى وعلى الأوضاع الاقتصادية والعمرانية تأثيراً كبيراً خصوصاً فى بلاد العراق التى كانت ميداناً دائماً لتلاحم الجيوش وقتالها . وقد ساعدت هذه الفوضى الأعراب فى الإغارة على حدود الدولة فى كل مكان فيه نفوذ وجنود للفرس ولا سيما بعد معركة ذى قار ، التى منحتهم قوة معنوية عالية ، وأرشدتهم إلى مواضع الضعف عند الفرس الساسانيين . فلما جاء الإسلام من جزيرة العرب كان هؤلاء الأعراب عوناً له فى تقويض تلك الدولة بسرعة عجيبة وضمها جميعاً إلى دولة الإسلام الوليدة .

وقد طمعت القبائل العربية ، أيضاً ، فى حكومة المناذرة بالحيرة ، وكانت قد وهنت آنذاك ، فأغارت على حدودها وأراضيها وقطعت طريق قوافلها التجارية التى كان يرسلها ملوكها للإتجار فى أسواق الحجاز واليمن . ولم يستطع الفرس مساعدتهم ، بسبب تردى أوضاع الفرس أنفسهم وانشغالهم بالقتال مع الروم . وقد زاد ذلك فى تصميم القبائل العربية على مهاجمة ملوك الحيرة وحدود الفرس فى آن واحد . ولعل هذه الغارات ، كانت فى جملة الأسباب التى

حملت ملك الفرس كسرى أبرويز على القضاء على ملك الحيرة النعمان وإنهاء حكم دولة بنى نصر المناذرة بالحيرة ، إما بسبب ما رآه من ضعف النعمان أمام القبائل العربية المهاجمة ، فرأى استبداله بعربى آخر أقوى منه أو برجل قوى من قواد الفرس . وإما لخوفه من تواطأ النعمان مع القبائل العربية المهاجمة ضد الفرس .

وقد ولّى الفرس حاكماً منهم على الحيرة ، فى أعقاب إزالة حكم المناذرة عنها ، لكن هذا الحاكم لم يستطع الصمود أمام المد الإسلامى الكبير الذى اجتاح إمارته واجتاح العراق كله وكل بلاد فارس ليوصل العرب إلى حدود الصين . ذلك لأن دولة الفرس كانت قد شاخت واستشرى الداء فى جميع جسدها ولم يصبح هنالك أمل فى العلاج ، فخرت صريعة تلعق جراحها تحت تأثير ضربات المسلمين الموجعة .

ولم تكن مشكلات الروم أهون من مشكلات الفرس بنى ساسان ، وأول هذه المشكلات هى المشكلة الدينية التى أوجدت انقساماً واضطراباً كثيراً فى الدولة . ولقد كانت الوثنية ديانة الدولة فاتخذ أباطرة الرومان لهم آلهة واتخذ هولاء الأباطرة أنفسهم آلهة وأجبروا شعوبهم على عبادتهم . وظهرت المسيحية معارضة للوثنية ، ودخلت فى صراع طويل مع الوثنية ولقى أتباعها اضطهاداً كبيراً من أباطرة الرومان واستشهد كثير منهم وبخاصة فى عهد الامبراطور دقلديانوس فى القرن الثالث الميلادى ، والذى عرف عهده عند النصارى باسم « عصر الشهداء » لكثرة من قتل فيه من المسيحيين ، حتى أن كنيسة الإسكندرية جعلت تقويمها يبدأ بيوم جلوس دقلديانوس على عرش بيزنطة احتفاءً بعصر الشهداء .

وانتصرت المسيحية على الوثنية البيزنطية فى عهد الامبراطور قنسطنطين الكبير ، الذى اعترف بالمسيحية ديانة قائمة شأنها فى ذلك شأن الديانات الوثنية

الأخرى ، واعتناقه المسيحية وهو على فراش الموت بعد أن عُمد مسيحياً سنة ٣٢٧ م .

وتطور الأمر بعد ذلك بالمسيحية حين صارت ديانة دولة الروم الوحيدة الرسمية حين دخل أباطرة الروم ، بعد قنسطنطين فى هذا الدين واختفى ما دونها من الديانات الوثنية الأخرى وصار اولئك الأباطرة حماة للمسيحية ورعاة لكنيستها . وعلى أثر ذلك حدث الانتشار الكبير فى العالم لهذه الديانة بعد أن حملت البعثات التبشيرية الدعوة للمسيحية إلى مختلف أنحاء العالم .

وما كادت المسيحية تتسيد الديانات فى العالم وتنتشر فى أنحائه ، إلا وانقسمت على نفسها ، وتقسمت إلى طوائف ومذاهب مختلفة متنافرة . وكانت هذه الاختلافات بين هذه المذاهب تمس صميم العقيدة ذاتها وتختلف فى تحديد طبيعة إلههم وطبيعة المسيح وطبيعة العلاقة بينهما . وصارت مشكلة الديانة المسيحية وانشقاقها على نفسها من أهم المشاكل التى كان على أباطرة الروم أن يواجهوها وأن يعالجوا نتائجها وآثارها .

ولقد عقدت مجامع دينية كنسية عدة عرفت بالمجامع المسكونية لاتخاذ القرار النهائى بصدد هذه المشكلة . وانتهى الأمر بأن اتخذت الدولة مذهباً لها عُرف بالمذهب الملكانى ، واتخذت شعوب ا 'مبراطورية الشرقية مذهباً آخر عرف بالمذهب اليعقوبى . هذا فضلاً عن ظهور مذهب ثالث انتشر فى العراق والشام عُرف بالمذهب النسطورى . وبذلك وُجد شرخ كبير فاصل بين كنائس الشرق وكنائس الغرب ، مما أدى إلى انقسام الكنيسة والمسيحية إلى شقين : الشق الشرقى وتمثله كنيسة القسطنطينية ويرأسها بطريقها ، وهى التى تحولت ، فيما بعد ، إلى كنيسة الروم الأرثوذكس . والشطر الثانى ، وتمثله كنيسة القديس بطرس فى روما ويرأسها البابوات ، وهى التى تحولت ، فيما بعد ، إلى الكنيسة

الكاثوليكية . وبين الإثنين بدأت كنيسة الإسكندرية فى الاستقلال بشخصيتها وآرائها ، وهى التى تحولت ، فيما بعد ، إلى الكنيسة القبطية اليعقوبية . كما بدأت كنيسة أنطاكية السورية والعراقية فى الاستقلال بشخصيتها والتمسك بالمذهب النسطورى .

وقد رفضت الكنيسة الأرثوذكسية كل هذه الانقسامات ، وقامت الدولة باضطهاد من خالف مذهبها ، وتمسك أصحاب المذاهب المغايرة لمذهب الدولة الملكانى بمذاهبهم ، وباتت الامبراطورية فى فوضى دينية ، وظل المسيحيون فى المشرق والمغرب فى حيرة بين هذه المذاهب، دون الوصول إلى رأى نهائى ومعرفة المذهب الحق بينها .

ولم تكن المشكلة الدينية هى المشكلة الوحيدة التى عاشتها الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى ، فالحرب بينها وبين دولة الفرس كانت من المشاكل التى تؤرقها وتتعب اقتصادها وتشيع الاضطراب فى داخلها . وصارت الحروب بين الدولتين تقليداً موروثاً ، لا يتركه أحد الطرفين إلا مضطراً ، ولا تعقد هدنة بينهما إلا بدفع جزية كبيرة للطرف الغالب تغنيه عن المكاسب التى يأملها من وراء الحرب . ويدفعها المغلوب صاغراً بسبب الأحوال الحرجة التى يكون فيها ، آملاً تحسن موقفه واضطراب أمور خصمه فينتقم منه . فتاريخ الفرس والروم هو فى حقيقته تاريخ حروب ومهادنات عادت على بلاد الطرفين بأفدح الأضرار .

ولقد هاجم كسرى أنوشروان دولة الروم فى عهد جستنيان واكتسح بلاد الشام وبلغت جيوشه سواحل البحر المتوسط ، وبعد مفاوضات وبسبب ظروف جستنيان الصعبة آنذاك ، وافق الملك الفارسى على هدنة مع الروم لمدة خمس سنوات على أن يدفع الروم له جزية كبيرة .

ولقد وقعت أحداث هذه الحرب بين الفرس والروم ، فى وقت بعثة الرسول وهو لا يزال فى مكة ، قبل الهجرة ، يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد القهار . فلما جاء الخبر بظهور فارس على الروم ، فرح المشركون من أهل قريش لانتصار الفرس الوثنيين مثلهم على الروم من أهل الكتاب . فنزل قوله تعالى فى سورة الروم : ﴿ ألم غُلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

ولقد صدق تنبؤ القرآن الكريم بنصر الروم على الفرس بعد هزيمتهم منهم ، وقد جاء هذا النصر فى أعقاب الحرب التى وقعت بين الطرفين فى عهد الإمبراطور هرقل فى الفترة ما بين سنوات ٦٢٢ و ٦٢٨ ميلادية . فى هذه الفترة أحرز هرقل ثلاث انتصارات كبرى على الفرس ، انتهت بثورة على ملك الفرس كسرى أبرويز ومقتله على يد إبنه شيرويه بن كسرى . وفى هذه المعارك استعاد الروم جميع الأراضى التى كان الفرس قد غنموها منهم . وزاد هرقل على ذلك بأن قام بمهاجمة الفرس فى عقر دارهم فتقدم بجيشه سنة ٦٢٧ م ووصل إلى مدينة نينوى ، القريبة من الموصل ، وهناك هزمَ الجيش الفارسى هزيمة كبرى واضطر شيرويه إلى طلب الصلح وعقد صلح مذل مع الروم سنة ٦٢٨ م .

وكان هذا الصلح الأخير بين الفرس والروم نهاية مطاف الحروب الطويلة بين القوتين العظميتين آنذاك ، وقد أضعفت هذه الحروب كليهما وأنهكت قواهما . ولم تكن أى من الامبراطوريتين يعلم ما كانت تخبئه الأيام لهما ، وما كانت عناية الله تعده داخل جزيرة العرب . ولقد سُر المسلمون وهم بالمدينة بانتصار الروم على الفرس ، وبتحقيق وعد الله فى كتابه الكريم ، وتفاءلوا بذلك فى قرب مجىء اليوم الذى ينتصر فيه المسلمون على المشركين ، وقويت عزيمتهم فى التغلب على قريش وأسلم آنذاك خلق كثير وانحطت معنويات

قريش . وشاء الله تعالى ألا يكون النصر فى هذه المرة لا للروم ولا للفرس ، فقد كان الكاسب فى حروبهما مثله مثل الخاسر لشدة الخسارة التى وقعت بين الطرفين . فكان النصر للمسلمين الذين نجحوا بعد سنين قليلة فى ابتلاع مستعمرات الفرس فى الشام ومصر وابتلاع دولة فارس كلها ، ليكوّن الجميع أجزاءاً من دولة الإسلام الكبرى التى تكونت فى عهد الراشدين بعد أن وضع بذرتها الأولى رسول الله الكريم .

وعند ظهور الإسلام كانت اليمن ، كما رأينا ، تحت حكم الفرس الساسانيين ، غير أن حكمهم فى الواقع لم يكن حكماً تاماً فعلياً ، بل كان حكماً إسمياً محصوراً فى صنعاء وما والاها . أما الأطراف والمدن الأخرى فكان الحكم فيها لسادات اليمن من أصحاب الجاه والنفوذ . وقد حمل بعضهم لقب الملك افتخاراً واعتزازاً ، لكنهم لم يكونوا ملوكاً بالمعنى المفهوم للكلمة . ولقد وصفت كتب السيرة سادات اليمن ورؤسائها بملوك حمير ، وذكرت أنهم أرسلوا إلى الرسول رسولاً يحمل إليه كتاباً منهم يخبرونه فيه بإسلامهم .

وقد كان الفرس الذين أقاموا باليمن مثل سائر الفرس على المجوسية ، ولمّا دخل أهل اليمن فى الإسلام دخل بعض هؤلاء فيه ، وأقام البعض الآخر على دينه وارتضى أن يدفع الجزية للنبى . ولقد دخل جيل الأبناء فى اليمن فى الإسلام ، وهو الجيل الجديد الذى ظهر فى اليمن من تزاوج الفرس مع اليمانيين ، وقد كان لهم فى اليمن نفوذ كبير .

ولقد انضم بعض سادات اليمن من الأسر القديمة ، إلى الأسود العنسى فى ردته ، كراهية منهم لجيل الأبناء ، وقد كان الأسود العنسى يكره الأبناء ويحقد عليهم ويعتقد فى أنهم عصابة دخيلة استأثرت بحكم اليمن يجب القضاء عليها . وقد شاء الله أن تكون نهايته على أيديهم إذ كان قاتله منهم .

وكانت الأزد من القبائل المعروفة فى اليمن ، وقد دخلت الإسلام ، وجاء وفد منهم إلى الرسول على رأسه : صرد بن عبد الله ، يعلن له إسلام الأزد ، فباركهم النبى وأمرهم أن يجاهدوا المشركين من قبائل اليمن .

وقد كانت فى اليمن قبائل خثعم ، ومذحج ، ومراد ، وهمدان ، وبنو كنانة ، وعك ، وحمير ، وكلها دخلت فى الإسلام . وبقيت همدان قبيلة قوية من قبائل اليمن ، وقد أسلمت كلها فى يوم واحد ، وهو يوم مقدم على بن أبى طالب إلى اليمن على رأس سرية أرسلها رسول الله إلى اليمن ، فأسلمت ، وتتابع أهل اليمن بعدها على الدخول فى الإسلام .

وأرسل الرسول خالداً بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا على النصرانية ، فأسلموا .

أما أهل نجران ، فلم تدخل فى طاعة الفرس حين استولوا على اليمن ولم تخضع لحكم عاملهم ، بل أخذت تدير شئونها بنفسها ، وقد قدموا على الرسول وأعلنوا إسلامهم ، فكتب لهم الرسول كتاب صلح سنة عشرة للهجرة . ولمّا ظهر الإسلام بينهم كان الحكم فيهم لبنى الحارث بن كعب .

وقدم جرير بن عبد الله البجلى سنة عشرة المدينة على رأس وفد من قومه بجيله فأسلموا وبايعوا الرسول . كذلك جاء الرسول وفد من خثعم وبايعوا وكتب لهم النبى كتاباً .

وقد أرسل الرسول عمرو بن العاص إلى جيفر بن الجلندى وأخيه عباد بن الجلندى الأزديين ، وهما أصحاب عُمان يدعوهما إلى الإسلام فأسلما وجميع قومهما . ولقد جاء وفد البحرين من بنى عبد القيس إلى الرسول وأعلن إسلامه ، وكان الرسول قد أرسل العلاء بن الحضرمى سنة ثمان قبل فتح مكة ،

إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين يدعوه إلى الإسلام فأسلم . ولكن المنذر توفى بعد ذلك بشهر واحد ، فاجتمعت ربيعة بالبحرين وارتدت وملكوا عليهم المنذر بن النعمان ، المعروف بالمغرور ، فأتاها العلاء ففتحها وقتل المنذر ومن معه .

وأما هجر فكان عليها عند ظهور الفرس مرزبان فارس يُدعى (سيبخت) ، وإليه ذهب أيضاً العلاء بن الحضرمى يدعوه للإسلام فأسلم وأسلم معه جميع من فى هجر من العرب . أما اليهود والنصارى والمجوس فصالحوا العلاء على الجزية .

أما اليمامة ، من الشرق من الحجاز والغرب من البحرين ، وهى من الأماكن الخصبة فى جزيرة العرب ، وبها وادى حنيفة الذى يُنسب إلى بنى حنيفة الذين سكنوه ، فقد وفد منهم وفد إلى الرسول فيهم مسيلمة بن حبيب الذى عُرف بمسيلمة الكذاب لادعائه النبوة ، وكان قد طلب من النبى أن يشركه معه فى الأمر وادعى النبوة ، ثم قُتل . وذُكر أن سجاح بنت أوس التميمية التى تكهنت وادعت النبوة جاءت مسيلمة الكذاب وهو بحجر فتزوجته وجعلت دينها ودينه واحداً ، وكان قد اتبعها قوم من بنى تميم وقوم من أخوالها من بنى تغلب . ومن قبائل اليمامة : بنو باهلة ، وبنو نمير ، وأحياء من تميم ، وقد استقرت بطون من بكر وعنزه وضبيعة فى القسم الشرقى من اليمامة حتى البحرين .

وقبيلة طيء من القبائل الكبيرة فى جزيرة العرب ، وكان لها شأن كبير قبل الإسلام ، وكانت منازلها ، عند ظهور الإسلام ، عند جبلى طيء : أجأ وسلمى . وكان سيد طيء فى أيام الرسول : زيد الخيل بن مهلهل الطائى ، وهو ممن قدم على الرسول فى وفد طيء حين جاءت تعلن إسلامها ، وقد أبدل الرسول إسم زيد الخيل بزيد الخير لزائد كرمه ومروءته ومن طيء : حاتم الطائى ، وهو الرجل الذى ضُرب بجوده المثل حتى اليوم ، وكان والده رئيساً على طيء ، وقد تُوفى

قبل الإسلام ، وانتقلت رئاسة طيء منه إلى ابنه حاتم الطائى ، وكان على النصرانية ، لكنه أسلم ولحق بالمدينة وأكرمه الرسول وعينه على صدقة طيء وأسد .

وتقع إلى الشرق من ديار طيء منازل بنى أسد ، وإلى الشمال من ديار بنى أسد منازل بكر ، وإلى الجنوب من ديار أسد ديار هوازن وغطفان . وتتاخم ديار أسد من الشرق قبائل عبد القيس وتميم .

وكان وفد أسد ضمن الوفود التى وفدت لمبايعة رسول الله فى المدينة سنة تسع للهجرة ، وقد كتب لهم رسول الله كتاباً .

وكانت دومة الجندل عند ظهور الإسلام فى ملك : أكيدر بن عبد الملك الكندى السكونى ، وكان على المسيحية . وكان رسول الله قد غزى دومة الجندل بنفسه ، وذلك فى شهر ربيع الأول من السنة الخامسة من الهجرة ، وبلغها ، ولم يلق كيداً لفرار أهلها وتركهم قريتهم . وقد أرسل الرسول بعد ذلك خالد بن الوليد ليفتحها ففتحها وأسر الأكيدر وجاء به خالد إلى المدينة ، فعرض عليه الرسول الإسلام فأسلم وكتب له كتاباً . وكان معظم أهل دومة الجندل من بنى كنانة من قبيلة كلب .

أما الغساسنة ، فقد ورد فى الأخبار أن الرسول أرسل إلى مليكها : الحارث إبن أبى شمر الغسانى يدعوه للإسلام ، وكان يسكن غوطة دمشق لكنه لم يسلم ومات على النصرانية . ولما ذهب المسلمون لفتح الشام بقيادة خالد بن الوليد ، كان آخر حكام الغساسنة : جبلة بن الأيهم ، يحارب مع الروم ضد المسلمين ، وقد انهزم وقتل مع من قتل من العرب المتنصرة أثناء فتح المسلمين لمدينة قنسرين .

ولقد جاءت وفود جذام ، وعذرة ، وكلب ، وغطفان ، وعبس ، وهوازن ، وفزارة ، وبنى سليم ، وجهينة لمبايعة رسول الله والدخول فى الإسلام فى عام الوفود .

على هذا النحو كان الوضع السياسى فى جزيرة العرب عند ظهور الإسلام وفى أوائل أيامه : قوى مستقلة تخشى القبائل العربية المحيطة بها ، وأذواء وأقيال من اليمن وحضرموت ، ورؤساء قبائل لهم السيادة والنفوذ على رجال قبائلهم . وقد كانت معظم هذه القبائل فى خصومة وقتال مع بعضها البعض ، ولم تتركهم هذه الخصومة من الانصراف لإصلاح حال رعيتهم . فتدهورت أحوال هذه القبائل وساد أهلها القلق والضياع . وظهر آنذاك أفراد ينادون بالإصلاح وبإحكام العقل فى جميع الأمور والكف عن سفك الدماء . وقد جاء المبشرون النصارى يدعون الناس لدينهم ويعملون على نشر المسيحية بين القبائل ، فى الوقت الذى نادى فيه الأحناف بنبذ الوثنية وعبادة الأصنام والعودة إلى ملة أبيهم إبراهيم . وكان الجميع حيارى وفى ضلال وكادت سفينتهم تبتلعها الأمواج ، لولا أن ظهر الربان والحادى والمنقذ والبشير والنذير محمد رسول الله . الذى جاء برسالة التوحيد جاء بالإسلام ، ولم يكن الإسلام على الناس بدين جديد ، بل هو رسالة الله الخالدة التى بعث بها رسله وأنبياءه إلى عباده على الأرض منذ بداية الحياة . وما كان محمد إلا خاتم الأنبياء والرسل الذين دعوا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد خالق هذا الكون وواهب الحياة ، وإلى اتباع الدين الحق وهو الإسلام ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ . وما كانت رسالة محمد إلا نفس رسالة إخوته الأنبياء والرسل ، وقد جاءت ناسخة لما قبلها مهيمنة عليها جامعة فى الدعوة إلى الله إلى يوم قيام الساعة والحساب . جاء محمد مؤكداً وحدة رسالة الله إلى العالم منذ خلق الأرض إلى أن تقوم الساعة ، وقد

قال الله تعالى فى ذلك : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ .

ولقد شهدت مكة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى حدثاً هاماً ارتجت له الجزيرة العربية كلها بل ارتج له العالم كله ، وكان له الأثر الكبير فى تغير تاريخ شبه جزيرة العرب وتحويلها من مجرد بلاد صحراوية يرتع فيها الرعاة بحثاً عن الكلأ والماء ، إلى بلاد حضارية تسود الدنيا وتقودها بعد أن تفجرت من أرضها ينابيع الهداية وبعد أن تنزلت فيها آخر رسالات السماء إلى الأرض بمولد محمد رسول الله ونشأته والإعداد الربانى له ليتحول من راعى غنم إلى راعى بشر وليقود العرب ليسودوا الدنيا ويحكموا العالم ويرفعوا راية لا إله إلا الله خفاقة فى كل الأنحاء . ولقد أوجد محمد لجزيرة العرب وجهاً جديداً من وجوه الحياة ، لم تعشه طوال حياتها ولم تكن تحلم به . أوجد لها السيادة والغنى والعز فى الدنيا وفى الآخرة وأزال ما كان قد علق بجسدها من أدران الجاهلية وأمراضها ، وأعادها إلى ملة أبيها إبراهيم وعبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد ووضع لها بذرة الدولة الموحدة القوية التى سرعان ما اتسعت بفضل الإيمان بالله لتضم إلى جنباتها معظم بلاد العالم القديم ولتمتد من المحيط الأطلسى إلى حدود الصين . وقد خرج المؤمنون الأولون منها بالله وبرسوله إلى خارج جزيرة العرب يحكمون باسم الإسلام ويدوخون أعظم الدول ويوقعون بهم أشد الهزائم وأقوى الضربات ، كل ذلك فى مدة لا تعد طويلة بالنسبة إلى الحياة الطويلة وأحداثها التى عاشتها ووقعت بها قبل الإسلام . فالإسلام إذن نهاية حياة قديمة وبداية حياة جديدة يختلف واقع وشكل الثانية عن الأولى كل الاختلاف ، اختلاف إلى الأحسن وإلى الأعظم وإلى الأكرم ، وقد كان كل ذلك بفضل محمد رسول الله خير من ولدته النساء والمحمود فى الأرض وفى السماء .

وُلد محمد ﷺ فى عام الفيل ، يوم الإثنين الثانى عشرة من شهر ربيع الأول

(٢٠ أبريل ٥٧١ م) ، وهو عام الفيل ، بالدار التى فى زقاق (المدكك) بشعب بنى هاشم من الطرف الشرقى لمكة . وكانت قابلته عليه السلام ، (الشفاء) ، أم عبد الرحمن بن عوف ، وكانت حاضنته أمة أبيه (أم أيمن) ، وأول من أرضعه (ثويبة) مولاة عمه عبد العزى بن عبد المطلب المعروف بأبى لهب ، بلبن إبن لها يقال له (مسروح) أياماً ، قبل أن تقدم حليمة بنت أبى ذؤيب ، من بنى سعد لترضعه . وقد أرضعت ثويبه مع رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب وأبا سلمة بن عبد الأسد ، فكانا أخواه من الرضاعة .

ولقد كان عبد المطلب جد الرسول ، سيد قريش ورئيس رؤساء مكة آنذاك ، وكان له فراش عند الكعبة ، ولمّا بشر بمولده فرح أشد الفرح لأنه كان يحب والده عبد الله حباً يفوق حبه لسائر إخوته ، وكان قد حزن لوفاته شاباً فى مقتبل العمر . ومن هنا كانت فرحة الجد بمولد الحفيد الحبيب إبن الأب الراحل الغالى ، وقد قام عبد المطلب بحمل محمد ، بعد ولادته ، وأخذه من أمه (آمنة بنت وهب) ودخل به الكعبة وسماه محمداً . وفى اليوم السابع من مولده ختنه جده ، وذبح عقيقتين له وأولم وليمة كبرى بتلك المناسبة السعيدة دعا إليها أعيان قريش وسادتها . وقد تعلق عبد المطلب بحفيده كثيراً ، وكان يجلسه معه دون سائر أبنائه أو أحفاده على فراشه فى ظل الكعبة ، وقد توسم الجد فى الحفيد خيراً خاصة بعد ما رأى وسمع من بشارات طيبة صاحبت مولد هذا الصغير تنبئ بأنه سوف يكون له مستقبل عظيم .

ولم يعرف الكثير عن طفولة محمد ، ذلك لأن العظماء لا يؤرخ لهم إلا بعد أن تتحقق عظمتهم ، وبعد أن تلفت هذه العظمة نظر الناس إليها ، خاصة وأن التدوين فى مكة كان قليلاً آنذاك واعتماد العربى كان على الحفظ فقط وما تعيه الذاكرة . وكتب السيرة لم تبدأ فى تسجيل سيرة رسول الله إلا فى القرن الثانى الهجرى ، لذا ضاع الكثير للأسف من المعرفة عن طفولة رسول الله وشبابه

مما كان سيعطينا معلومات هامة عن واقع مكة قبيل الإسلام مباشرة وخلال حياة الرسول قبل البعثة لو كان قد سُجل . لكن ، رغم ذلك ، فإنه من القليل الذى ورد عن تفاصيل هذه الحياة الثرية لخير خلق الله مما تردد فى كتب السيرة والأخبار ، نقول أن الرسول نشأ فى قبيلة قريش التى كان لها السيادة والشرف فى مكة ، وفى بيت من أفضل بيوتها وأحسنها سيرة وأكثرها مكانة وعزاً ورفعة . نشأ يتيماً ، فلم يعرف الأب ولم يحظ طويلاً بحنان الأم .

وكعادة القرشيين ، كان لمحمد من يرضعه وهو طفل ، وقد كان من عادة هذه القبيلة أن ترسل أطفالها إلى البادية ليرضعوا هناك ليكسبوا بذلك الصحة والعافية بفعل هواء الصحراء الصحى والنقى ، وليرضعوا أيضاً اللغة العربية السليمة من عرب البادية وتتعود ألسنتهم ، منذ أن تبدأ النطق ، على النطق العربى السليم . ولقد ألتمس لمحمد المراضع من البادية. فأرضعته حليمة السعدية من بنى سعد ، وهم فرع من قبيلة هوازن الكبرى . وكانت حليمة قد جاءت إلى مكة ، ضمن عشرة نسوة من بنى سعد يلتمسن الأطفال أبناء الأثرياء وعلية القوم فى مكة ليرضعنهن ويقوموا عندهن مدة الرضاع ويتكسبن من وراء هذا العمل . فأخذت كل مرضعة منهن طفلاً ولم يتبق لحليمة إلا محمد الطفل اليتيم . ولقد تأثرت حليمة ورق قلبها لهذا الطفل وقد وقفت به أمه منكسرة الخاطر مع جاريتها . فأخذته حليمة لترضعه وطمعت فى أن ينفعها الله ببركته ، وعادت به مع زوجها لترضعه فى مضارب بنى سعد وليعيش أيامه الأولى فى هذه الحياة مع أبناء حليمة : عبد الله وأنيسة وخزامة (الشيماء) التى تولت حضانته مع أمها طيلة مكوثه عندهم .

وظل الرسول فى بيت حليمة حتى سن الرابعة ، ثم أعادته إلى أمه خوفاً على حياته ، فلزمها ، ولكنه لم ينعم بحنانها سوى عامين ، فقد فارقته إلى الرفيق الأعلى ، وهو فى السادسة ، وهى دون العشرين . وقد ماتت الأم بمنطقة

الأبواء ، شمال شرقى رابغ بين مكة والمدينة ، على أثر حمى أصابتها وهى فى طريق عودتها من يثرب بعد زيارة قامت بها ، والرسول الذى اصطحبته معها ، لقومها من بنى النجار . وشاءت إرادة الله أن يواجه الطفل محمد الحياة وهو يتيم الأبوين ، وصارت كفالته فى كنف جده عبد المطلب الذى كان قد شاخ آنذاك وتعدى الثمانين . ولقد حرم محمد من حنان جده بوفاته بعد عامين من وفاة أمه ، فكفله عمه أبو طالب (عبد مناف) الشقيق لوالده عبد الله .

وكانت رئاسة قريش قد آلت لأبى طالب بعد وفاة والده عبد المطلب ، لكونه أكبر إخوته . وكان أبو طالب قليل المال كثير العيال ، وقد عانى كثيراً فى تدبير الرفادة والسقاية للحجيج ، وكانت من مهام الرئاسة على قريش وعلى مكة . وقد لحظ محمد معاناة عمه ، فطلب منه بعد أن صار فى سن الصبا أن يرعى له غنمه ، فرعاها . ثم طلب منه بعد ذلك ، أن يخرج معه فى تجارته إلى الشام فى رحلة الإيلاف الصيفية ، فوافقه على ذلك ، وخرج معه فى إحدى هذه الرحلات وهو فى سن الثانية عشرة . وكانت رحلة الإيلاف تنتهى عند مدينة بصرى من بلاد إقليم حوران بالشام ، التى تقع على أول الطريق التجارى القادم من الحجاز عند ملتقى خمسة طرق تجارية هامة . وكانت هذه الرحلة فرصة لمحمد يتعرف فيها على العالم خارج الحجاز ، ويرى فى بصرى،وقد كانت من أهم مراكز المسيحية اليعقوبية فى الشام،كنائس النصارى ومدى معرفة أهل الشام بالله بعد أن عرف من قومه معرفتهم له بواسطة الأصنام . كذلك تلمس أخبار دولة الغساسنة وهى تعيش صراعها مع المناذرة ومشاكلها مع حلفائهم الروم أنفسهم . وكانت رحلة محمد إلى الشام فرصة طيبة فتحت عينيه ومداركه على أشياء جديدة ومتغيرة عما كان يراه فى بلدته مكة .

وعاش محمد فترة صباه وفتوته مثالاً للشاب النظيف الكريم الأخلاق والمحمود السيرة ، وقد شب وعين الله تكلأه وتحفظه وتصونه من أقذار الجاهلية

لما يريد به من كرامته ورسالته . وصار أفضل شباب قومه مروءة وأحسنهم سلوكاً وأطيبهم جواراً وأعظمهم خلماً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة وأبعدهم عن الفحش والفساد الذى كان سائداً فى مجتمعه آنذاك حتى سماه قومه بالصادق الأمين ، وهما صفتان جمع محمد فيهما محاسن الخصال ومكارم الأخلاق .

نشأ محمد بين قومه فكان صادقاً لم يجرب عليه كذب قط ، وأمينا لم تعرف الخيانة أو الغدر إليه طريقاً أبداً . وقد كان مميزاً عن غيره لا يجهل ذلك أحد ولا يساويه فى ذلك رجل ، ولا ينكر ذلك عدو عليه ولا يتهمه خصم . فكيف لا يكون محمد كذلك وقد صُنع علـى عين الله وأدّبه ربه فأحسن تأديبه . ولمّا بُعث محمد عليه السلام وناصبه قومه العداء لم يستطع واحد منهم أن يتهمه فى خلقه أو أن يعيب عليه سلوكه ، ولو عرفوا عنه شيئاً من ذلك وقد عاش بينهم قبل البعثة أربعين عاماً ، لتصيدوا له أى عيب ولأراحهم ذلك عن التنقيب عن خصلة غير حميدة يلصقونها به حين يحل الموسم ويلتقى الناس فى الحج أو فى سوق عكاظ فيسمونه أمامهم . لكنهم فتشوا فلم يجدوا فى حياة محمد إلا النظافة والطهارة والسمو والنبل والعفة والمروءة . فعجزوا ولم يتهموه إلا بقولهم أنه ساحر فرّق بدعوته بين الأب وابنه والرجل وزوجه والأخ وأخيه . وعندما أراد بعضهم أن يصمه بالكذب قالوا جميعاً : « حاشا لله إنه الصادق الأمين وإنا ما جربنا عليه كذباً قط » .

لم يشارك محمد شباب مكة ، فى شبابه ، فى لهوهم ولعبهم وإقبالهم على الحياة ، وقد كان ذلك أمراً ميسراً لشباب مكة آنذاك الذى كان يعيش فى مجتمع كثر فيه الفساد وأُحلت فيه الموبقات والمنكرات ، وكانوا يتباهون بمنادمة الخمر ومصادقة العاهرات وإدمان الحياة فى بيوت اللهو والغناء ، وكانوا يعتبرون ذلك من الرجولة وقد وافقهم على ذلك الآباء . وكان محمد يؤثر الوحدة

والخلوة مع نفسه والتأمل وإمعان النظر إلى السماء ، وكان يبحث عن شيء وينتظر جواب السماء : كانت فطرته تأبى عليه أن يكون مثل أقرانه وكان إعداده الربانى ليكون خليل الرحمن يمنعه من التهافت على الدنيا والمشاركة فى الاغتراف من لذائذ الحياة والانخراط فى مادياتها .

ولم يكن معنى ذلك أن محمداً كان منفصلاً عن أحداث مجتمعه آنذاك ، فلقد شارك فى أحداث مجتمعه ، فشارك فى حلف الفضول وفى حرب الفجار . ولقد فرح محمد بحضوره حلف الفضول لما فى هذا الحلف من عمل طيب استهدف نصرة المظلوم على الظالم ، وقد كان ذلك هدفاً سامياً ، وكانت نفس رسول الله وراء كل هدف سامٍ . كذلك شارك محمد فى حرب الفجار ، وهى الفجار الأخيرة ، وقد كان فى سن العشرين ، وكانت هذه الحرب بين حلف قريش وكنانة ضد حلف هوازن من قيس عيلان . وكان دور محمد فى هذه الحرب ، هو جمع السهام التى كانت تسقط من هوازن عند قومه ويدفع بها إلى أعمامه الزبير وأبى طالب وحمزة والعباس ليردوها إلى صدور خصومهم كذلك حسم محمد الخلاف الذى وقع بين القبائل وكاد أن يؤدى إلى الحرب بينهم حين احتكموا إليه فى وضع الحجر الأسود عند إعادة بناء الكعبة .

ولقد دفعت الصفات الطيبة والأخلاق الفاضلة التى تميز محمد بها ، السيدة خديجة بنت خويلد ، وهى من شرفاء العرب ، أن تعرض عليه الخروج مع غلام لها يُدعى ميسرة ، فى تجارة لها إلى الشام ، وكانت عادة الأشراف أن يرسلوا عنهم من يتاجر لهم فى رحلة الإيلاف فى حالة تعذر قيامهم أنفسهم بهذا العمل . وكانوا فى العادة يتخيرون النشطين الأمناء ، ولم يكن هنالك من هو أكثر الناس أمانة فى مكة من محمد حتى تختاره وكيلاً لها فى تجارتها . وقد انتهى هذا العمل التجارى بزواج محمد من خديجة .

تزوج محمد من خديجة بنت خويلد بن أسد ، وهى من شريفات قريش من بنى أسد ترملت وهى صغيرة السن ، ومات عنها زوجها أبو هالة ، هند بن زرارة ، وكانت قد أنجبت منه إبنتها هالة ، ختن رسول الله . وكانت خديجة عازفة عن الزواج حتى بلغت سن الأربعين ، وقد أعجبت بشخص محمد لما سمعته عن أخلاقه ومكارمه وقد تأكد لها ذلك من حديث خادمها ميسرة ، وعن ذكره للخير والبركة وحسن الصحبة وهى أمور لمسها مع محمد أثناء رحلته معه . فأرسلت خديجة إلى محمد تخطبه لنفسها ، وقد كان ذلك من عادة الشريفات من نساء مكة يخطبن لأنفسهن من يجدن فيه الشرف لهن . وكان محمد آنذاك فى سن الخامسة والعشرين ، وكان راغباً فى الزواج ، فوافق على طلبها واستأذن أعمامه فى ذلك وطلب منهم أن يخطبوها له . فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على أهلها فخطبها له من عمها عمرو بن أسد ، وقد كان ولى أمرها بعد وفاة والدها فى حرب الفجار . فتزوجها رسول الله بعد أن أمهرها بعشرين ناقة بكرة ، وبذلك كانت خديجة أول زوجات رسول الله عاشت معه دون أن يتزوج عليها إلى أن ماتت وهى عنده وهى فى سن الخامسة والستين فى العام العاشر بعد البعثة ، المعروف بعام الحزن ، وقبل الهجرة إلى المدينة بعامين .

وقد أنجب الرسول من خديجة كل أبنائه ما عدا إبنه إبراهيم ، الذى أنجبه من جاريته المصرية ماريا القبطية . وكان أبناء الرسول من خديجة ولدان وأربعة بنات . أما الولدان فهما : القاسم ، وقد وُلد قبل البعثة بثلاثة أعوام ، وقد كُنى به رسول الله فعُرف بأبى القاسم ، وقد مات بعد سنتين من مولده . أما الإبن الثانى فهو : عبد الله ، وقد لُقب بالطيب وبالطاهر ، وقد تُوفى وهو أيضاً إبن عامين بعد البعثة بعامين . أما البنات فهن : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . وكانت زينب إبنته الكبرى ، وقد تزوجت ، قبل البعثة ، من إبن خالتها أبى العاص بن

الربيع ، وقد تُوفيت فى العام الثامن للهجرة . ورقية ، هى الإبنة الثانية وُلدت قبل البعثة ، وتزوجت ، قبل البعثة أيضاً ، من عتبة بن أبى لهب ، ثم طُلقت منه حين بُعث رسول الله لاستمرار عتبة على الكفر ، وتزوجت من بعده من عثمان إبن عفان ، وهاجرت معه إلى الحبشة وتوفيت فى المدينة غداة رجوع رسول الله منتصراً من غزوة بدر سنة ٢ للهجرة . وأم كلثوم هى الإبنة الثالثة فى الترتيب من بين بنات رسول الله ، تزوجت ، قبل البعثة ، من عتيبة بن أبى لهب ، ثم فارقته لعدم إسلامه ، وهاجرت إلى المدينة وتزوجت من عثمان بن عفان بعد وفاة أختها رقيــة . وظلت أم كلثوم مع عثمان حتى توفيت عنه فى العام التاسع للهجرة . أما فاطمة ، فهى صغرى بنات محمد ، ولُدت فى العام الخامس قبل البعثة ، وتزوجت من على بن أبى طالب فى العام الثانى للهجرة ، وهى إبنة ثمانية عشر ربيعاً ، وأنجبت لعلى إبنيه الحسن والحسين ، وتُوفيت فى العام الحادى عشر للهجرة ، بعد وفاة والدها سيدنا رسول الله بستة أشهر .

ولقد عاش محمد مع زوجه خديجة عيشة زوجية هانئة وفرتها له الزوجة الصالحة المحبة . وقام بتربية بناته خير تربية وزوجهن من خيرة شباب قريش آنذاك . لقد عاشت خديجة مع محمد ثمانية وعشرين عاماً وفارقته وقد تخطى الخمسين ، لم يفكر فى الزواج من غيرها ، وكان ذلك فى مقدوره لو أراد ، ولكنها كانت له نعم الزوجة وكان لها خير الأزواج . ولم تسجل كتب السيرة أى خلاف وقع بين محمد وخديجة أو أى انحراف أو تغير عنها ، بل على العكس من ذلك كان دائم الذكر لها بكل خير بعد مماتها حتى أن زوجته الصغيرة المــدللة عائشة كانت تغار منها لكثرة مديحه لها وتذكره لأيامه الطيبة معها ، وإكرامه لكل قريب لها ولكل من يمت لها بصلة .

مضى العمر بمحمد ، وقد كان كل يوم يمر عليه يقربه من الحدث الأكبر الذى أعده الله له وأدخره للبشرية جمعاء وهو شرف النبوة . وكانت

شواهد النبوة قد بدت عليه من صغره ، وأول ما بدئ به رسول الله من النبوة الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤية فى منامه إلا جاءت كفلق الصبح . كذلك حبب الله إليه الخلوة والتفكر والتدبر . وتعودّ محمد على أن يرتقى جبلاً يقع على بُعد أميال قليلة شمال شرقى مكة يخلو بنفسه فى غار بداخله عُرف بغار حراء . وقد كان يتحنث فى هذا الغار فى شهر رمضان من كل عام مدة تتراوح ما بين العشرة أيام والشهر . وفى يوم من أيام هذا الشهر وهو يوم الإثنين السابع عشرة من شهر رمضان العام الثالث عشر قبل الهجرة (أول فبراير ٦١٠م) ، وكان محمد قد أتم الأربعين من عمره ، نزل عليه الوحى على يد جبريل وجاء التبليغ والتكليف الإلهى بالنبوة وبتبليغ الناس رسالة التوحيد كافةً وعامة .

ولقد استجاب محمد لأمر الله وقام بما كُلف به من أمر الدعوة ، وكان ذلك بداية الفترة الأولى منها التى دعى فيها إلى الإسلام أقرب الناس إليه . وكانت دعوتهم إليه فى بادئ الأمر سرية ، فاستجاب له عدداً من رجال قريش ومواليهم . وليس صحيحاً ما أشيع من أن معظم الذين استجابوا لدعوة محمد فى هذه الحقبة كانوا من العبيد ومن المستضعفين . فلقد استجاب لدعوته عدد من أشراف قريش وما من عشيرة إلا وقد استجاب بعض رجالاتها لدعوى الإسلام . وقد ظلت الدعوة سرية لمدة ثلاث سنوات ، ثم تحولت بعد ذلك إلى دعوة علنية . وقد كانت أول الأمر مقصورة على عشيرة النبى الأقربين ثم اتجهت إلى الناس كافة وعامة . وقد سايرت الرسالة فى ظروف الدعوة إليها ظروف التكوين العربى : فقد أمر النبى أول الأمر أن يدعو عشيرته الأقربين بحكم عصبية القرابة والرحم فمن الطبيعى أن يقف أقرباؤه ورحمه إلى جانبه ويكونون عوناً له وحماية فى وجه العصبيات الأخر . ثم يدعو بعد ذلك مكة ومن حولها ، وقد عنى القرآن بذلك قريش ومواليها وأتباعها وأحابيشها . فالانتقال من عصبية العشيرة إلى عصبية القبيلة أمر جرى عليه التكوين الاجتماعى عند العرب . وقد كان من

المنتظر أن تؤمن به العشيرة أولاً ثم القبيلة ، لكن الذى حدث مع محمد كان غير ذلك . فقد وقفت لعصبية الرحم وعصبية القبيلة فى طريقهما عصبية أخرى ، هى عصبية التقاليد والعادات القديمة ، وكان العرب ، فى ذلك الوقت ، يتعصبون تعصباً شديداً لموروث عاداتهم وتقاليد آبائهم وأجدادهم . فكانت هذه العصبيـة المقيتة للعادات والتقاليد حائلاً بين العرب وبين اتباع محمد . وحتى أهله الأقربين من بنى هاشم ، برغم وقوف بعضهم إلى جانبه وحمايته بدافع عصبية العشيرة ، إلا أنهم لم يؤمنوا به جميعهم ولم يتبعوا رسالته وغلبتهم فى ذلك عصبية التقاليد على أنفسهم .

كذلك فإن حرص قريش على مكان الزعامة بين العرب وعلى المكاسب التى كانت تتحصل عليها من رعاية الأصنام والأوثان عند البيت ، منعا قريشاً من اتباع الدين الجديد خوفاً على ضياع هذه الزعامة وتلك الثروة بسبب هذا التحول الدينى الجديد الذى جاء لهم بمعتقد نبذ كل معتقدات العربية الوثنية . وقد تركزت معارضة قريش فى رجال الملأ ، وتابعهم فى ذلك عامة الناس . ولقد كان زعماء مكة وأهل الملأ حريصين على مبدأ التناظر بينهم كزعماء ألا يسودهم أحد ويرون التكافؤ فيما بينهم . فالصفات العامة فى أحدهم من الممكن أن ينالها جميعهم ، أما أن يكون واحداً نبياً فهذا أمر ليس بمدرك لهم وعند ذلك تكتب لهذا النبى الزعامة عليهم بلا منازع ويرون أنفسهم مضطرين للخضوع لزعامته . ومن أجل ذلك عارض رجال الملأ الدعوة المحمدية ؛ برغم إيمان بعضهم بصدق رسالته وحقيق نبوته وتأكدهم من صدقه فى قوله وأمانته فى سلوكه وأخلاقياته .

ولكن رجال الملأ ، رغم مالهم من سلطة فى مكة ، إلا أنهم عجزوا فى أن يحجروا على أفكار الناس وحريتهم فى الاختيار ، ولم يستطيعوا أن يوصدوا بأيديهم القلوب التى فُتحت لرسالة محمد ولم يستطيعوا أن يحولوا بين الرسالة

المحمدية ودون وصولها إلى قلوب الناس . ولقد وجدت الأرواح الحيرى فى هذا الدين ضالتها ووجدت النفوس القلقة المعذبة فيه خلاصها . فآمن بمحمد بعض أهل مكة ممن سمت نفوسهم ونضج وعيهم ووعت عقولهم من أشراف مكـة وسادتها ، كما آمن به عدد من الرقيق والموالى رجالاً ونساءً وقد وجدوا فى مبادىء الرسالة الجديدة الخلاص لمشاكلهم والضمان لحريتهم والحفاظ على كرامتهم وآدميتهم .

ولم يحفل زعماء مكة كثيراً برسالة محمد ، فى أول الأمر ، واعتبروها أمراً عارضاً وفقاعة فى الهواء لا تلبث أن تتبدد ، واعتبروا محمداً واحداً من اولئك الأحناف ، المعروفين لهم ، والباحثين عن ملة إبراهيم أو واحداً من المتمردين على الوثنية المتأثر بالمسيحية أو اليهودية لا يلبث أن يخفت صوته ويجف حلقه ويضيع نداءه وسط ضجيج الحياة القائم فى مكة وما حولها والحياة التى تموج بحركة التجارة والمال وتغرق الناس فى الملذات والشهوات حتى الأذقان .

لكن الرسالة مضت قدماً تشق طريقها دون توقف ، وإن كان سيرها كان بطيئاً ، ووجدت قريش نفسها أمام خطب جسيم وأمام داعية حق وأمام جماعة آمنت به وبرسالته آخذة فى التكوين والنمو . وجدوا محمداً يدعو إلى دينه بكل حماس وإخلاص بالحسنى ويتلو عليهم كلاماً بليغاً لا هو بشعر الشعراء ولا هو بسجع الكهان ويدعو لإقامة مجتمع جديد على أنقاض مجتمعهم العفن ، على الطهر والعفة والخلق القويم . ووجدت قريش أن أتباع محمد كل يوم فى تزايد . وقد ظنوا فى أول الأمر ، أن محمداً سوف يلتزم فى دعوته بالدعوة لإلهه وحث الناس على الفضائل دون التعرض لآلهتهم وعبادتهم ، ولكنهم فوجئوا به يسب آلهتهم ويحقر من شأنها ويعلنها حرباً صريحة على كل الأصنام والأوثان وكل ما هو شرك بالله . ورأت قريش أن محمداً ، بفعله هذا ، إنما يهدم مكانتها بين العرب ؛ هذه المكانة والزعامة التى اكتسبتها بسبب رعايتها للوثنية ولعبادة ما حول

الكعبة وما بداخلها من أصنام وأوثان ، وبالتالى يزلزل مركزها الاقتصادى والمالى الذى حققته من زعامتها الروحية بين سائر عرب شبه الجزيرة . وكان لابد إذن من الصدام بين محمد وقريش ، لأن محمداً أصاب قريش فى مقتل ، كما يقولون ، وهى ترى مركزها الأدبى والمادى يتهدد على يد محمد ودعوته . فالمصلحة المادية كانت من أهم العوامل التى دفعت قريشاً إلى حرب محمد ، وكذلك الاستمساك بالقديم سبب آخر دعا قريشاً إلى المعارضة وأيدها فى ذلك الرأى العام الوثنى .

ولقد لقى النبى ومن آمن بدعوته عنتاً كبيراً وإيذاءً شديداً فى أنفسهم وفى أموالهم ، ودفع بعضهم حياته ثمناً لعقيدته . ولقد استخدمت قريش فى معارضتها لدعوة محمد أساليب مختلفة . وكلما كانت ترى أتباع محمد يزداد عددهم تزيد بدورها فى عنتها وفى تطرفها معهم ومعه ، حتى انتهى بها الأمر إلى التفكير فى قتل محمد نفسه والخلاص منه ومن دعوته .

فبدأت قريش تتدرج فى الاضطهاد ، وبدأت باضطهاد من أسلم من الموالى والمستضعفين ، وقد تحمل بعضهم ألواناً شديدة من القسوة والتعذيب فوق تحمل البشر . ولما كان رجال الملأ يدركون قيمة العصبية ويخشون خطرها لو تعرضوا لمحمد بالأذى ، فقد لجأوا إلى عمه أبى طالب ، سيد قومه آنذاك ، يطلبون منه أن يتدخل وأن يمنع إبن أخيه عن التعرض بالمهانة لآلهتهم وأصنامهم ، وقد شجعهم على ذلك ، أن هذا العم رغم رعايته لمحمد وحبه له ، كان على دينهم ولم يحد عنه باتباع دعوة إبن أخيه . وقد كان أبو طالب يعلم صدق محمد وصدق دعوته لكن المكابرة والتمسك بدين الآباء والأجداد والخوف من معايرة العرب له لو هو ترك عبادة آبائه وأجداده جعلوه لا يعتنق الإسلام ويموت وهو على الكفر . ويلاين أبو طالب قومه ويردهم بالحسنى لكنه لم يمنع محمداً من السير فى طريق دعوته . ويعود القوم إلى أبى طالب ويطلبون منه أن يخلى بينهم

وبين محمد ، ويعرضون عليه أن يعطوه رجلاً من خيرة أبنائهم يتبناه أبو طالب بدلاً من محمد ، على أن يسلم لهم محمداً ليقتلوه أو ينفوه خارج البلاد إذا هو عجز عن رده . فتعجب أبو طالب من عرضهم ورفضه . ولمّا لم تجد هذه السعاية مع أبى طالب لجأوا إلى التهديد والوعيد وأنذروه إما أن يكفه عنهم أو ينازلوه ، فيدعو العم إبن أخيه ويطلب منه أن يبق عليه وعلى نفسه وألا يحمله ما لا يطيق من عداوة القوم . لكن العم لمّا أدرك تصميم محمد ، أعجب بثباته وقوة عزيمته ، وطلب منه أن يمض فى دعوته ويعده بالاستمرار فى دعمه ومساندته مهما كلفه الأمر ..

وبعد أن فشل أسلوب قريش مع أبى طالب ، نهجت مع محمد نهجاً آخر وهو إغرائه بالمال وبالجاه والمكانة والرئاسة عليهم ، وسألوه إن كان يريد مالاً قدموا إليه كل أموالهم ، أو إذا كان يريد سلطاناً سودوه عليهم ، أو إذا كان ما يأتيه من الجن جاءوا له بمن يعالجه ، ولكنه لم يرد عليهم إلا بآيات من القرآن لم يفهموا معناها ولم تصل إلى قلوبهم . عندئذ لجأت قريش إلى الحرب الكلامية بقصد التشكيك فى دعوى الرسول ورسالته ، فاستعانوا بالنضر بن الحارث ، وكان على علم بثقافات الفرس القديمة ، فأخذ يتعقب مجالس محمد بمجالس له يروى فيها قصصاً كالذى يرويه القرآن وادعى على الناس أن محمداً ما يقول إلا أساطير الأولين . فتولى القرآن الرد عليه بقوله تعالى : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبتها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ . وقالوا ضمن هذه الحرب الكلامية أن محمداً أخذ قرآنه عن أحبار اليهود وعن بعض النصارى ، فرد عليهم الله بقوله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ . وتحدى محمد على لسان ربه أن يأتى أحد من الناس أو كل الناس جميعاً بمثل هذا القرآن ، ثم وصفهم بالعجز بقوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت

الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ .

ولما أعيت قريش الحيل مع محمد وصحبه لجأت إلى التعذيب الشديد للمسلمين دون هوادة حتى يخيفونهم ويجبروهم على الارتداد عن دينهم ، وحتى يمنعوا غير المسلمين من متابعة محمد أو التفكير فى الدخول فى دينه حتى لا يلقوا نفس المصير . وتواصت بطون قريش فيما بينها بتعذيب كل من أسلم منها ومن مواليها وعبيدها رجالاً ونساءً . وفى نفس الوقت تصدوا للقبائل الوافدة إلى مكة للتجارة وقاموا بدعاية واسعة ضد محمد ، واتهموه مرةً بالجنون ، ومرة أخرى بالسحر ، وأنه ساحر فرّق بسحره بين المرء وزوجه والأب وإبنه والأخ وأخيه .

ولما رأى محمد الأذى يشتد ويزداد على أصحابه ، سمح لمن أراد منهم الهجرة بالهجرة إلى الحبشة . ولقد هدف الرسول من هجرة المسلمين إلى الحبشة أن يجد المسلمون لهم مأوى هناك عند مليكها المسيحى الذى عُرف بالتسامح وحسن المعاملة للأغراب ، وبذلك يتقون العذاب والاضطهاد الذى شملتهم به قريش . إضافة إلى لفت الرسول لنظر قريش بأن عدوانها على المسلمين قد يضطرهم إلى الإلتجاء إلى قوة خارجية قد تتدخل لحمايتهم من أذى قريش فتتعرض بذلك مكة لغزو أجنبى وتتعرض مصالحها الاقتصادية للخطر والضرر . ولذلك فيكون من مصلحتها أن تهادن المسلمين وتكف يدها عن أذاهم .

وتمت الهجرة الأولى للمسلمين إلى الحبشة فى العام الخامس من البعثة (٦١٥ م) ، وكان عدد المهاجرين من المسلمين ثلاثة وثمانون رجلاً وثمانى عشرة امرأة بقيادة جعفر بن أبى طالب ، على فوجين متتابعين . ولقد قام

نجاشي الحبشة بإكرامهم في بلاده وأمنهم على حياتهم . وتخوفت قريش من هذه الهجرة الإسلامية إلى الحبشة وقدرت وخيم عواقبها عليهم ، فسارعت بإرسال وفد من عندها إلى النجاشي على رأسه عمرو بن العاص ولم يكن قد أسلم بعد ، يحملون الهدايا من جلود وغيرها له ولرجال كنيسته ويطلبون منه رد المهاجرين إلى مكة . لكن هذه البعثة فشلت في مهمتها بعد أن لم يقتنع النجاشي بدعاوى القرشيين . وبقى المسلمون المهاجرون في الحبشة ينعمون بالحرية وبرعاية النجاشي لهم ، حتى أرادوا العودة إلى مكة من أنفسهم . فعاد البعض قبل هجرة الرسول إلى المدينة ، وعاد البعض الآخر يوم فتح الرسول لخيبر.

وبعد ثلاثة أشهر من هجرة المسلمين إلى الحبشة ، في السنة السادسة للبعثة ، أعز الله الإسلام بدخول رجلين عظيمين من رجال قريش فيه ، وهما : حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ، وعمر بن الخطاب ، وقد اشتهر كل من الرجلين بالقوة والشجاعة والفروسية ، وكانا عوناً كبيراً آنذاك للإسلام وللمسلمين . وقد تبع إسلام حمزة وعمر إسلام كثير من رجالات قريش اقتداءً بهما .

ولمّا رأت قريش تزايد عدد المسلمين بعد إسلام عمر وحمزة ، وانتشار الإسلام في القبائل ، ووقوف بني هاشم وبني المطلب مع رسول الله ، برغم عدم دخول الكثيرين منهم في دعوته ، ولكنهم آزروه حمية وعصبية ، اجتمعوا وائتمروا على أن يكتبوا كتاباً بينهم يتعاقدون فيه على مقاطعة بني هاشم والمطلب فلا يزاوجوهم ولا يتزوجوا منهم ولا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئاً ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة حتى يسلموا إليهم محمداً يقتلونه . وكتبت قريش بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . وقد دعت قريش حلفاءهم الأحابيش من كنانه ليشتركوا معهم في هذه المقاطعة ، فتعاقدوا معهم على ما جاء في الصحيفة .

ولما فعلت قريش ذلك انقسم بنو عبد مناف ، قوم محمد ، إلى قسمين : القسم الأول وقد ضم بنى هاشم وبنى المطلب ، مسلمهم وكافرهم ، انحازوا إلى أبى طالب ، ودخلوا معه فى شعبه واجتمعوا إليه . وخرج من بنى هاشم إلى حلف قريش أبو لهب (عبد العزى بن عبد المطلب) عم الرسول وأشد أعدائه فظاهرهم عليه . والقسم الثانى من بنى عبد مناف ، وهم بنو نوفل وبنو عبد شمس فقد انحازوا إلى قريش . واستمرت مقاطعة الصحيفة لأكثر من عامين أجهد فيها بنو هاشم وبنو المطلب وتعرضوا لمجاعة شديدة بسبب قطع قريش الماء والزاد عنهم ، وكان لا يصلهم من الزاد إلا القليل فى السر من بعض المتعاطفين معهم . وقد أحكمت قريش عيونها حولهم حتى تضمن نجاح سلاح التجويع ضد الرسول وآل بيته ، وقد صبر الرسول وأهله على هذه المحنة حتى فرَّج الله عنهم كربة هذه المقاطعة حين أخذت الرأفة بعض رجال قريش ، بدافع رابطة القرابة والمصاهرة لبنى هاشم ، وقاموا بفك هذا الحصار الاقتصادى والاجتماعى الذى فرضته قريش على بنى هاشم والمطلب . وقد تم ذلك بعد عشرة أعوام من البعثة .

وبعد انتهاء المقاطعة بستة أشهر فقد الرسول عمه أبا طالب الذى وافاه الأجل فى منتصف شوال من العام العاشر من البعثة عن عمر يناهز الثمانين . وآلت زعامة بنى هاشم بعد موت أبى طالب إلى ألد أعدائه عمه أبى لهب ، وقد أدت زعامته لبنى هاشم إلى إضعاف تأييدهم للرسول وحمايتهم له وللدعوة . وبعد موت أبى طالب بخمسة وثلاثين يوماً ماتت خديجة زوجة رسول الله ، فاجتمع على محمد بذلك فى هذا العام حزنان ، لذلك عُرف العام العاشر من البعثة عند المسلمين بعام الحزن .

فكر رسول الله ، بعد أن أدرك أن سنوات جهاده فى مكة لم تؤت الثمرة

التى كان يرجوها بسبب عناد قريش وإصرارها على الكفر وعبادة الأصنام من دون الله ، فكر فى أن يجرب الدعوة فى مدينة الطائف ، توأم مكة ، لعله يجد النصرة من أهلها من قبيلة ثقيف بعد أن لم يجد النصرة من قبيلته قريش فى مكة . فارتحل إلى الطائف ، ومعه مولاه زيد بن حارثة ، يلتمس النصرة من ثقيف ، ولكنه لم يجد من أهل الطائف إلا صدوداً وعدم الاستجابة إلى دعوته ، وأجبروه على مغادرة بلدهم بعد أن أغروا به سفهاءهم وعبيدهم فرموه بالحجارة التى أصابت قدميه حتى سال الدم منهما . ففر منهم إلى حائط بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة فاحتمى وزيد به . وهنالك رفع محمد رأسه إلى السماء ضارعاً إلى الله تعالى فى شكاية وألم خوفاً من أن يكون ما قد حل به بسبب غضب ربه عليه فقال كلماته الخالدة يطلب النصرة من ربه :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وهكذا تضافر أهل الطائف مع أهل مكة فى رفض دعوى محمد ، ولم يعطوا أنفسهم الفرصة لسماعه ، وردوه عن بلدتهم إلى مكة التى لم يستطع دخولها إلا بعد أن أجاره المطعم بن عدى زعيم بنى نوفل من قريش ، فدخلها فى حمايته وحماية أولاده .

لم ييأس رسول الله من نصر الله له ، بعد تجربة الطائف ، وواصل عرض نفسه على القبائل البدوية التى كانت تفد إلى مكة . وظل يوافى المواسم كل عام

يتبع الحاج فى منازلهم وفى أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز يعرض عليهم الدخول فى الإسلام . فأتى كندة فى منازلهم فأبوا عليه ، وعرض نفسه على بطن من كلب فلم يستجيبوا له . وأتى بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم إلى الله فلم يكن أحد أقبح عليه رداً منهم ، وعرض نفسه على بنى عامر فأبوا ، وكانت هذه القبائل تتزرع فى رفضها بعدم اتباع قومه له وهم يعلمون عنه أكثر مما يعلمون فكيف يتبعونه ؟ وقد حاولت بعض القبائل أن تساومه على أن تكون السيادة لها على العرب إن هو انتصر بهم ، ولكنه لم يستجب لمساومتهم ، فانصرفوا عنه وانصرف عنهم بعد أن اقتنع بعدم اقتناعهم بدعوته . وكانت القبائل تخشى قريش وتعمل حساباً لها ، وكانت تخاف على مصالحها لو هى عادت قريشاً .

وأخيراً وجد الرسول ضالته المنشودة فى قبيلتى الأوس والخزرج اليثربيتين ، وكانت القبيلتان فى حرب دائمة بينهما يؤجج نارها اليهود الذين يسكنون معهم . وقد سئمت القبيلتان الحرب واتفقا على إقامة حكومة منهم فى يثرب يكون رئيسها عبد الله بن أبىّ بن أبى سلول الخزرجى حتى تستطيع القبيلتان الاتحاد فى جبهة موحدة ضد الخطر اليهودى المشترك عليهما . فلما قدم بعض الأوس إلى مكة للحج أو للظفر بمحالفة قريش ضد الخزرج وضد اليهود ، دعاهم الرسول إلى الإسلام فاستجابوا له وعادوا إلى يثرب دون أن يعقدوا حلفاً مع قريش ولم يسلموا . ولكنهم حين عادوا إلى بلدهم ذكروا لقومهم أمر هذا الداعى الجديد . وكان لذكرهم للنبى وقع ما لبث أن ظهر أثره فى العام التالى . فإنه قدم الموسم ستة رجال من الخزرج لقيهم الرسول عند العقبة بمنى ودعاهم إلى الإسلام فاستجابوا له وأسلموا ، ثم عادوا إلى يثرب يدعون قومهم للإسلام . وكان لإسلام هذه الجماعة السريع دوافعه ، فلقد كان اليهود القاطنين معهم فى يثرب يعيرون العرب بوثنيتهم ويهددونهم بقرب ظهور نبى قد أظل زمانه يتبعونه

فيقتلونهم معه قتل عاد وإرم . كما كان الخزرج حديثى عهد بهزيمة وقعت بهم أمام الأوس وحلفائهم من قبائل اليهود فى يوم بعاث . فلما ذكر رجال الأوس ظهور النبى ومحادثته لهم فى مكة خشى الخزرج أن يسبقهم الأوس إليه ، أو أن يسبقهم اليهود إليه فيتحقق بذلك تهديدهم لهم . وقد أوقف هؤلاء الخزرجيون محمداً على الوضع الملتهب فى مدينتهم ووعدوه بنشر الإسلام عندهم وبشروه بالفوز والنصر لو قدر له أن تجتمع قبائل مدينتهم على نصرته .

ووفد فى العام التالى إلى مكة تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس بايعوا الرسول عند العقبة على الإسلام ، بيعة العقبة الأولى أو بيعة النساء . ولما عاد هؤلاء النفر إلى مدينتهم أرسل معهم النبى مصعباً بن عمير ، أحد صحابته السابقين إلى الإسلام ليعلمهم أصول الدين ويقرئهم القرآن . وكان لجهود مصعب أثر كبير فى انتشار الإسلام فى يثرب ، حتى أنه لم تبق دار من دورها إلا وفيه ذكر لرسول الله . ولقد استطاع مصعب أن يكسب إلى جانبه أكبر زعيمين فى قبيلة الأوس ، وهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير اللذين كان لإسلامهما أثر كبير فى دخول بطون كثيرة فى حظيرة الإسلام .

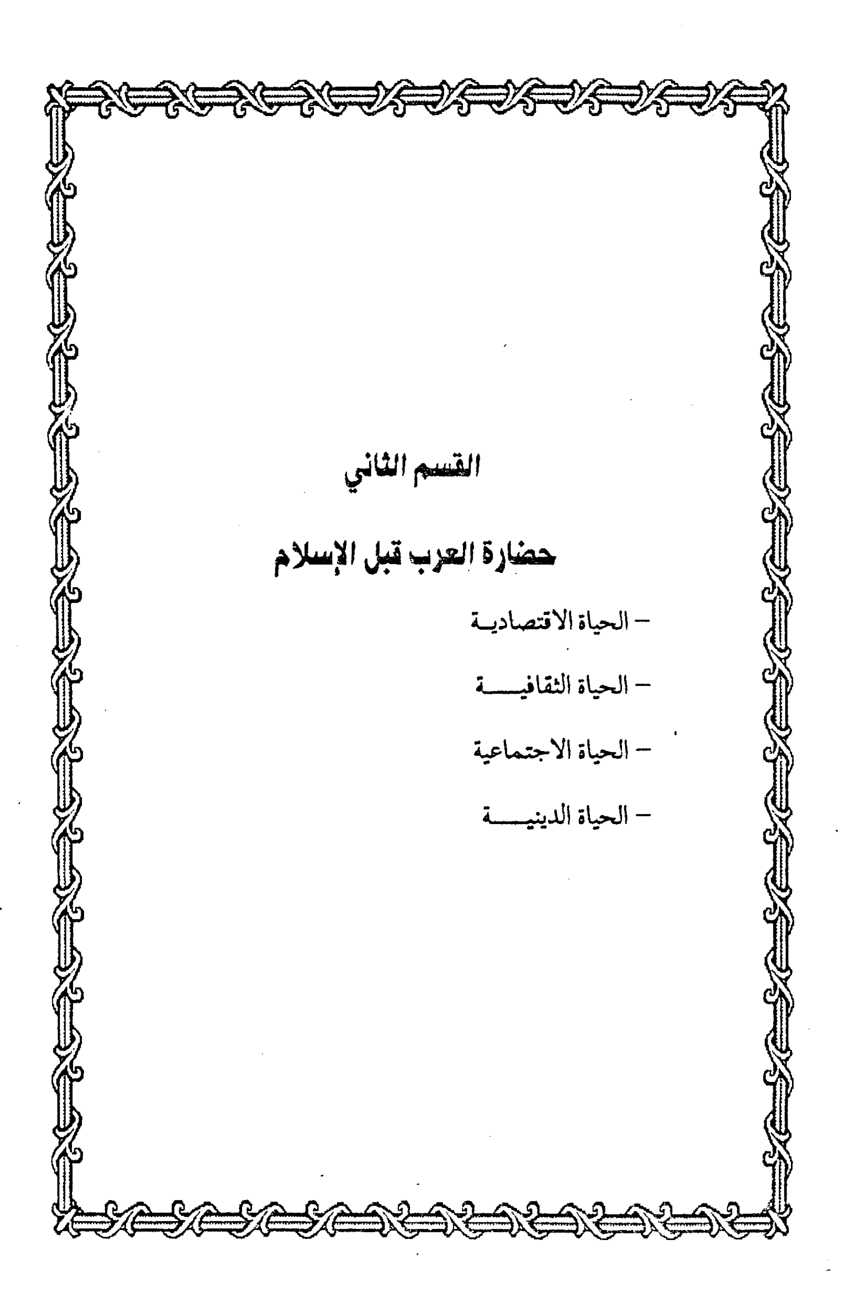
وبعد عام عاد مصعب إلى مكة فى موسم الحج ومعه وفد من يثرب عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين التقوا بالنبى فى إحدى الليالى سراً بالعقبة حيث بايعوه بيعة العقبة الثانية ، وقد حضر هذه البيعة الثانية مع النبى عمه العباس بن عبد المطلب وكان يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر إبن أخيه ويستوثق له . وعند العقبة استوثق الطرفان كلٌ لنفسه ، أما النبى فقد طلب منهم أن يبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وأما أهل يثرب فقد أخذوا من النبى عهداً بأن يكون منهم وأن يكونوا منه وأن يحارب من حاربوا ويسالم من سالموا ، وتسمى هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية ، أو بيعة الحرب .

ولما تمت البيعة طلب النبى منهم أن يُخرجوا له من بينهم إثنى عشر نقيباً ليكونوا كفلاء عليهم ، فأخرجوا له تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وبذلك تقررت هجرة الرسول إلى يثرب بعد أن تعهد لأهل يثرب أن يبقى بمدينتهم بعد أن يظهره الله على أعدائه . ولقد أذن الرسول ، بعد ذلك ، للمسلمين بمكة أن يهاجروا إلى يثرب ، فتسللوا أفراداً وجماعات مهاجرين إليها واستخفى بهجرته من خشى على نفسه وجاهر بها القوى منهم من وجد فى نفسه القدرة على تحدى قريش . وبلغ عدد أول المهاجرين سبعون نفراً ، وتتابعت بعد ذلك أعدادهم وازدادت . وحاولت قريش أن تمنع الكثيرين من الهجرة ونجحت فى منع البعض لكنها لم تنجح فى منع البعض الآخر ، فهاجر معظم المسلمين إلى المدينة . وانتظر الرسول الإذن له من الله بالهجرة . وتخوفت قريش من احتمال هجرة الرسول إلى يثرب واحتمائه بها وبأهلها واتخاذها قاعدة له يحاربهم منها فى المستقبل وينتصر عليهم .

لذلك عقد رجال الملأ اجتماعاً لهم فى دار الندوة ليتدبروا أمر محمد ويعرضوا كافة الخطط للخلاص منه بعد أن استفحل شره ضدهم . وقر رأيهم فى النهاية على خطة وضع الشيطان رسمها على أن يقتلوا محمداً ويكون قتله على يد جميع القبائل ، وذلك بأن ينتدب كل بطن من بطون قريش فتى من فتيانها يضربه بسيفه مع الآخرين فى وقت واحد ، فيتفرق بذلك دمه بين القبائل وتعجز عشيرته عن أخذ ثأره من كل البطون فترضى عنه بالدية .

وكان اليوم الموعود لتنفيذ خطة القتل ، هو اليوم الذى حدده الله تعالى لهجرة نبيه إلى يثرب مع صديقه أبى بكر . وخرج الرسول من داره وشباب قريش أمام داره حاملين سيوفهم مستعدون لقتله ، خرج دون أن يشعروا به وقد ألقى الله عليهم النعاس . ولما أصبحوا هاجموا سريره على يقين أنه نائم فيه ، ولكنهم

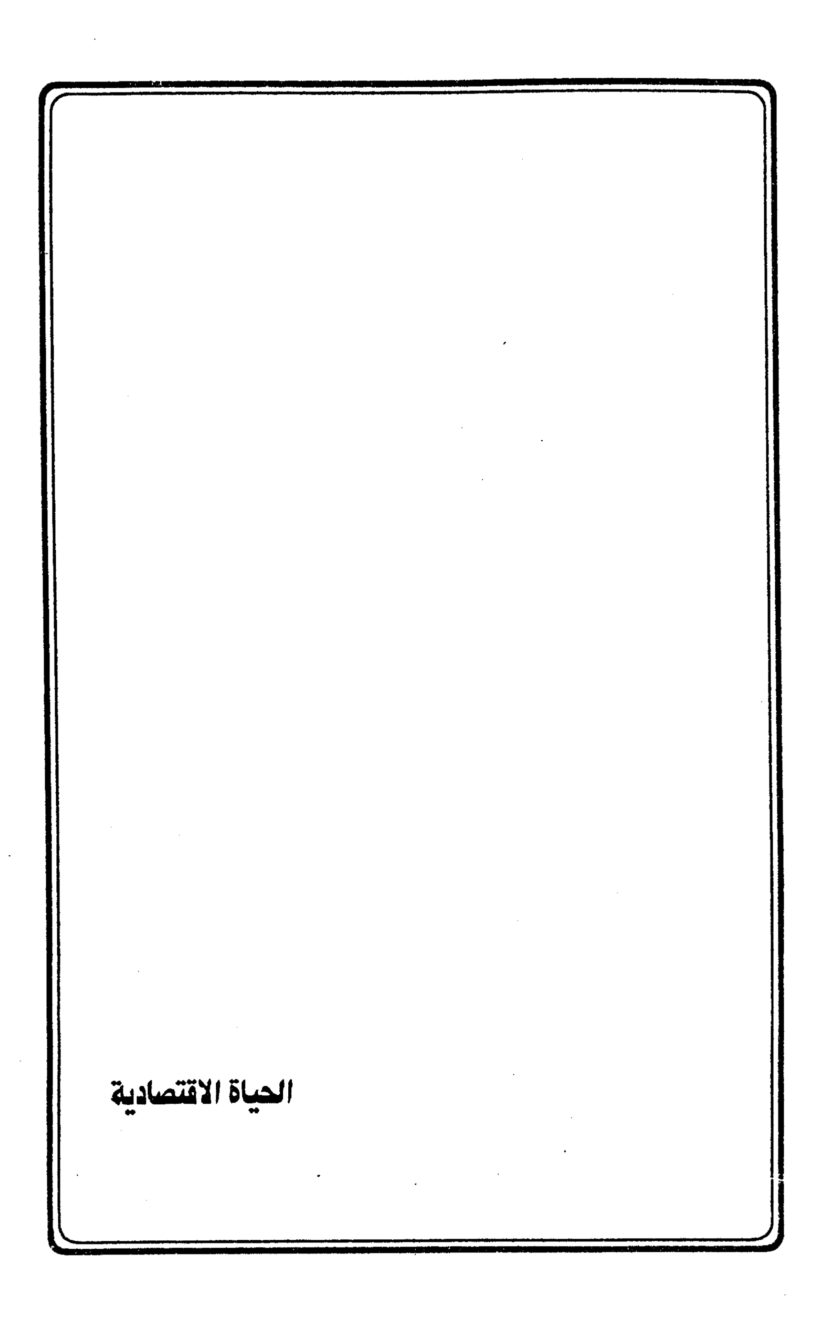
فوجئوا بابن عمه على بن أبى طالب نائماً مكانه . وكان النبى قد اتجه إلى منزل صديقه أبى بكر الذى أعد العدة للهجرة ، واتجها إلى غار بجبل ثور ، على مسيرة يوم جنوبى مكة ، واختبأى فيه . وجن جنون قريش فأخذت تبحث عنه فى كل مكان ورصدت مبلغاً كبيراً لمن يقبض عليه . وأقام الرسول وصاحبه فى الغار ثلاثة أيام وعين الله ترعاهما وتحفظهما . وبعد ذلك خرجا من مكة لهلال ربيع الأول ووصلا المدينة يوم الثانى عشر منه (٢٤ سبتمبر ٦٢٢ م) . وكان من نتيجة الهجرة أن تكونت الدولة الإسلامية ، وبالهجرة بدأ دور جديد فى تاريخ الدعوة الإسلامية عُرف بالدور المدنى اختلف فى ظروفه وآثاره عن الدور المكى ، كذلك بدأ دور جديد فى تاريخ العرب فى ظل الإسلام ، وانتهى تاريخ العرب قبل الإسلام .



القسم الثاني

حضارة العرب قبل الإسلام

- الحياة الاقتصادية
- الحياة الثقافية
- الحياة الاجتماعية
- الحياة الدينية


الحياة الاقتصادية

الحياة الاقتصادية

تبلغ مساحة جزيرة العرب حوالى المليون وربع المليون ميل مربع ، وهى مساحة كبيرة من الأرض توجد بها كمية قليلة من الماء ، ولذلك فغالبية أرض شبه الجزيرة غير مسكونة وهى فى معظمها صحراء وكثبان رملية وأودية جافة تتخللها بعض الجبال الصماء . وقد إنحصر سكنى العرب ، فى شبه جزيرتهم ، فى المناطق التى توافرت فيها المياه ، وهنالك مناطق خالية تماماً من السكان فى شبة الجزيرة ، وبخاصة فى منطقة الربع الخالى .

ولقد أثر الضيق فى مساحة الأرض المنزرعة فى شبه الجزيرة فى شكل تكوين المجتمع العربى داخلها ، فهو لم يسمح بقيام المجتمعات الكثيفة والكبيرة فيها ، وبالتالى لم تظهر فيها الحكومات المنظمة للعمل وللإنتاج وللتعامل بين الناس وغلب عليها المجتمع القبلى البدوى . وقد ظهرت فى شبه الجزيرة بعض المستوطنات السكنية ذات الرزق اليسير من الزراعة الصغيرة المحدودة ورعى الماشية ، وكان إقتصاد هذه المستوطنات إقتصاداً بدائياً لا تعقيد فيه ولا تطوير .

ولقد تسبب قلة وجود الماء فى أرض العرب إلى جهل العرب بالزراعة ونفورهم منها ، وحجتهم فى ذلك أنه لو كانت لهم مياه تفيض وأنهار تجرى وأمطار تنهمر ما كرهوا الزراعة ولما احتقروا العمل بها ، فهم كرهوها لأنهم لم يتذوقوا ثمارها ولم يجنوا خيراتها .

ولقد اختلف حال أهل اليمن من العرب وبقية مناطق جنوب شبه الجزيرة ، عن بقية سكان شبه الجزيرة فى نظرتهم للزراعة وحبهم لها واعتمادهم عليها ، بسبب توافر المياه عندهم فقد حباهم الله بالأمطار الغزيرة تسقط على بلادهم طوال فصل الصيف فيروون أراضيهم من مياهها ويخزنون فى سدودهم وخزاناتهم مايفيض عندهم منها لبقية العام . ولذلك زرع أهل اليمن وغرسوا وكانت لهم

جنتان عن يمين وعن شمال ، كما أخبر بذلك القرآن الكريم ، وكانت الزراعة خيراً وبركة عليهم . لذلك عرفوا الاستقرار منذ القدم وقامت الحضارة عندهم وعرفوا التقدم والرقى الذى حرم منه أقرانهم فى سائر شبه جزيرة العرب .

ولقد اعتمد بادية العرب على الجمل ، وكان رمز بداوتهم وعنوان صحرائهم وسفينتهم الوحيدة عبرها . وقد ارتضى الجمل مصادقة العربى البدوى ومشاركته آلامه ومقاساته ووافق على تمضية حياته معه قاطعاً الفيافى والبرارى متحملاً الجوع والعطش والحياة الشاقة الخشنة فى البادية . ولولا الجمل لما تمكن البدوى من اختراق البوادى والتنقل ولقبع فى خيمته ينتظر الموت . وقد كان طعامه من لحمه ولبن نياقه وهو رأس ماله إذا ما احتاج إلى مال وهو أنيسه فى ليالى الصيف والشتاء .

ومن الحيوانات التى استأنسها العربى الخيل والضأن والمعز والحمير ، وهى كلها دون الجمل فى تحمل الجوع والعطش لذا عاشت على المراعى الخضراء وشاركت الحضر فى بيوتهم ، فهى أيضاً من أموال العرب . ودولة الحيوان فى جزيرة العرب صغيرة إذا ماقيست بمساحة أرضها وذلك لقلة المراعى الغنية ولغلبة الحشائش الشوكية فيها على الحشائش الخضراء الغنية .

لقد حالت البوادى بين العرب وبين ظهور اقتصاد متقدم متطور عندهم فساءت أحوالهم وغلب الفقر عليهم وصار معاشهم ضيقاً وحياتهم الاقتصادية فقيرة ومحدودة .

واقتصاد البدو قائم على تربية الإبل بينما اقتصاد أهل الحضر قائم على الزراعة والتجارة . وأبسط أنواع اقتصاد الحضر يتمثل فى المستوطنات الصغيرة المنتشرة فى بواطن جزيرة العرب وأعلاه اقتصاد المدن الواقعة فى أطراف الجزيرة وعلى سواحل البحر وفى الأراضى الخصبة .

ومـن أبرز المستوطنات التى ظهرت فـى باطن جزيرة العرب مستوطنات اليمامة ، والتى فى أطراف الجزيرة فهى عديدة وأشهرها مكة والمدينة ، مكة فى التجارة والمدينة فى الزراعة .

لقـد جعل هـذا الجو العرب قبائل وشعوباً متنابذة متخاصمة متحالفة متعاقدة ، متطرفة فى كل شيء ، تميل إلى المادة . تراهم كرماء غاية الكرم وفى نفس الوقت بخلاء شديدى البخل . لقد أثرت الطبيعة فى تكييف عرب الجاهلية وتكييف اقتصادهم وتعيين مواردهم وفى توجيههم توجيهاً تجارياً فى المواضع التى قل فيها الزرع مثل مستوطنات الأطراف حيث مال أهلها إلى التجارة ووجدوا فيها مهنة من أشرف المهن ، وتوجيهاً زراعياً فى المواضع التى توافرت فيها شروط الزراعة ، وتوجيها رعوياً للأعراب .

الزراعة :

الزراعة هى عماد ثروة اليمن وجنوب جزيرة العرب ، والمواضع التى تتواجد فيها مياه الشرب فى الجزيرة . وهى المورد الأساسى لحياة تلك البلاد . وقد انحصرت فى المناطق الخصبة والأرض التى تنعم بالرى سواء بالأمطار أو تتفجر فيها الينابيع والعيون وتتوافر فيها الآبار . ولا توجد الزراعة فى الأرض الصحراوية التى تمثل النسبة الأكبر من أرض شبه الجزيرة .

ولأهل اليمن السبق على غيرهم من عرب شبه الجزيرة فى الزراعة ، وهم مازالوا يعرفون حتى الآن بمهارتهم فيها . ولقد تبين من نتائج الفحص العام الذى قام به الباحثون لمواضع من جنوب جزيرة العرب أن الزراعة كانت متقدمة تقدماً كبيراً فى اليمن عن سائر أنحاء شبه الجزيرة . وقد حرص اليمنيون ، منذ القدم ، حرصاً شديداً على الاستفادة من الأمطار فى إرواء أراضيهم كما يتبين ذلك من آثار السدود التى أقاموها فى أوديتهم ، وهى سدود أقيمت لا لتتحكم فقط فى

سير السيول وضبطها خشية إغراق المدن والقرى والأراضى المزروعة ، ولكن أيضاً لتخزين المياه فى أحواض وتوجيهها الوجهة التى يريدونها فى أوقات الحاجة . وذلك بواسطة أبواب تفتح وتغلق حسب الطلب ، ومجارى للماء وقنوات توصل إلى مواضع الزرع وحيث يطلب الماء .

وقد قامت الزراعة فى اليمن وفى جنوب شبه الجزيرة عموماً فى الأودية ، ويطلق على الأودية فى اللهجات العربية الجنوبية إسم (أسرار) ومفردها (السر) ، وهى فى قول علماء اللغة بطن الوادى وأطيبه وأفضل موضع فيه وأخصبه . وقد ظهرت المستوطنات فى أطراف الأودية وجروفها ، كما ظهرت عند مصباتها ، وذلك لاستفادتها من السيول التى قد تهطل فتملأ بطونها . وهذه المستوطنات مستوطنات زراعية تزرع النخيل والحبوب وبعض الأشجار المثمرة والخضر والبقول .

وقد عثر على كتابات عديدة بالمسند وباللهجات العربية الأخرى تتحدث عن أسماء تلك الأودية والمواضع التى حفرت بها الآبار وقامت بها الزراعة ، وعموماً اعتمدت أرض اليمن وجنوب شبه الجزيرة على الأمطار الموسمية التى غذت أرضها بالماء وولدت فيها الحياة .

واليمامة من الأراضى الزراعية الخصبة فى جزيرة العرب ، وقد نعتت بأنها ريف مكة ، إذ تموّن مكة بالحبوب ، وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة . ولقد سكن بنو حنيفة اليمامة . والإسم القديم لليمامة هو : الجوف ، والجوف أرض خصبة ذات مياه قد تسيل وتكون قريبة من سطح الأرض . وباليمامة أودية خصبة صارت من أهم مواضع الزرع فيها لوجود العيون العذبة بها .

ومن هذه الأودية العرض ، والعرض كل وادٍ فيه شجر . ومن أعراض اليمامة : عرض شمام ، وعرض حجر . ومن أودية اليمامة : العقيق فيه عيون

عذبة الماء . ومن مواضع اليمامة الخصيبة : قُران ، وهو موضع به ماء ونخيل وهو لبنى سحيم من بنى حنيفة . وكذلك : مُلهم ، وهو موضع به ماء كثير النخل ، وينسب (يوم مُلهم) إليه وهى حرب نشبت فى هذا المكان بين بنى حنيفة وبنى تميم .

وكانت فى الحجاز ، ولاسيما ماوقع منه شمال المدينة ، مواضع كثيرة ذات عيون ومياه جارية غرست بالنخيل واشتغل أهلوها بالزراعة . وقد كان وادى القرى كثير المياه بصورة خاصة . وعلى مواضع المياه أقيمت بهذا الوادى مستوطنات وقرى عديدة عاشت على الزرع والنخيل وعلى التجارات التى تحملها القوافل التى تسلك هذا الوادى . وقد وردت أسماء مواضع عامرة آهلة بالسكان فى غزوات النبى ، تقع كلها فى وادى شمال يثرب إلى فلسطين .

وبين مكة ويثرب بعض مواضع مياه ، عاش سكانها على النخيل والقوافل والرعى وبعض الزرع ، ومن الأماكن الخصبة : وادى الغرس ، قرب فدك ، وكانت فيه منازل بنى النضير . والجرف من المواضع التى أُستغلت فى الزراعة ، وهو موضع على بُعد ثلاثة أميال من المدينة . وأرض يثرب وماتبعها من أطراف هى من الأراضى الخصبة ، وقد حفر أصحابها آباراً وسقوا منها وزرعوا بها وغرسوا عليها النخيل والبساتين . ولقد كوّن بعض أهل المدينة ثروات كبيرة من الزراعة .

وبالمدينة وأطرافها مواضع عُرف الواحد منها بالبقيع ، والبقيع مكان به مختلف الشجر ، ومنه (بقيع الغرقد) ، وهو المقبرة المشهورة بالمدينة ، سُمى بالغرقد بشجر له شوك فذهب وبقى الإسم لازماً للموضع ، وبقيع الخيل ، وبقيع الزبير ، وبقيع الخضمات ، وبيثرب ثلاثة أودية مهمة هى : العقيق وبطحان وقناة ، وفى وادى العقيق عيون ونخيل .

ومن الأودية التى أستفيد منها فى الزراعة : وادى مهزور ، وهو وادى بنى قريظة . وقد زرع أصحاب الأرض بيثرب أرضهم بقولاً وحبوبا ونخيلاً وكروما .

وفى مواضع من بقية جزيرة العرب مياهاً صارت مواطن للسكن ، اختلفت كثافة سكانها باختلاف مقدار الماء ، كانت ملاذاً لأهل القوافل فى هذه البوادى البعيدة الجافة القاسية . وفى هذه الأماكن زرعت النخيل وبعض النباتات الأخرى التى لاتحتاج إلى ماء كثير ، وظهرت البيوت المعدة لاستقبال التجار المسافرين عبر القوافل .

وفى شرق الجزيرة العربية وُجدت مواضع بها ماء وزرع مثل : هجر ، التى اشتهرت بنخيلها وجودة تمرها ، والأحساء التى عُرفت بزراعة النخيل وبعض الأشجار والخضر ، وقطر ، وكاظمة .

ومن الآلات التى استخدمت فى الزراعة فى جزيرة العرب واستعلمت فى حراثة التربة : المحفار ، وهى المسحاة وغيرها مما يحفر به ، والمخدة ، وهى حديدة تخد بها الأرض ، والمعول لتكسير الحجارة والحفر ، والمسحاة ، وهما من حديد تستخدم لقلع الأعشاب ، والمعزقه وهى الفأس الذى يعزق به ، والميطدة ، وهى خشبة يوطد بها المكان ليصلب .

والحيوانات المستخدمة فى الحراثة هى الثيران والحمير والخيل والجمال . ويشتغل الفلاح بعد حراثة الأرض بإصلاحها ونثر الحب فيها نثراً متساوياً منتظماً ويستعمل لذلك بعض الآلات مثل : المالق والمملقة وهى خشبة عريضة تجرها الثيران . والمجز ، وهو أشبه بالمحراث . وبعد بذر الحبوب يقوم الزراع بسقاية الأرض . ولتقوية الأرض وإعادة الحيوية ، إليها استخدم عرب الجاهلية التسميد باستخدام فضلات الإنسان والحيوان وزبل الطيور والرماد .

ولحماية الزرع من عبث الطيور وبقية الحيوانات به إتخذوا وسائل عديدة

لحمايته منها : اللعين ، وهو ما يُتخذ فى المزارع كهيئة رجل ، أو الخيال وهو كساء أسود يُنصب على عود تظنه الطيور والبهائم إنسانا . وحين يأتى وقت الحصاد يقوم المزارعون بحصاد محاصيلهم وتخزينها وبيعها .

ومن المحاصيل الزراعية التى زرعها العرب قبل الإسلام : الحبوب ، وهى لفظة يطلقها علماء اللغة على الحنطة والشعير ، وهما عماد الخبز فى جزيرة العرب حتى الآن . والحنطة من أهم مواد تجارة العربى ، وتُعرف فى المُسند باسم (البُر) ، وهى القمح أيضاً ، والقمح كلمة آرامية الأصل من (قمحو) ، وهى غذاء الطبقة المترفة لغلاء ثمنها بالنسبة للفقراء . واشتهرت الطائف بزراعة النوع الجيد من الحنطة .

والشعير أرخص من الحنطة ، ولذلك كثُر إستعماله فى الأكل ، ومنه كان خبز أكثـر الناس . وكان يهود المدينة يتاجرون بالشعير ودقيقه فى سوق بنى قينقاع .

ويُقال للطحين (الدقيق) فى كتاب المُسند (دقـم) ، ويُصنع بطرق مختلفة أشهرها (الرحى) التى تدار باليد ، والتى يديرها الحيوان . و (الطحانة) التى تدور بالماء ، ويُقال للدقيق المطحون كذلك فى لغة المسند (طحنم) ، ولم يكن العرب يعرفون الأرز آنذاك ولم يكن طعامهم .

وفى سنين الفاقة والعوز اعتاد الناس فى شبه الجزيرة إلى استعمال حبوب أخرى بدلا من الحنطة والشعير والذرة من التى تنبت بالطبيعة ، ومنها : الطهف ، والعَلَس ، والسلت . وقد عرف أهل اليمن زراعة الذرة ، وكانوا يخبزونها ويستخرجون منها شراباً يُقال له : (المِزر) ، وهو نبيذ الذرة ، وقد نهى الرسول عن شربه .

كذلك زرع العرب البقول من حمص وعدس وفول ولوبياء وما شاكلها .

وزرعوا البصل والثوم والقثاء ، والقرع والبطيخ (الحبحب) . ومن فصائل النبات عند العرب النبات الشائك ، أى ذو الشوك ، مثل : القتاد وهو شجر صلب له شوكة كالإبر ينبت بنجد وتهامة ، والحسك ، والعوسج .

والنخيل فى كل موضع من جزيرة العرب فيه ماء ، وهو أنواع وفصائل كثيرة ، وقد اشتهرت هجر بكثرة وجودة تمرها ، كذلك اشتهرت خيبر بكثرة تمورها ، وكذلك المدينة .

وزرع العرب كروم العنب فى بساتينهم وحدائقهم فى اليمن والطائف ومن أنواع العنب : العنب الجرشى ، وهو أطيب أنواع العنب ، ينسب إلى جرش ، مخلاف باليمن ، والعنب التبوكى ، نسبة إلى تبوك ، والغربيب وهو عنب شديد السواد تشتهر به الطائف .

وعرف الحجاز واليمن أشجار التين والرمان والخوخ والتفاح والموز والزيتون ، والجوز واللوز . وعرفت الجزيرة العربية شجر الآراك ، الذى يُستاك بفروعه .

ويُفهم من النصوص الجاهلية أن الزراعة كانت تتعرض لآفات زراعية خطيرة تقضى على المزروعات فى بعض الأحيان . ومن هذه الآفات الحشرات والجراد وإنحباس المطر .

الرعي :

فى جزيرة العرب مراعى منها الخاص ومنها العام . والمراعى الخاصة إما تكون ملكاً لرجل أو أسرة أو قبيلة تفرض سلطانها على المرعى ، مثل الإحماء ، حيث لايُسمح لأحد غير مأذون بالرعى فى (الحمى) . أما المراعى العامة ، فهى لا تدخل فى ملك أحد وإنما يرعى فيها كل أبناء الحى وجميع أبناء القبيلة ، لأن أرض القبيلة ملك للقبيلة مادامت عزيزة فيها مالكة لرقبتها يرعى فيها كل أبنائها .

فإذا ذلت وضعفت طمعت فيها القبائل المجاورة القوية فشاركتها فى أرضها وربما أجلتها عنها . وإذا إرتحلت القبيلة عن أرضها وتركتها ونزل بها نازل جديد صارت الأرض ملكاً له مالم يدفع عنها بالقوة أو يتركها هو رضاءً .

والمرعى هو موضع الرعى والرعى هو الكلأ والرعى هو ماترعاه الراعية ، ويعبر عن الإبل إذا رعت بالقول : سامت الإبل ، فهى سائمة ، والسائمة هى الإبل الراعية . وتؤدى لفظة (مرتع) معنى (مرعى) . ورتعت البهائم بمعنى أكلت وشربت فى خصب وسعة . والانتجاع عند العرب هو الذهاب فى طلب الكلأ فى موضعه .

والرعاة على صنفين : رعاة الإبل ، وهم الممعنون فى البوادى والذين يبيتون مع الإبل فى المرعى ولا يأوون إلى بيوتهم ولايرعون غيرها . ورعاة يرعون إبلا ويرعون غيرها معها من بقر وخيل وغنم . وهم لايستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً لعدم إستطاعة تلك الحيوانات الصبر على العطش كثيراً ولهذا فهم على إتصال بالحضر والحضارة ، وهم مرحلة وسطى بين الحضارة وبين الأعرابية ، وهم من أهل الخيام السود المنسوجة من شعر المعز أو من صوف الأغنام .

ولا يُشترط فى الراعى أن يكون أجيراً لغيره يرعى إبل وماشية غيره ، فقد يكون راعياً وهو مالك لإبله ولبقية الماشية التى يرعاها ، وهى إنما سمى راعياً لأنه إتخذ الرعى وسيلة للحياة يعيش عليها ، ويجوز أن يكون قد ورثها عن آبائه وأجداده . ويجوز أن يكون قد اختارها هو حرفةً له ، كما يجوز أن يكون راعياً لمال غيره من أهل قبيلته أو من الأبعدين . وقد يكون هؤلاء من أهل الحواضر المستقرين يسلمون مالهم للرعاة لترعى فى البوادى وليكثر نسلها وتصح أجسامها فإذا أرادوا بيعها طلبوا من الرعاة إعادتها إليهم . ولايربى الرعاة الدجاج والبط والحمام والأوز والطيور المختلفة والخنازير إنما يربيها أهل الريف ماقارب الماء من

أرض العرب وغيرها وأرض فيها زرع وخصب أو من حيث تكون الخضر والمياه والزروع .

وتربية الدجاج حرفة ينظر العربى إليها نظرة إزدراء واستهجان ، فلا يليق برجل حر يحترم نفسه أن يخدم طيراً أو حيواناً صغيراً كالدجاجة ، ولذلك كانت من حرف النبط وأهل الريف ممن خالط النبط .

وقد حدث فى الجاهلية مايحدث اليوم إذ ينتقل الأعراب بمواشيهم وبيوتهم وكل مايملكون من باطن جزيرة العرب ، فيتجهون إلى الشمال نحو بلاد الشام والعراق للرعى ، وينزلون هنالك جماعات حيث يجدون الماء والكلأ ، فإذا إنتهت أو شح ما قصدوه إنتقلوا إلى مواضع أخرى ، وهكذا كانت سنة البدوى فى الحياة . ومن هؤلاء الرعاة من تطيب لهم الحياة فى الأرض الجديدة فيقيم بها وقد يتحضر قوم منهم ومن هؤلاء تولد تحضر العرب فى هذه الديار .

وكان هذا الأمر يشكل خطراً فى بعض الأحيان على الحضر وعلى حكومات تلك البلاد ، لذا اضطرت الحكومات المسيطرة على العراق وبلاد الشام إلى اتخاذ وسائل الحماية المختلفة لحماية أرضها منهم .

ولاحاجة إلى الإشارة إلى أثر المراعى فى حياة جزيرة العرب ، وفى حياة الأعراب بصورة خاصة . فعلى المراعى تتوقف حياة الماشية عماد الثروة والمال لأهل البادية ، وهى من أهم المشكلات العويصة بالنسبة إليهم وإلى الحكومات حتى الآن .

والحيوان ثروة هامة فى جزيرة العرب المحدودة الموارد الطبيعية ، والإبل مصدر ثروة عظيمة فى الجاهلية وبعدد الإبل تقاس الثروات وهو المال عند العرب وأساس التعامل بينهم ، ويطلق العرب على الإبل والبقر والشياه : النعم ، وذكر البعض أن العرب إذا أفردت النعم لم يريدوا بها إلا الإبل ، أما إذا قالوا الأنعام فإنهم أرادوا بها الإبل والبقر والغنم .

والسوام والسائمة هى الإبل الراعية . والجمل هو الحيوان الوحيد الذى رضى بمرافقة الأعراب وبمشاطرتهم حياتهم فى البوادى وشاركهم مسراتهم وأحزانهم . صابراً راضياً يحملهم ويحمل أثقالهم وهو سفينة صحرائهم ، لا يسألهم على ذلك أجراً وهو مع ذلك طعامهم إذا جاعوا أو شعروا أنه قد مرض مرضاً لايرجى شفاؤه أو أنه قد شاخ وكبر وصار لايصلح للعمل . ومن وبره صنعوا خيامهم . وهو قنوع يرضى بالقليل ويصبر على الجوع والعطش ولا يباريه فى هذا الصبر أى حيوان آخر . وقد حرص الاعرابى على الإكثار من الإبل النجيبة والتى تعد مقياس الغنى والثراء عندهم . والجمل قليل الكلفة لايكلف أكله صاحبه كثيراً ، يعيش على ماتنبته الأرض وعلى ما يجده على وجهها من يابس النبات ومن عوسج ونبات ذى شوك .

والإبل من حيث الأصالة أجناس وأصناف ، فيها الإبل الأصيلة التى يفتخر بها أصحابها ، وفيها الإبل الرخيصة . ومن الإبل الجيدة الشهيرة : النجائب القطريات المنتسبة إلى قطر ، والمهرية ، والجرشية ، والأرحبيات المنسوبة إلى أرحب من همدان .وكانت الإبل النجيبة تُسمى (الحرائز) وهى لا تُباع إلا عن إضطرار .

وللعرب مصطلحات يقولونها فى الإبل إذا كثر عددها ، منها : الهجَمة ويطلق على الأربعين وما فوق ذلك من عدد ، والهنيدة على المائة فقط . والعارض الناقة المريضة أو التى أصابها كسر أو آفة ، وكانوا ينحرون العوارض . والعبيط الذى يُنحر من غير علة . والعرب تعيِّر من يأكل العوارض .

والخيل جماعة الأفراس ، ويطلق الفرس على الذكر والأنثى ، ويُطلق الحصان أيضا على الفرس الذكر ولا يُقال للأنثى فرسه أو حُصانة . ولم تكن الخيل كثيرة فى الحجاز عند ظهور الإسلام ، ففى معركة بدر لم يكن مع

المسلمين سوى فرسين ، فرس للمقداد بن عمرو وفرس لمرثد بن أبى مرثد . ولم يكن مع قريش سوى مائة فرس . فقد كانت غالية الثمن عالية التكاليف .

والأغنام عند الحضر يربونها للاستفادة من لحومها وألبانها وأصوافها ، وهى مصدر ثروة لأصحابها ، كذلك الماعز يُستفاد من ألبانها وشعرها وكان أعراب بادية الشام الساكنين علي مقربة من فلسطين يتخذون بيوتهم من شعر الماعز ، كما تتخذ السجاجيد والبُسط منها . ويكثر وجود المعز البرى فى المناطق الصخرية من جبال السراة حيث يعيش على الأشجار والأعشاب البرية . وقد عُنى أهل المدن بتربية النحل للحصول على العسل وخصوصاً فى بلاد اليمن وحضرموت . وقام عرب السواحل بصيد السمك ، وقيل لصياد السمك : العركى . وقد أطلق علماء اللغة كلمة (الحوت) على السمك كله ، ولكن الغالب أنه أطلق على ما عظُم من السمك .

وفى جزيرة العرب حيوانات وحشية ، منها ما كانت مؤذية وهى السباع ، ومنها ما كانت تفيد الإنسان إذ كان يصطادها ويأكلها مثل : الغزلان والظباء الوحشية والبقر الوحشى والثور البرى (الناشط) والحمر الوحشية وتوجد القرده فى مواضع من جبال السراة وفى بلاد اليمن .

التجارة :

لقد كان عرب قبل الإسلام ، مثل غيرهم من الشعوب السامية ، نشيطون فى عالم التجارة . والتجارة تكاد تكون الحرفة الوحيدة عند العرب التى لم ينظر العربى إليها وإلى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء . بل أُعتبرت عندهم من أشرف الحرف قدراً ومنزلة ، ونُظر إلى التاجر نظرة تقدير وإعزاز . وقد بقيت التجارة على هذه المنزلة والدرجة كذلك فى الإسلام ، وأُشير إلى شرفها وسمو منزلتها فى كتب الحديث .

والتجارة أنواع كثيرة ، تشمل كل أنواع البيع والشراء ، والتاجر هو الذى يتاجر فى الأسواق ، غير أن منهم من تخصص فى نوع خاص من أنواع التجارة مثل بيع وشراء البز فيقال له (بزاز) ، أو الزيت ويقال له (زيات) أو العلف ويقال له (علاف) وغير ذلك .

وتكون التجارة بالمقايضة ، إذا قايض تاجر أو أى شخص متاعاً بمتاع آخر وبادل سلعة بسلعة أخرى ، وهى الطريقة القديمة فى الإتجار قبل أن يتعامل بالذهب والفضة وزناً فى تقييم الأشياء وقبل أن تعرف النقود التى وُلدت من التعامل بالذهب والفضة . وقد إتبع عرب الجاهلية هذه الطريقة فكانوا يبادلون التمر بالحنطة والجلود بسلع أخرى ، وتعاملوا كذلك بالذهب والفضة وزناً ، كما تعاملوا بالنقود .

ولقد تبين لنا من دراسة كتب التفسير والحديث وكتب الأدب والأخبار والسير أن أهل مكة هم الذين وضعوا أصول التعامل فى التجارة فيما بينهم ، وهم الذين كونوا بأنفسهم قوانينهم حيث لم تكن هنالك حكومة منظمة تضع التشريع وتقوم بالتنفيذ على نحو ما كان فى اليمن أو عند الفرس والروم . كذلك يتبين لنا أن أهل مكة كانوا خبراء فى أصول تنمية الأموال وفى كيفية استثمارها واستغلالها ، فكانت لهم مرابحات وشراكات وتعامل ومراسلات مع غيرهم من أصحاب المال فى مختلف أنحاء جزيرة العرب ، كذلك كانوا يتعاملون بالربا ، وظهر فى مكة عدد من كبار أغنياء شبه جزيرة العرب قبل الإسلام .

وفى المسند ألفاظ كثيرة ذات معانى تجارية تتعلق بالبيع والشراء والامتلاك والعقود ، وهى دليل على أن عرب الجنوب كانوا تجاراً يجنون من التجارة أرباحاً طائلة ويعيش الكثير منهم عليها . فكانوا يبيعون ويشترون ويصدرون ويستوردون ، ويقصدون الأسواق الشهيرة القريبة منهم ، كما كانوا يقيمون الأسواق فى

بلادهم فى المواسم أو فى أيام معينة من الأسبوع للبيع والشراء ، ولسد حاجاتهم بما يفيض عليهم من حاصل زراعة أو منتوج حيوان يبدلونه مقايضةً بما يعوزهم من ضرورات وحاجات .

وفى لغة قتبان تُعرف كلمة تجارة بكلمة (شتيط) ، وقد وردت هذه اللفظة فــى عدد من النصوص القتبانية فى أوامر أصدرها ملوك قتبان لتنظيم التجارة . وفى جملة هذه النصوص نص أصدره الملك (شهر هلل) على شكل مرسوم ملكى موجه من الملك إلى التجار من أهل قتبان ، وقد كتب ونشر ليطلع الناس عليه ، ينظم فيه الملك أمور التجارة وكيفية تعامل التجار فيما بينهم وتعاملهم مع الحكومة . وقد حدد هذا المرسوم حقوق التاجر النازل والمقيم فى إمارة شمر والذى يتجول فيذهب إلى قتبان للاتجار فيها والتسوق من أسواقها .

وتُعد هذه المراسيم القتبانية الخاصة بالتجارة من أقدم وأشهر المراسيم التى وصلت إلينا باللهجات العربية القديمة فى كيفية تنظيم الإتجار والتعامل فى السوق وفى تعيين حقوق الحكومة ونصيبها من الأرباح الناتجة عن التجارة ، وهى دليل ناطق على مدى عناية القتبانيين بأمور التجارة فى ذلك الزمن البعيد .

وكانت تجارة العرب فى غالبها تجارة برية فى الداخل والخارج ، ولقد كانت للعرب تجارتهم الداخلية داخل قطر من أقطار جزيرة العرب وبين أقطارها وإما تجارة خارجية تتم مع بلاد الشام والعراق خارج حدود جزيرة العرب . وقد أشير فى التوراة وفى الكتابات الأشورية والمؤلفات اليونانية واللاتينية إلى إتجار العرب مع الخارج ، كما أشير إلى إتجار الأشوريين والفرس والروم مع العرب .

وقد كان عرب الجنوب يتاجرون مع بلاد الشام فيرسلون إليها قوافلهم مارة بالحجاز إلى أسواق بلاد الشام بالطرق البرية التى لايزال الناس يسلكونها حتى اليوم مع شيء من التحوير والتغيير ، وقد كانت البتراء أهم مفرق طرق يمر به المعينيون

والسبئيون ، ومنها يتجه طريق نحو البحر الميت وطريق آخر ينتهى إلى غزة . وكان العرب يتجهون إلى غزة إلى أيام الرسول ، وقد ذكرت الأخبار أن جد الرسول هاشم بن عبد مناف كان يتردد عليها فى تجارته وأنه مات ودفن هناك فى أحد مرات تجارته بهذه المدينة .

وقد أشير فى التوراة إلى قوافل سبأ ، وهى قوافل كانت تسير من اليمن مخترقة غرب شبه الجزيرة إلى فلسطين ، فتبيع ما تحمله من سلع هناك . وقد سيطرت دولة سبأ على كل شبه الجزيرة على وجه التقريب . وبلغت حدود مملكتهم أرض فلسطين . وتوسعت سبأ فى تجارتها وسيطرت على طرق التجارة البرية وجعلتها تحت نفوذها . واهتمت سبأ بالسيطرة على الطرق المؤدية إلى بلاد الشام ، وهى طرق موازية للطريق البحرية الممتدة فى البحر الأحمر ، ولها أهميتها الكبرى فى التجارة العالمية بين الشرق والغرب . وقد أسست مواضع حراسة لحراسة القوافل من قطاع الطرق ومن تحرش القبائل البدوية بها . ولعل أهل يثرب الذين يرجعون نسبهم إلى اليمن هم من الرجال الذين غرسهم السبئيون فى هذا المكان لحماية قوافلهم المتجهة إلى بلاد الشام .كذلك وجه السبئيون أنظارهم نحو العراق وموانىء الخليج العربى ، وإستخدموا الطريق البرى الممتد من نجران إلى السلّيل إلى الخليج والعراق .

وقد كان إعتماد التجار على الحيوانات ولاسيما الجمل فى نقل تجارتهم . أما العربات فلم تكن مستخدمة فى أغراض تجارية فى جزيرة العرب ولم ترد إشارات إليها فى نصوص المسند ولا فى النصوص الجاهلية الأخرى ولا فى أخبار الأيام . وقد ظل إعتماد التجار وأصحاب القوافل على الحيوانات طوال العهود الإسلامية حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى .

والتجارة هى التى نقلت بعض الكتابات الشمالية إلى جنوب جزيرة العرب

وأدخلت الكتابة الثمودية والنبطية إلى اليمن وأصحاب الكتابتين الثمودية والنبطية من الشعوب التى كانت تقيم فى شمال شبه الجزيرة كما هو معروف . وجاءت كتابتهما مع أصحابها التجار الذين قصدوا هذه الأماكن للإتجار ، ومن بينهم من سكن فيها واختلط بأهلها وعاش ومات فيها . وقد كتبوا فيها الكتابات التى عثر عليها بعض العلماء فى أماكن متعددة من خرائب اليمن . والتجارة هى أهم وسيلة من وسائل نقل الثقافة والحضارة بين بلدان العالم على مر التاريخ .

ولم يعتمد العرب فى الجاهلية فى تجارتهم ونقلها بحراً ، لأن أهل الجاهلية كانوا يكرهون ركـوب البحر ويتهيبون منـه ، وأنهم لم يكونوا يملكون سفنا لعبوره ، حتـى أن المهاجرين الأولين من المسلمين ، لما هربوا من مكة إلى الحبشة ، ركبوا سفناً حبشية بدائية أوصلتهم إلى الحبشة وقد ورد عن الخليفة عمر أنه كان يتهيب البحر وركوبه وأنه كان يوصى قواد جيوشه بتجنب مخاطره واتخاذ البر سبيلاً بقدر الإمكان دون سبيل البحر .

وليس فى كتابات المسند التى وصلت إلينا شىء عن تجارة العرب البحرية واتجارهم مع الأقطار الواقعة على سواحل البحار ، برغم سهولة إتجار أهل اليمن مع افريقية وقيام هذه التجارة منذ القدم . وان الشقة بين سواحل افريقية وسواحل اليمن ليست واسعة كبيرة ، ولهذا كان فى إستطاعة السفن الشراعية أن تقطعها دون صعوبة . وقد ورد عن إرسال حاصلات اليمن إلى افريقية وورود حاصلات إفريقية إلى اليمن وليس سبيل إلى ذلك إلا البحر . وكان أهم البضائع التى وردت إلى شبه الجزيرة من افريقية الأخشاب والعاج والأبنوس والرقيق الأسود الذى كان يباع فى أسواق النخاسة .

ولقـد ظهر من المؤلفات اليونانية واللاتينية أن العرب كانوا يمتلكون ، منذ القدم ، سفناً فى البحر الأحمر وفى الخليج والمحيط الهندى ، إلا أن هذه السفن

لم تكن ضخمة ، ولهذا لم تتمكن من مجابهة السفن اليونانية والرومانية حين نزلت هذه البحار لأنها كانت أضخم منها وأسرع ، ولذلك ترك العرب البحر إلى غيرهم منذ عهد ما قبل الإسلام وتركوا لسفن اليونان والرومان والأحباش نقل بضائعهم من وإلى البلاد التى كانوا يتجرون معها . ولقد ورد رسو هذه السفن التجارية فى الموانىء العربية ، فى ميناء (مخا) اليمنى وميناء عدن وميناء الجار ، فرضة أهل المدينة ، وميناء الشعيبة فى الحجاز ، وهو أقدم من ميناء جدة ، وميناء ظفار من أعمال الشحر ، بالقرب من صحار ، وميناء الأُبله ، وميناء سُقطرى عند مدخل البحر الأحمر فى المحيط الهندى ، (جزيرة سوقطرة) .

ولقد ساهمت سفن الهند أيضا فى إتجار العرب مع بلادهم فكانت سفنهم تأتى من بلادهم محملة بالمتاجر وتعبر المحيط الهندى متجهة إلى الأبلة أو سقطرى أو عدن تفرغ ما تحمله من بضائع فى هذه الموانىء وتحمل منها مايريد التجار شراءه من بلاد جزيرة العرب من حاصلات تنتجها هذه البلاد أو مواد خام أو صناعات يدوية بسيطة .

وكان أهل مكة من أبرع التجار وأنشطهم فى بلاد الحجاز عند ظهور الإسلام . وقد أشير إلى تجارتهم فى القرآن الكريم (فى سورة قريش .. لإيلاف قريش ..) وقد استفاد أهل مكة من الوضع السىء الذى طرأ على اليمن بدخول الحبش إليها ومن تردى الأوضاع السياسية فيها ، فانحسر كل نفوذ سياسى أو عسكرى كان لحكومات اليمن فى الحجاز أو على بعض القبائل . ووجدت قريش نفسها حرة مستقلة وفى وضع يمكنها من استغلال مواهبها فى التجارة . فقامت بمهمة الوسيط التجارى الذى ينقل تجارة اليمن وجنوب شبه الجزيرة إلى بلاد الشام وحوض البحر المتوسط . وبذلك حصلت على أرباح طائلة وكونت ثروات هائلة جعلتها من أغنى قبائل العرب عند ظهور الإسلام ، وجعلت مكة من أخطر مراكز الثروة والمال فى جزيرة العرب آنذاك .

ويظهر من سورة (قريش) أن قريشاً كانت ترحل رحلتين فى السنة : رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف إلى بلاد الشام ، وهما رحلتان تجاريتان تشترى فيهما وتبيع وتربح ربحاً كبيراً ، وكانت قوافل قريش التجارية كبيرة ، كانت القافلة الواحدة منها تتألف من أكثر من ألف بعير ، يساهم فيها كل من شاء ممن له مال من أهل مكة ويريد الإتجار به . ويظهر من كتب التفسير والسير أن أهل مكة كانوا يسهمون فى رؤوس أموال قوافلهم التى يبعثون بها إلى بلاد الشام واليمن وفى الأعمال التجارية الأخرى . يسهم أفراد أسرة تجارية واحدة أو مجموعة أسر ، وفى بعض الأحيان كان يسهم فيها معظم أفراد مكة الأحرار كل بحسب نصيبه لينعموا بالأرباح . وقد كانت قافلة أبو سفيان التى أهاجت وقعة بدر من قبائل قريش كلها وأخصها بطون كعب بن لؤى ، وكانت هذه القافلة قد تاجرت ببلاد الشام وهمت بالعودة إلى مكة وكانت تتكون من ألف عير محملة بأموال عظيمة .

وكانت بُصرى سوق قريش فى رحلتهم إلى الشام ، وكان منهم من يصل إلى غزة ويتاجر فى أسواقها حيث تبيع أسواقها منتوجات حوض البحر المتوسط وما يرد إليها من تجارة أوربا .

وكان أثرياء تجار قريش يقومون برحلاتهم التجارية الخاصة بخلاف رحلتى الشتاء والصيف ، فقد ورد من هؤلاء : أبو سفيان الذى كان يذهب بنفسه إلى العراق للإتجار ، ومسافر بن عمرو بن أمية القرشى ، وعبدالله بن جدعان ، والعاص بن وائل السهمى وإبنه عمرو بن العاص ، وأبو العاص زوج زينب بنت الرسول ، وصفوان بن أمية بن خلف .

وقد كان الذهب على رأس السلع التى حملها التجار العرب إلى الآشوريين وحكومات العراق وبلاد الشام . وفى التوراة ذكر للذهب الذى كان يجلبه العرب

إلى العبرانيين . كذلك كانوا يحملون الفضة لهم ، وقدكانت للفضة مناجم فى جزيرة العرب ، وقد ورد فى الأخبار أن أبا سفيان قد حمل معه فضة كثيرة لبيعها فى أسواق بلاد الشام .

وكان الطيب من أهم المواد التى تاجر بها عرب الجنوب ، وصدروه إلى الشام ومصر والعراق . وكان بعضها الآخر يجلب من الخارج : من الهند وافريقية ويصدره العرب إلى الخارج . ومن أهم أنواع الطيب التى إتجر العرب فيها المسك والعنبر والزعفران .

كذلك كان البخور من السلع الهامة التى اشتغل العرب بتصديرها إلى داخل شبه الجزيرة وخارجها ، وكان معظم البخور يجلب إلى اليمن من الهند ويقوم تجار اليمن بتصديره إلى الخارج والداخل .

وكان العرب يتاجرون ويشاركون فى حاصلات الشرق الغنية وبخاصة التوابل والحرير والأحجار الكريمة والرقيق والأسلحة .

وكانت اليمن من أهم الأماكن المصدرة لجلود البقر فى جزيرة العرب ، وقد كانت تحمل إلى مكة وإلى مواضع أخرى لبيعها وبخاصة لبلاد العراق . وكان الزيت على رأس السلع التى كان يشتريها أهل مكة وتجار يثرب من بلاد الشام لجودته وصفائه ونقائه . كذلك كانت البرد اليمانية ، والثياب العدنية من أهم ماكانوا يستوردونه من اليمن ليتجروا فيه .

ولقد كان للعرب قبل الإسلام أسواقهم التجارية ، منها الأسواق الثابته مع أيام السنة يبيع فيها الباعة ويقصدها المشترون للشراء ، ومنها الموسمية التى تعقد فى مواسم معينة وتنفض بانقضاء الموسم .

وتكون الأسواق الثابته فى مواضع السكن كالقرى والمدن والمستوطنات ، أى

بين الحضر حيث القرار والإقامة والاستقرار ، وكانت هنالك حوانيت مخصصة للبيع فى السوق ، كما كان هنالك البائعون الذين يفترشون الأرض وليس لهم حوانيت ، ويباع فى هذه الأسواق مختلف السلع والبضائع .

أما الأسواق الموسمية ، فكان العرب يقيمونها على مدار شهور السنة فى مواضع مختلفة ، وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من حاجة إلى بيع وشراء . وأشهر هذه الأسواق الموسمية : سوق عكاظ ، وسوق دومة الجندل ، وسوق ذى المجاز ، وسوق مجنه ، وسوق صحار ، وسوق حضرموت ، وسوق بنى قينقاع .

وسوق عكاظ هو أهم هذه الأسواق وأكثرها شهرة لأنها سوق تجارة وسياسة وأدب ، فيها يخطب كل خطيب بليغ ، وفيها تُقال القصائد وتنقل الأخبار ويتبارى الشعراء . وكانت تأتيها قبائل قريش وهوازن وسليم والمصطلق والأحابيش وسائر طوائف العرب . وكانت تعقد لمدة أسبوعين من منتصف ذى القعدة حتى آخره. وقد ذُكر أن عكاظ نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وكانت تجتمع فيه قبائل العرب فيتعاكظون ، أى يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر يقيمون على ذلك نصف شهر يتبايعون ثم يتفرقون ، فلما جاء الإسلام هدم ذلك .

ويُعرض للبيع والشراء فى سوق عكاظ وفى الأسواق الأخرى كل أنواع البضائع ، من جلود وحبوب وأقمشة وأثواب مختلفة وحيوانات وكذلك الرقيق . وقد كان شراء السيدة خديجة زوجة الرسول لزيد بن حارثة من سوق عكاظ .

ويُقال أن الشاعر الشهير النابغة الذبيانى كان يحضر سوق عكاظ ، فتضرب له قبة من أدم (جلد) يجلس تحتها فيفد إليه من الشعراء من يريد أن يفتخر بشعره على غيره فينشد أمامه شعره فيحكم على شعره برأيه لما لرأيه من أثر فى

الناس .وكان الشاعران الأعشى وحسان بن ثابت ممن إحتكما إليه ، وكذلك إحتكمت إليه الخنساء الشاعرة . وقد حضر سوق عكاظ الخطيب الجاهلي الشهير قس بن ساعدة الأيادى ، والشاعر المعروف عمرو بن كلثوم التغلبى ، وقد ذكر أهل الأخبار أن الرسول رأى قساً بن ساعدة الأيادى يخطب فى هذه السوق . وأن رسول الله قصد هذا السوق وسوق ذى المجاز يدعو من كان يحضر إلى المواسم إلى دين الله .

ويذهب الناس بعد انفضاض سوق عكاظ إلى سوق مجنة فيقيمون بها عشرة أيام ، فإذا رأوا هلال ذى الحجة فى نهاية الأيام العشر قصدوا ذا المجاز ، موضع بمنى ، وهى سوق جاهلية فيقيمون بها ثمانية أيام يبيعون ويشترون ، ثم يخرجون يوم التروية من ذى المجاز إلى عرفة ، فيأخذون فى ذلك اليوم من الماء مايرويهم من ذى المجاز حيث لايوجد مـاء بعرفه ولا بالمزدلفة ، ويكون يوم التروية نهاية أسواقهم ، وكان العرب لايتبايعون فى يوم عرفة ولا فى أيام منى ، فلما جاء الإسلام أحل لهم ذلك .

وقد تعرض أهل الأخبار لبعض أنواع البيع وطرقها التى كان يستعملها العرب فى الجاهلية ، وكان معظمها يعتمد على الحظ ، ولذلك نهى الإسلام عنها بما ورد عن ذلك فى كتب الفقه والحديث .

ومن جملة طرق البيع عندهم ذلك المعروف ببيع الحصاة : وهو بيع ذكر أهل الأخبار أنه كان متبعاً فى سوق دومة الجندل (فى منطة الجوف بشمال المملكة السعودية عند موضع يقصده أصحاب القوافل الذاهبون من السعودية إلى العراق والشام) ، وكان السوق بها يعقد فى أول يوم من شهر ربيع الأول . وقد ذكروا أن هذه المبايعة من بيوع الجاهلية التى أبطلها الإسلام . وتفسير ذلك أن يقول أحد المتبايعين للآخر : إرم هذه الحصاة ، فعلى أى ثوب وقعت فهو لك

بدرهم ، أو أن يبيع أحد المتبايعين من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، أو أن يعترض القطيع من الغنم فيأخذ الحصاة ويقول : أى شاة أصابتها فهى لك بكذا ، أو يقول : بعتك من الأرض حيث تنتهى حصاتك .

ومن طرق البيع أيضاً بيع الملامسة ، والمراد بالملامسة اللمس باليد ، وذلك أن تشترى المتاع بأن تلمسه وهو مخبأ دون أن تنظر إليه . وقد نهى الإسلام عن هذا النوع من البيوع لما قد يحتويه من غش وخداع .

ومن البيوع أيضا بيع المنابذة ، أى الإلقاء ، وهو أن ترمى إلى شخص بالثوب فيرمى إليك بمثله من غير نظر ولا تراض ، فيكون النبذ وحده هو البيع . كذلك البيع بالتناجس ، وهو أن تمدح سلعة غيرك ليبيعها أو تنفر الناس عن الشىء إلى غيره ، وهو بيع غش وخداع .

وكذلك نهى الإسلام عن البيع مزابنة ، وكان متبعاً عند عرب الجاهلية ، وهو أن تبيع التمر على رؤوس النخل بالذهب والفضة دون أن ينضج فتغبن حق من إشتراه وتضلله . كذلك المحاضرة وهو بيع الثمار خضراً قبل أن تنضج . وبيع المعاومة ، وهو أن تبيع ثمر النخل أو الشجر لسنتين أو ثلاثة قادمة ، فهو بيع لمجهول ، كذلك حرم الإسلام البيع بالمجر ، وهو بيع ما فى بطون الحوامل من الإبل والغنم . ونهى الإسلام عن تلقى الركبان ، أى تلقى البيوع والسلع خارج الأسواق ، وعن بيع حاضر (حضرى) لبادٍ (بدوى) . ونهى الإسلام عن احتكار السلع وقد كان موجودا فى الجاهيلة .

ولقد استعمل العرب فى الجاهلية فى أسواقهم ومعاملاتهم التجارية الوزن والكيل وهى متقاربة بين الشعوب السامية لاختلاط هذه الشعوب بعضها ببعض . واختلف أهل الجاهلية فى الكيل والوزن ، اختلاف الناس فى هذا الزمان ، منهم من يوزن الشىء ومنهم من يكيله ، وكان أهل المدينة يكيلون التمر وهو

يوزن فى كثير من البلاد وكانوا يزنون السمن وهو يُكال فى كثير من الأمصار . وقد جاءت فى كتب الحديث والفقه واللغة بعض العيارات والموازين التى كان يستعملها العرب قبل الإسلام . وكانت تختلف باختلاف المواضع وإن إتفقت فى الأسماء . ويبدو أن العرب أخذوا هذه الموازين والمكاييل من بلاد العراق والشام واستعملوها كلها وبلغتها الأصلية البابلية والفهلوية واليونانية والرومانية نتيجة تعاملهم مع أهل هذه البلاد . وقد أدخل العرب هذه المسميات كما هى إلى لغتهم بعد إدخال بعض التحوير عليها ما يتناسب مع النطق العربى .

ومن بين الأوزان التى أخذوها من الروم : الرطل وهو فى اللاتينية Litra, Libra، فى اليونانية ، والأوقية وهى Ounguiya وأونسة Oncia عند البيزنطيين ، والدرهم كوحدة وزن وقطعة نقد عن دراخمة اليونانية Dhrakhmi، وقيراط من كيراتيون Keration الرومية .

وأخذوا الدانق عن الفارسية كذلك وهو سدس الدرهم ، والمثقال من أصل آرامى من : ماتكولو Matglo والحبة من العبارات التى كانت مستخدمة عند العرب قبل الإسلام وظلت تُستعمل بعده ، أما أوزانها فاختلفت باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وقد قدرها بعضهم بعشر الدانق والقيراط ، هو نصف دانق . والمَن وزن من البابلية عرفه العرب وهو يساوى وزن رطلين . والقنطار من أصل لاتينى وهو وزن أربعين أوقية ذهب .

والمدُ ، مكيال ، وهو رطلان أو ملء كفىْ الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما ، وقيل هو ربع الصاع لأن الصاع يساوى أربعة أمداد والقفيز من المكاييل القديمة ، وأصله بابلى ويتسع لنحو ٢٠٠ لتر . والوسق ، من المكاييل التى كان يستعملها العرب قبل الإسلام ، وقيل أنها ستون صاعاً ، وقيل أيضاً هو حمل بعير وهو ٣٢٠ رطل عند أهل الحجاز .

ولقد تعامل العرب قبل الإسلام فى الأسواق بالعين والورق والعين هو الدينار الذهب عامةً ، والورَق هو الدراهم المضروبة من الفضة أو الفضة عموماً ، والكلمتان تعبران عموماً عن الدنانير والدراهم .

وقد تاجر أهل الجاهلية فِي الصرف ، وهو بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة أو أحدهما بالآخر ، وعُرف المشتغل بذلك باسم الصيرفى ، وكان اليهود أكثر من يعملون بالصيرفة ، كذلك عرف العرب قبل الإسلام التعامل بالفلوس النحاسية . ولم يكن للعرب عملة عربية خاصة بهم بل كانوا يتعاملون بعملات الفرس والروم قبل الإسلام ، ولم تسك العملات العربية إلا فى ظل الإسلام .

ولقد شاع الربا فى الجاهلية بين العرب وبين غيرهم من الشعوب القديمة . ويعرُف الربا فى العبرانية باسم (نِشيك) neshec وتعنى الزيادة التى تؤخذ عن كل دْين يعطى لمدين ، وقد أشير إليه فى كتاب العهد القديم ، وقد حرمت التوراة على اليهود تعاطى الربا فيما بينهم وأحلته فى التعامل مع الغرباء عن شعب إسرائيل . وكان ربا الجاهلية أضعافاً مضاعفة ، بمعنى أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذى عليه المال : « أخر عنى دْينك وأزيدك على مالك » فيفعلان ذلك ، وبذلك يتضاعف الدْين . وكان العباس بن عبد المطلب عم الرسول وخالد بن الوليد فى الجاهلية يسلفان بالربا وكذلك عم النبى (عبد العزى) أبو لهب . وحرم الإسلام الربا وأنزل الآية التى تقول : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ ، وقال رسول الله فى ذلك : « ألا أن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب » .

الصناعة :

اليمن ، هي في مقدمة أجزاء جزيرة العرب في الصناعة وتفوقت على غيرها من الأماكن الأخرى فيها . وهي الأولى في المنتوجات الصناعية أيضا . وبرزت اليمن في كل أنواع الصناعة ولم يقتصر إنتاجها على نوع واحد وذلك بسبب وفرة المواد الأولية اللازمة للصناعة بها . ولقد توافر بها معدن الحديد مما أدى إلى قيام بعض الصناعات التي تعتمد عليه مثل صناعة الأسلحة وبخاصة السيوف اليمنية المشهورة . كذلك في اليمن الأخشاب والجلود مما أدى إلى قيام صناعات خشبية وجلدية اشتهرت بها اليمن وارتبط إسمها بها . كذلك وجدت مناجم للذهب باليمن في موضع بيشة وضنكان وحلج ، كما وجد بها معدن الفضة ، واستخدم أهل اليمن الرصاص في كثير من الأعمال كذلك النحاس . كما عرفت اليمن بالعقيق وكان يستخرج من معدن بالقرب من صنعاء . والملح من المواد التي تاجر بها العرب القدماء وتوجد معادنه في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، ومن أشهر مواضع الملح في اليمن : جبل الملح في بلاد مأرب .

وقد اشتهرت اليمن بصناعة النسيج ، وصدرت أنواعا عديدة من الأقمشة والثياب إلى مختلف أنحاء جزيرة العرب اكتسبت شهرة فائقة في كل مكان لجودتها ودقة صنعها وجمال ألوانها . ومن ثيابهم الناعمة الثياب التي تعرف باسم الخال ، وهو ضرب من البرود . كذلك ثياب يمانية حمر تعرف بالوصائل وثياب تعرف بالعصب ، وثياب من الوشي تعرف بالمراجل ، وثياب من البرود الموشاة المخططة تعرف بالحبرة . ومن ثياب النساء ثوب يعرف بالمعجر ، وهو ثوب يلبسه النساء ويلتحفن به . والسيراء وهي ثياب مخططة يخالط حريره الذهب الخالص وهو ثوب غالي الثمن من حلل الأغنياء . وثياب قطن بيضاء تعرف باسم الثياب السحولية نسبة إلى موضع باليمن يسمى سحول تنسج فيه هذه الثياب . واشتهرت عدن بثياب نفيسة نسبت إليها وعرفت بالعدنيات ، والخمس والفوف من برد اليمن المعروفة .

واشتهرت قطر بثيابها ، كذلك هجر بالبحرين ، واشتهرت الحيرة أيضاً بضرب من الثياب المصبغة .

كما اشتهرت جزيرة العرب بصناعة البسط ، وهناك أنواع عديدة منها تنسب إلى مواضع متعددة ، وهى تصنع من أصواف الماشية وشعر المعز ، ويشتغل بنسجها الرجال والنساء . وكان أشهر هذه البسط نوع يعرف باسم العبقرى .

وقد نشأت من الألياف والخوص وعيدان بعض الأشجار صناعة ، فاستفيد من خوص الدوم فى صنع أخفاف النساء ومن لحاء الخزم فى صنع الحبال وصنع الحصر . وتاجر أهل اليمن بالحناء المستعملة فى الخضاب .

واستخدم العرب بعض النباتات فى الصباغة ، واشتهرت مواضع من جزيرتهم بحذقها فى الصباغة وباتقانها استخراج الصبغ من النبات ومن بعض المعادن . كذلك قاموا باستخراج الزيوت من البذور بمعاصر خاصة ، وتأتى اليمن على قائمة الأمصار العربية فى إنتاج الزيوت ، زيت الزيتون وزيت السمسم (السيرج) . كذلك استخرج العرب الأشنان الذى كان الناس يغسلون به أيديهم بعد الطعام ويغسلون به ملابسهم . وقد اشتهرت اليمامة بجودة ما تنتجه منه .

وقام العرب باستخراج الصمغ من شجره ، فاستخرجوا الصمغ من شجر الصاب وشجر القرظ المعروف فى بلاد العرب .

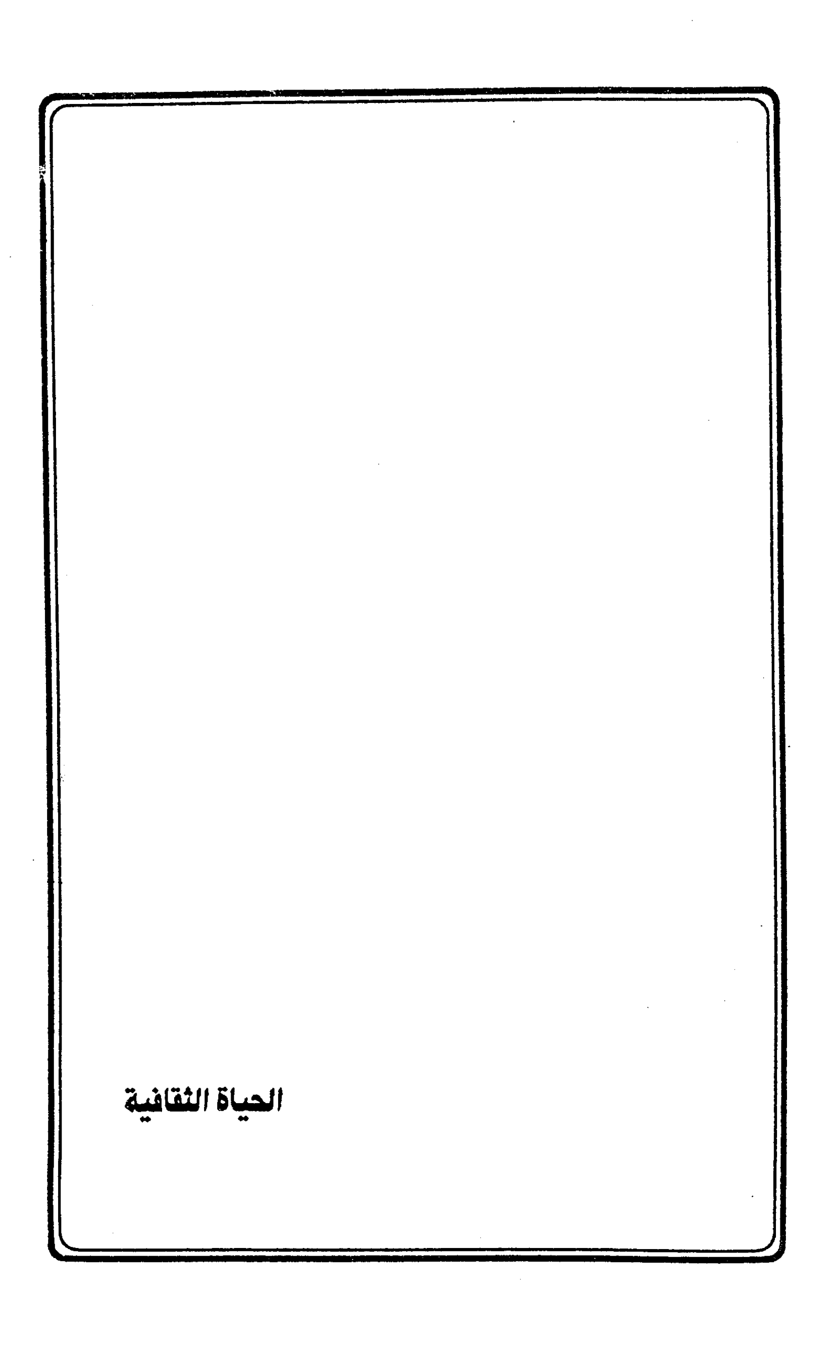
وبرع العرب قبل الإسلام فى دباغة الجلود وبخاصة أهل اليمن ، وكان القرظ من أهم المواد التى استخدموها فى ذلك وقشر الرمان والشب . واتخذ العرب من التمور والكروم والشعير والذرة خموراً .

ومن الحرف المتداولة بين عرب قبل الإسلام : النجارة والحدادة والخياطة والصياغة ، ولقد نظر العرب إلى الحرف والمشتغلين بها نظرة ازدراء ولم يقوموا

بالعمل فيها وتركوها للموالى وللأعاجم ولليهود والنصارى . والحرف وراثية فى الغالب يتعلمها الإبن عن والده وتنحصر فى العائلة فتنتقل من الآباء إلى الابناء . ولا يسمح لغريب أن يتعلم أسرار الحرفة وأن يقف عليها وخاصة فى الحرف المربحة وفى الحرف التى تحتاج إلى مهارة ودقة وذكاء ، خوفاً من وقوع المنافسة وانتقال سر العمل والنجاح إلى شخص غريب فينافس أصحاب الحرفة فى عملهم وينتزع منهم رزقهم . وينضم أصحاب الحرف إلى بعضهم البعض مكونين طبقة خاصة تتعاون فيما بينها ويتزاوجون من بعضهم البعض ويرأسهم أبرز رجالهم وأكثرهم حكمة ومالاً ، وعادةً ما يتجمع أرباب الحرفة الواحدة فى أماكن معينة تنسب إليهم .

وقد تشتهر مدينة ما بحرفة من الحرف ، فيكون لمنتوجها من حرفتها شهرة واسعة وتباع بأسعار عالية ، فاشتهرت اليمن بالبرود والسيوف فى كل جزيرة العرب ، واشتهرت مكة بعطورها وثقيف بجلودها (أنطاعها) .

وقد كانت الأجور التى تدفع للعمال والصناع أجوراً يومية ، أما الرقيق فلم يكونوا يتسلمون أجوراً بل كان يكتفى باطعامهم وملبسهم وحمايتهم ، وعليهم ، مقابل ذلك ، الاشتغال بما يوكل إليهم به أسيادهم .



الحياة الثقافية

الحياة الثقافية

يشيع بين كثير من الناس أن العرب قبل الإسلام كانوا فى جهل مطبق وأنهم لم يكونوا يكتبون ولا يقرأون وأن الكتابة كانت نادرة عندهم ، واستدلوا على رأيهم هذا باطلاق لفظ الجاهلية على عصورهم . وتفسير الجاهلية بالجهل الذى هو نقيض العلم تفسير خاطىء ، وإنما تفسيره هو السفه والحمق والغلظة والغرور . وقد كانت تلك أبرز صفات المجتمع الجاهلى آنذاك . ولقد أطلق على هؤلاء العرب صفة « الأميين » ، لا لأنهم لم يعرفوا القراءة والكتابة ولكن لأنهم لم يكونوا لهم كتاب من توراة وانجيل مثل اليهود والنصارى الذين عرفوا بأهل الكتاب وهذا المعنى يتوافق تماماً مع لفظة الأميين الواردة فى القرآن الكريم وتعنى قريش وباقى العرب الوثنيين الذين لم يكن لهم كتاب .

والقول بأن العرب لم يعرفوا القراءة والكتابة قبل الإسلام قول خاطىء لأنه كان بيثرب من يكتبون وفى جنوب شبه الجزيرة ومواضع أخرى منها انتشرت الكتابة بالمسند . وقول الله تعالى فى سورة الجمعة (آية ٢) : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم ﴾ لاتعنى كلمة أميين الأمة الجاهلة بالقراءة والكتابة ، وإنما تعنى الوثنيين والأمة الوثنية التى لم تؤمن بكتاب من الكتب السماوية . وقد نُعت الرسول بالأمي لأنه ينتسب لهذه الأمة ، لأنه من العرب ، ومن قوم ليس لهم كتاب ، وقد عرفوا بذلك من قبل أهل الكتاب اليهود ، من يهود يثرب . ولايُعقل أن يكون اليهود أو غيرهم قد أطلقوا الأمية على العرب ، بسبب جهل العرب الكتابة والقراءة ، فقد كان غالبية يهود ونصارى جزيرة العرب لا يقرأون ولايكتبون إلا أن القرآن أخرجهم من الأميين واستثناهم وأطلق عليهم أهل الكتاب ، وذلك يدل دلالة واضحة على أن المراد من (الأميين) العرب الذين لم يكن لهم كتاب .

ولم تكن جميع أمة العرب قبل الإسلام تقرأ وتكتب ، لكنها مثل باقى الأمم كانت القراءة والكتابة فى الخاصة وفى أصحاب المواهب القابلة للتعلم . وكانت الأمية غالبة فى كل الأمم إنما كان الاختلاف بينها فى نسبة المتعلمين من بينهم ، كذلك كان العرب يتباينون فيما بينهم تبايناً يختلف باختلاف أماكنهم . ففى البوادى تكثر الأمية وتقل فى الحواضر . وقد كان فى الحواضر العربية من يقرأ ويكتب بالقلم المسند وبقلم النبط وقلم بنى إرم والقلم الذى دوّن به القرآن ، وكان منهم من يكتب بأقلام أعجمية ، وكان بينهم من يكتب بأكثر من قلم .

وقد ذكر أهل الأخبار أنه كان لدى أكاسرة الفرس ديوان خاص يدون فيه بالعربية كل ما يخص عرب الحيرة وكان الكتبة فى هذا الديوان من العرب ، وكان هؤلاء الكتبة يتولون ترجمة كل مايرد إلى الدولة بالعربية إلى الفارسية ويترجم مايصدر بالفارسية من الحكومة إلى العرب بالعربية . وأن من ضمن من اشتغل فى هذا الديوان وقام بالترجمة فيه زيد العبادى وهو والد الشاعر الشهير عدى بن زيد . وذكر ابن الكلبى أنه كانت لملوك الحيرة دواوين دونوا فيها أخبارهم ومدد حكمهم وماقاله الشعراء فى مدحهم . وكل هذه الروايات تؤكد أن العرب قبل الإسلام لم يكن جميعهم فى أمية وجهل .

ولقد وجد عند ظهور الإسلام قوم يكتبون ويقرأون ويطالعون الكتب بمكة ولهم إلمام بكتب أعجمية ومن هؤلاء الأحناف الذين كانوا يجيدون بعض اللغات الأعجمية . وذكر أهل الأخبار أن قوماً من أهل يثرب من الأوس والخزرج كانوا يقرأون ويكتبون عند ظهور الإسلام ، كان من بينهم : سعد بن زرارة ، وزيد بن ثابت وأبيٌّ بن كعب وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وغيرهم .

وفى جملة من كان يقرأ ويكتب من أهل مكة : حرب بن أمية جد معاوية إبن أبى سفيان ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وعبد المطلب بن هاشم ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وخالد بن الوليد وأخوه الوليد ين الوليد ، وحاطب بن أبى بلتعة ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح وحاطب بن عمرو ، وعبدالله بن سعد بن أبى السرح ، ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم .

ولقد إستعان رسول الله بكثير ممن كتبوا له ، ومنهم من كتب له الوحى ومنهم من كتب رسائله ، ومنهم من دوّن الغنائم والزكاة والصدقة . وروُى أن أول من كتب له أبيّ بن كعب ، وكان إذا غاب أبى كتب له زيد بن ثابت .

وخلاصـة القول أن أهل مكة كانوا يقرأون ويكتبون قبل الإسلام بزمن بعيد ، وكانوا يكتبون بالمسند ، وهو القلم الذى كتب به أكثر أهل جزيرة العرب قبل الإسلام . كذلك كتب العرب بقلم النبط الذى كان يكتب به أهل الحيرة لسهولة استعماله ومرونته عن القلم المسند الذى كان يكتب به عرب جنوب شبه الجزيرة .

والعرب من الشعوب التى عرفت الكتابة وكان لها خطوطها قبل الإسلام بزمان طويل ، وتبين من دراسة نصوص الجاهلية أن العرب كانوا يدونون بقلم ظهر فى اليمن بصفة خاصة ، هو القلم الذى أطلق عليه أهل الأخبار : القلم المسند أو قلم حميرٌ ، هو قلم يختلف عن القلم الذى تكتب به العربية اليوم ، ثـم تبين أنهم منذ الميلاد كتبوا بقلم آخر أسهل وألين فى الكتابة من القلم المسند ، أخذوه ، قبيل الإسلام ، من القلم النبطى المتأخر على يد رجال الدين المسيحيين الذين قاموا بالتبشير بالمسيحيه داخل جزيرة العرب . غير أن هذا القلم لم يتمكن من القضاء على المسند الذى ظل الناس يكتبون به حتى ظهور

الإسلام . ومع الإسلام كتب كتبة الوحى بقلم أهل مكة لنزول الوحى بينهم فصار قلم مكة هو القلم الرسمى للمسلمين وانتهت بذلك الكتابة بالمسند . ونسى العرب هذا الخط المسند إلى أن بعثه المستشرقون وأعادوه إلى الوجود مرة أخرى ليُترجم لنا الكتابات القديمة التى دوُنت به ، وهنالك أقلام أخرى عثر عليها المستشرقـون فى أعالى الحجاز تفرعت عن القلم المسند وجاءت متأخرة عنه ، مثل القلم الثمودى الذى يُنسب إلى قوم ثمود ، والقلم اللحيانى نسبة لبنى لحيان والقلم الصفوى نسبة إلى أرض الصفاة التى عُثر بها على أول كتابة مكتوبة بهذا القلم ، وهى شرقى الشام فى باديتها .

وقد عرف علماء العربية القلم المسند على أنه قلم اليمن القديم ، كما عرفوا القلم العربى الذى دوُن به القرآن الكريم وسموه (جزماً) لأنه فى رأيهم ، جزم من المسند ، أى قطع منه .

وحروف المسند منفصلة غير متصلة مستقل بعضها عن بعض ولتمييز الكلمات بعضها عن بعض وضع الكُتاب خطوطاً مستقيمة عمودية تشير إلى انتهاء الكلمة وإلى إبتداء كلمة جديدة . وتبدأ الكتابة عندهم من اليمين فى العادة وتنتهى فى اليسار . غير أنهم قد يكتبون من اليسار أيضاً وينتهون بالسطر فى اليمين ، وقد يمزجون بين الطريقتين فى كتابة واحدة . وحروف المسند خالية من التنقيط الموجود فى عربيتنا لتمييز الحروف المتشابهة فى الشكل بعضها عن بعض ، كذلك حروفه غير مُشكله .

والبحث فى أصل المسند مثله فى أصل الخط ، مازال موضع جدل العلماء الباحثين فى الخطوط العربية فمنهم من يرجع أصله إلى الخط الفينيقى ، ومنهم من يرجعه إلى كتابات سيناء القديمة ، ومنهم من يقول أنه مشتق من الخط الكنعانى . ولم يتوصل العلماء بعد إلى تحديد تاريخ أقدم كتابة بالمسند ، فبعضهم

يرجع أقدم كتابة به إلى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ، على حين أن بعضهم لم يرتفع بتاريخ أقدم كتابة به عن سنة ٧٠٠ قبل الميلاد .

وإذا أردنا تتبع أصل الخط العربى فإننا نلاحظ أن حروف الخطوط السامية تكاد تتفق فى أسمائها وترتيبها ، ويشير هذا التشابه إلى وحدة الأصل وإلى أن الأبجديات قد تفرعت كلها من شجرة واحدة ونبعت من منبع واحد .

والحرف الأول ، وهو الألف ، يعنى (ثوراً) ، ولذلك مثّل فى الهيروغليفية وفى كتابة طور سيناء بشكل رأس ثور .

وأما الحرف الثانى ، وهو الباء فإنه يعنى (بيتاً) ، وقد صُوّر فى الهيروغليفية وفى كتابة طور سيناء بشكل يصور مقدمة بيت .

أما الجيم ، فإنه يرمز إلى (جمل) أو (كمل) ، وصورته لاترمز إلى الجمل رمزاً تاماً .

أما حرف الدال ، فهو من (دالت) ومعناه : باب .

وأما حرف الهاء ، فإنه من (هى) بمعنى : شباك .

وأما الواو ، فهو يشير إلى (وتد) .

وأما الزاى ، فإنه (من زين) بمعنى : سلاح

وأما الحاء ، فإنه من (حيث) بمعنى : حائط .

وأما الياء ، فإنه من (يود) بمعنى : يد مفتوحة .

وحرف اللام ، فإنه من (لمد) ومعناه : عصا لضرب الثور .

والميم من (ميم) بمعنى : ماء .

والنون من (نون) بمعنى : سمكة .

والسين من (سامخ) وهى آلة يُعتمد عليها كالعصا .

والعين من (عين) ، وهى عين الإنسان .

والفاء من (فم) ، بمعنى : فم .

والصاد من (صادى) ، بمعنى : صياد .

والقاف من (قوف) ، بمعنى : الرأس إلى الخلف .

والراء من (ريش) بمعنى : الرأس .

والشين من (شن) ، بمعنى : سن .

والتاء من (تاو) بمعنى : علامة أو صليب .

وترتيب الحروف (أبجد هوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت) ، وهو ترتيب ، قديم سار عليه العرب ، وقد عُرف عند السريان وعند النبط والعبرانيين والآراميين ، ويُظن أنهم أخذوه من الفينيقيين . وقد سار عليه الكنعانيون كذلك غير أنهم زادوا عليه الأحرف التى إقتضى وجودها فى طبيعة لغتهم .

أما الترتيب السائر اليوم فى كتابة الحروف العربية مبتدئين بالألف ومنتهين بالياء فهو ترتيب إسلامى ، وضعه نصر بن عاصم فى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى .

والمواد التى كتب عليها العرب فى الجاهلية عديدة ، منها الحجر والخشب وورق الشجر والجلود والقراطيس واكتاف الإبل واللخاف (الحجارة البيض) والعسب (جريد النخل) والقضم (الجلد الأبيض) والآدم (الجلود المدبوغة) والكاغد (ورق الكتان) والقراطيس (ورق البردى) والرَق (الجلد الرقيق) .

ولقد كان التعليم فى الجاهلية يبدأ فى الكتاتيب ، وهى جمع كُتاب ، وهى تقابل المدارس الأولية التى يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة . وقد عرف الكتاب فى العبرية باسم بيت الكتاب (هاسيفر) وكان الكتاب غير (بيت المدراش) و (بيت التلمود) عند العبرانيين وهى مدارس تعلم الديانة العبرانية والمعارف التى لها علاقة بهذه الديانة .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار أسماء جماعة ذُكروا أنهم كانوا من المعلمين فى الجاهلية وكانوا يعلمون فى الكتاتيب ، منهم على سبيل المثال : بشر بن عبد الملك السكونى ، وسفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وعمرو بن زرارة بن عدس الذى كان يعرف بالكاتب . مما يدل على وجود المدارس والتعليم عند عرب ماقبل الإسلام . وقد ورد عن الرسول أنه أمر الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية أن يعلم فى الكُتاب بالمدينة . كما ورد أن (جفينة) وهو من نصارى الحيرة جاء المدينة وصار يعلم الكتابة فيها . وورد أن علياً بن أبى طالب تعلم الكتابة فى كتاب وهو ابن أربع عشرة سنة . وورد أن الرسول كان يعتق من أسارى بدر من كان يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .

وكان من كتاب المدينة قبل الإسلام : سويد بن الصامت الأوسى ، وسعد إبن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبى بن كعب وغيرهم .

وكانت كنائس العرب فى العراق قبل الإسلام تقوم بتعليم الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء الدين . وورد فى الخبر أن خالداً بن الوليد لما افتتح حصن عين التمر بالعراق وغنم مافيه وجد فى بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل . وكان من أهل الحيرة من يتعلم العربية يقرأ بها ويكتب ويتفقه ويتأدب ومنهم من كان يتعلم الفارسية والآرامية . ولما فتح خالد الأنبار وجد أهلها يتعلمون العربية ويكتبون

بها . وفى خبر وفد نجران الذى قدم على الرسول إفادة بوجود مواضع لتعليم الناس وتثقيفهم في بلدهم . وقد كان يهود الحجاز والمواضع الأخرى من جزيرة العرب يلحقون بمعابدهم كتاتيب يعلمون بها أطفالهم أصول القراءة والكتابة ، كذلك كان شأن نصارى العرب مثلما كان شأن نصارى العراق .

وكانت المواد الرئيسية التي تدرس فى الكتاتيب القديمة : مبادىء القراءة والكتابة وإجادة الخط وشيء من الحساب والأمثال والحكم ومبادىء الدين . ولم يرد فى الكتابات الجاهلية شيء يتعلق بأسماء المعلمين الجاهيلين ، أما أهل الأخبار فلقد ذكروا بعض ' علمين الذين عاشوا قبل الإسلام والذين أدرك بعض منهم الإسلام مثل بشر بن عبدالملك السكونى أخو أكيدر بن عبد الملك ، صاحب دومة الجندل ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وعمرو بن زرارة بن عدس ، وغيلان بن سلمة الثقفى .

وعلم الأنساب ، كان من أهم علوم العرب التى برعوا فيها قبل الإسلام ، ولقد كانت كلمة (النسابة) عندهم تقابل كلمة العالم والعلامة . وفى القرآن ﴿ إنما يخش الله من عباده العلماء ﴾ (فاطر : ٢٨) دلالة على وقوف الجاهليين على العلم والتعلم وعلى وجود العلماء عندهم .

والنسب هو من أهم المعارف التى عُرف بها أهل الجاهية ، وهو علم يرتقى إلى عهد بعيد عن الإسلام دون شك ، لما له من تماس مباشر بحياتهم الاجتماعية وبنظمهم السياسية ، ولأنه الحماية بالنسبة إلى الجاهلى فى تلك الأيام . ولم يقتصر علم النسب عند العرب على أنساب الرجال ، بل شمل أيضاً أنساب الخيل وأنساب الإبل ، لما لهذا النسب من صلة بالأصالة وبسعر بيعها وشرائها . ونجد فى الأخبار ما يشير إلى وجود أناس تخصصوا في حفظ الأنساب . وأبو بكر الصديق ممن اشتهر وعُرف من قريش بحفظ النسب وبالعلم

به ، كذلك كان جبير بن مطعم بن عدى ، وأبو جهم بن حذيفة ، ومخرمة إبن نوفل بن عبد مناف ، وعقيل بن أبى طالب ، ودغفل بن حنظلة السدوسى الشيبانى ، ومحمد بن السائب الكلبى .

ولقد برع العرب القدماء فى الحكمة باعتبارها أداة للتعليم والتثقيف ، وكلمة حكيم العربية هى كلمة (حكيمو) الآرامية وكلمة (حكميم) العبرانية وكلها بمعنى العالِم وصاحب الحكمة . والحكيم هو مؤدب ومرشد وواعظ يعظ الناس وهو خير مستشار فى كل الأمور ، لأنه بفضل مايملكه من عقل ومن تجربة يستطيع أن يفصل بين الصواب والخطأ وبين الحق والباطل . ويظهر من دراسة ماورد فى المؤلفات الإسلامية عن الحكمة والحكماء أن الجاهليين أرادوا بالحكمة حكايات وأمثلة فيها تعليم ووعظ للإنسان ، يقولونها ليتعظ بها فى حياته وليسير على هداها ، وهى حكم حصلت من تجارب عملية ومس ملاحظات وتأملات فى الحياة .

ومن هؤلاء الحكماء العرب الأقدمين : أكثم بن صيفى ، وقس بن ساعدة الأيادى . ويظهر من بعض الحكم المنسوبة إلى العرب القدماء أنها ترجع إلى أصل يونانى فى بعضها وفى بعضها الآخر إلى أصل فارسى . وأقدم الكتب التى وصل إلينا إسمها من كتب الحكمة القديمة : مجلة لقمان التى كان يملكها سويد بن الصامت المعروف بالكامل .

وذُكر أن أبا العاص بن أمية بن عبد شمس كان حكيماً ، كذلك الحكم إبن سعيد بن العاص بن أمية ، والنضر بن الحارث بن كلدة الثقفى ، وعامر بن الظرب العدوانى ، وقد اشتهرت تميم بكثرة حكمائها ، وكان هؤلاء الحكماء حكاماً أيضاً يحكمون بين الناس فيما يقع بينهم من شجار ، وقد احتكرت تميم لنفسها الحكومة فى سوق عكاظ على مايذكره أهل الأخبار .

وللحكماء المذكورين أمثلة كثيرة ترد فى كتب الأدب والمواعظ والأمثال .

والمثل ثقافة البيئة التى ظهر فيها ، لذلك جاءت الأمثال متباينة مختلفة حسب تنوع القوم الذين ظهر بينهم . والأمثال مادة مهمة غنية فى الأدب الجاهلى والإسلامى ، وهى حكمة العرب فى الجاهلية والإسلام ، وكان لحُفاظ المثل مقام عندهم .

وقد ألّف العرب الأقدمون كتباً فى الأمثال ، فقد روى أن عُبيداً بن شرْيه الجرهمى ، وهو من أهل صنعاء باليمن ، من أوائل المؤلفين فى المثل وألف كتابه (الأمثال) ، كذلك ألف صحار بن العباس العبدى ، من بنى عبد القيس كتاب (الأمثال) .

ومن أمثال أهل الجاهلية : إن من البيان لسحرا ، وإن الجواد قد يعثر ، وأجع كلبك يتبعك ، واشتدى أزمةَ تنفرجى ، ورب رمية من غير رام ، واستراح من لاعقل له ، وسبق السيف العذل ، وتسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، وجوزى جزاء سنمار ، وعند جهينة الخبر اليقين ، وأرسل حكيماً ولا توصه ، وغيرها .

والقصص ، مظهر من مظاهر الفكر الجاهلى ، أشير إليه فى القرآن الكريم ، وكان شائعاً عند عرب الجاهلية ، ودراسته تمكن الدارس من تحليل عقلية صاحب القصص وفهم عقلية الزمن الذى شاع فيه . وقد ورد فى المؤلفات الإسلامية شىء منه ، وفى بعض ملامح يمكن إرجاعها إلى عناصر أعجمية تسربت من إتصال العرب بالأعاجم . وللجاهليين غايات من الاستماع إلى القصص منها العبرة والإتعاظ . ومن أبواب قصصهم المقال على ألسنة الحيوانات ، وقصص الملوك والأبطال والأيام ، ولهم قصص ذو أصل تاريخى غلب عليه الخيال فحوّله إلى أسطورة ، ومن هذه القصص قصص الزباء والتبابعة وسيف بن ذى يزن وعنترة بن شداد وغيرها ، وأشهر قصاص الجاهلية هم :

النضر بن الحارث بن كلدة وتميم بن أوس الدارى ، والأسود بن سريع التميمى وعبيد بن شرية الجرهمى .

والطب فرع من فروع العلم المحظوظة بالنسبة إلى العلوم الأخرى عند عرب الجاهلية ، فقد أشير إليه وإلى إسم نفر من الأطباء هم : الحارث بن كلدة الثقفى ، وإبنه النضر بن الحارث ، وإبن أبى رمثه التميمى .

وقد تعلم الحارث بن كلدة الطب فى مدرسة الطب بجُنديسابور من بلاد فارس وحذق الطب هناك ومارسه . وكان للحارث كلام وحكم كثيرة فى الطب والمداواة ، ونُسب إليه كتاب المحاورة فى الطب بينه وبين الملك كسرى أنوشروان . وقــد ورث النضر أباه فى علمه بالطب وفى حكمته وكان من أشد أعداء الرسول ، أُسر فى معركة بدر وأمر الرسول بقتله هو وعقبة بن أبى معيط بمنطقة الصفراء (الأثيل) . وقد أورد المؤرخ الطبيب ابن أبى أصيبعة سيرته وسيرة والده ضمن أطباء الجاهلية والإسلام فى كتابه « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » . أما ابن أبى رمثه فكان طبيباً على عهد الرسول مزاولاً لأعمال اليد والجراحة . وذُكر من الأطباء طبيب يُقال له ابن حديم حاز على شهرة واسعة بين عرب الجاهلية ، وقيل أنه كان بارعاً فى المداواة بالكىْ . كذلك ذُكر طبيب يُدعى ضماد بن ثعلبة الأزدى .

ولقد كان طب البادية يُعرف بطب الأعراب ، وكان يستند على المعالجة بالأعشاب والنباتات والعسل والحجامة والكىْ والرقى والتعاويذ .

وكان لعرب الجاهلية علم بطرق السيطرة على المياه ، وبطرق استنباطها والاستفادة منها وبناء السدود لحفظها واستخدامها حسب الحاجة . ففى مواضع من اليمن والحجاز وجنوب شبه الجزيرة آثار سدود مثل سد مأرب ، لايمكن أن تكون قد أقيمت دون علم ودراية وخبرة بهندسة إقامة السدود . كذلك كان لهم علمٌ

فى حفر الآبار وإنشاء المصارف لجر المياه إلى الأماكن التى تحتاج إليها ، وقد اشتهرت قبيلة ثقيف فى الطائف بذلك واشتهرت به قبائل أخرى . وقام العرب بهندسة الطرق والعمل على تيسير الاتصال بين المدن والقرى بعضها ببعض وخاصة فى مناطق الهضاب وفى جبال اليمن . وقد أبدع المهندسون فى ذلك الوقت فى شق الطرق فى المناطق الجبلية ولاتزال آثارها موجودة حتى اليوم فى بعض المناطق . وقام المهندسون بإصلاح الطرق وتعبيدها وإنشاء (الأسرطة) وهى جمع سراط أو صراط ، وهى لفظة معربة عن اللاتينية من أصل Strata بمعنى طريق ممهد مبلّط .

ولقد كان عرب الجاهلية على علم بعلم الفلك ، فقد كانوا أصحاب زراعة وتجارة وكانوا يركبون البحر ويسافرون عبر دروب الصحراء فى القوافل وذلك كله يحتاج إلى علم النجوم وبتقلبات الجو ..وقد كان بعض قبائلهم ، قبل الإسلام ، تعبد النجوم وبخاصة جماعة الصابئة ، وعرف علم الفلك عند العرب باسم علم الأنواء ، والأنواء هو جمع نوء والنوء عندهم هو النجم إذا مال للغروب ، أو هو سقوط النجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع نجم آخر يقابله من ساعته فى المشرق .

ونظراً لأهمية المطر فى حياة جزيرة العرب ، اهتم العرب بمراقبة مظاهر الأنواء وألوان السحب . هذا ونجد للسحب أسماء كثيرة من حيث ترتيبها وأوصافها وقربها أو بعدها عن الأرض ومن حيث لونها عند العرب ، مما يدل على شدة إهتمامهم بها وشدة أثرها فى حياتهم فى أمر نزول الغيث .

وقد إتخذ عرب الجاهلية النجوم دليلاً لهم يهتدون بها فى ظلمات البر والبحر ، ولذلك عرفوها ووضعوا أسماء لها ، وبخاصة البارز منها ، وقام بعضهم بعبادتها . وقد سار أهل الجاهلية ، مثل غيرهم من الأمم القديمة ، على فكرة

تقسيم السماء إلى بروج ، وقد أشير إلى ذلك فى القرآن الكريم فى سورة الحجر ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجاً ﴾ وفى سورة البروج ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ . وقد أخذ العرب هذه التسمية من لفظة (بركس) Burgus اليونانية فتعربت وصارت من الألفاظ العربية الأعجمية الأصل . وقد اشتهرت بعض القبائل العربية قبل الإسلام بعلمها بمواقع النجوم ، ومنها : بنو مرة من شيبان ، وبنو مارية من كلب .

وعرف العرب فى الجاهلية الكسوف والخسوف كظاهرة فلكية ، وعُد وقوعهما من الإمارات التى تشير إلى وقوع حوادث جسيمة فى العالم . وقد عرف العرب الوقت فى البادية بقياس ظل الشمس ، وعلى هذا المبدأ قدر الفقهاء أوقات الصلاة عند ظهور الإسلام .

وعرف العرب التنجيم ، قبل الإسلام ، ومارسوه مثلهم فى ذلك مثل الشعوب القديمة ، وكانوا يلجأون إلى أهل الفراسة فى دراسة الأجرام السماوية لقراءة الطالع ومعرفة المستقبل بالاستدلال عليها من ظواهر الكواكب والنجوم والأبراج . ولقد وُجدت عندهم طائفة الكهان الذين تخصصوا فى ذلك بما تجمع عندهم من فراسات وتجارب ورثوها فى هذا الشأن ودراسات فى كتب قديمة وصلت إلى أيديهم .

وعرف العرب السنين والأيام والشهور وفصول السنة الأربعة . ولفظة سنة من الألفاظ العربية القديمة ، وترد فى جميع لهجات العرب القدماء ، وهى من الألفاظ السامية التى ترد فى كل لغاتها ، ويعبر العرب عن كثرة السنين (بالعصر) ، ولفظة (العام) لفظة مرادفة للسنة ، وكذلك لفظة (الحول) .

وتتألف السنة عند العرب وسائر العجم من إثنى عشر شهراً ، وأيام السنة عندهم ٣٥٤ يوماً ، تنقص عن السنة السريانية أحد عشر يوماً وربع اليوم ، لأن

أيام السنة عند السريان ٣٦٥ يوماً وربع يوم . وقد كانت العرب فى الجاهلية تكبس فى كل ثلاث سنين شهراً وتسميه (النسيء) وهو التأخير .

وتقسم السنة عند العرب ، مثل غيرهم ، إلى أربعة فصول كل فصل منها عدته ثلاثة أشهر ، وهى الخريف والشتاء والربيع والصيف ، ويقال للصيف عندهم : القيظ . والناس عموما فى بلاد العرب قسموا السنة إلى فصلين فى الواقع عموماً : الشتاء والصيف لإستئثار الحر والبرد بالنصيب الأكبر من السنة .

ولقد قسّم العرب السنة إلى إثنى عشر شهراً ، والإهلال هو المبدأ الذى سار عليه عرب الجاهلية فى تعيين أوائل الشهور . ووردت لفظة (شهر) فى العربيات الجنوبية بمعنى هلال ، كما وردت كلمة (ورخ) بمعنى شهر وجمعها (أورخم) ، وهى تؤدى معنى أرخ ، وتأريخ أيضاً .

ولقد وردت فى كتابات المسند أسماء عدد من الأشهر كانت مشتركة ومستعملة عند المعينيين والسبئيين والقتبانيين . ومنها شهر (ذودثا) وشهر (ذوسخر) وشهر (ذو أبهى) وشهر (ذو شمس) . ويظهر من دراسة بعض الأسماء أن لبعضها معانى ذات علاقة بالجو ولبعض آخر علاقة بالحياة الدينية أو أعمال الزراعة . ومن النوع الأول (ذودثا) وله معنى الربيع ، مثل شهر ربيع الأول وربيع الآخر فى التقويم الهجرى ، وشهر (ذو خرف) فله صلة بموسم الخريف . أما الشهور التى لها علاقة بالزراعة فهى شهر (ذو مذرن) ومعناها شهر البذر لأن الزراع كانوا يبذرون بذورهم فيه . ومن الشهور التى لها علاقة بالحياة الدينية شهر (ذو عثتر) المنسوب إلى الإله عثتر أو عشتر ، وشهر (ذو الألت) يعنى شهر الآلهة .

ولم ترد فى كتابات المسند أسماء الشهور السريانية وهى : نيسان وحزيران وتموز وآب وأيلول وتشرين وكانون وشباط وآذار .

وكانت شهور العرب العاربة هى : المؤتمر (يقابل المحرم) ، وناجر ، وهو فى موضع (صفر) ، وخوان فى موضع (ربيع الأول) ، ووبصان فى موضع (ربيع الآخر) ، وشيبان فى موضع (جمادى الأولى) وملحان فى موضع (جمادى الآخرة) والأصم وهو شهر (رجب) ، وعاذل وهو (شعبان) ، وناتق وهو (رمضان) ، ووعل وهو (شوال) ورنه وهو (ذو القعدة) ، وبرك وهو (ذو الحجة) .

أما الشهور التى ذكر الأخباريون أنها كانت مستعملة عند العرب حين ظهور الإسلام ، وهى الشهور العربية الحالية التى تبدأ بالمحرم وتنتهى بذى الحجة ، وزعموا أن أسماءها وضعت على صورتها التى عليها الآن باتفاق حال وقعت فى كل شهر منها ، فسمى الشهر بها عند إبتداء الوضع . وذكروا أن أول من سماها بهذه الأسماء هو كلاب بن مرة . ومن هذه الشهور أربعة حرم لايجوز فيها غزو ولا قتال وهى : رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . ولقد وافق شهر رمضان عند وضع تسمية الشهور أيام رمض الحر فسمى بذلك. ويبدأ الجاهليون بالمحرم ، فهو أول السنة عندهم ، وهو أيضاً الشهر الأول من شهور السنة الهجرية فى الإسلام . ونرى أن إتخاذ المسلمين للمحرم مبدءاً للسنة الأولى من الهجرة وجعله الشهر الأول من التقويم الهجرى ، هو من الأمور التى أبقاها الإسلام من أمور الجاهلية ، لأن هجرة الرسول إلى المدينة لم تكن فى شهر المحرم ولكن هجرته كانت فى ربيع الأول ، وقد قيل أن وصوله عليه السلام المدينة كان يوم الأثنين الثامن من ربيع الأول ، وقيل لثنتى عشرة منه .

ويظهر من تفسير هذه الأشهر وتعليلها أن لتسميتها علاقة بالمواسم والظواهر الطبيعية من برد وحر واعتدال فى الجو . وقد سمى المحرم محرماً لتأكيد تحريم القتال فيه ، وسمى صفر بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يسافرون أو يخرجون للقتال . وسمى ربيع الأول والثانى بذلك لارتباعهم فيهما ، وسمى جمادى

الأولى والآخرة لشدة البرد فيهما ولجمود الماء فيهما . وسُمى رجب رجباً من الترجيب وهو التعظيم ، وشعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ، ورمضان من شدة الرمضاء وهو الحر ، وشوال لارتفاع الحر وإدباره ، وذو القعدة لقعودهم فيه عن القتال والارتحال ، وذو الحجة لقيامهم بالحج فيه .

وعرف العرب (الأيام) منذ القدم ، كما ورد فى نصوص المسند ، ومبدأ اليوم عندهم من وقت غروب الشمس وانتهاؤه مع بداية الغروب التالى له . وقد أوردت كتب اللغة والأخبار أسماء الأيام عندهم وهى : (شيار) ويُراد به السبت ، و (أول) به الأحد ، و (أهون) ويُراد به الأثنين ، و(جبار) ويُراد به الثلاثاء ، و (دبار) ويراد به الأربعاء ، و (مؤنس) ويراد به الخميس ، و (عروبة) ويراد به الجمعة . ويذكر علماء اللغة أن أيام الأسبوع المعروفة والمتداولة عندنا فى الزمن الحاضر هى أسماء إنما عُرفت وظهرت فى الإسلام ، لكنهم للأسف لم يذكروا متى كان ظهورها ولا فى أية سنة كان ذلك ، وكل ما ذكروه عن ذلك أن العرب الاسماعيلية من ولد إسماعيل قد أخذوا هذه الأسماء عن أهل الكتاب حين جاوروهم .

وعرف العرب النسيء ، وكانوا يؤخرون الأشهر الحرم إلى شهر آخر ، والنسيء هو تأخير الوقت ، وقد يؤخر العرب حرمة المحرم إلى صفر وجعل شهر المحرم حلالاً يجوز لهم فيه القتال ، لأنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر حُرم لا يغيرون فيها ولايغزون ومعاشهم على الغزو والاغارة ، ففعلوا لذلك النسيء . وقد كانوا يستحلون ترك الحج فى الوقت الذى هو واجب فيه ويوجبونه فى الوقت الذى لايجب فيه ، وجوّزوا ذلك حتى ضلوا باتباعهم هذا التجويز . وبهذا تلاعبوا بالأشهر وأخرجوها عن حقيقتها . وقد جاء معنى النسيء فى الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿ إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا

يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ما حرم الله زُين لهم سوء أعمالهم والله لايهدى القوم الكافرين ﴾ . وصار النسىء عادة من عادات العرب القديمة إلى أن منعه الإسلام وحرمه . وذكر اليعقوبى أن أول من نسأ الشهور سرير بن ثعلبه بن مالك الكنانى .

وطريقة الناسىء فى إعلانه النسىء على الناس فى الحج أن يقوم هذا الرجل ، وهو من كنانة ، فيقول : « أنا الذى لايُرد لى قضاء » فيقولون : « أنسئنا شهراً » ، فيقول : « اللهم إنى لا أعاب ولا أحاب ولا مرد لما قضيت ، اللهم إنى أحللت شهر كذا (وليكن المحرم) وأنسأته إلى العام القابل ، وحرمت مكانه شهر كذا (وليكن صفر) من الأشهر البواقى » ، فكانوا يحلون ما أحل ويحرمون ما حرم . فإذا ما انتهى من هذا الخطاب أباحوا لأنفسهم الغارة فى ذلك الشهر وغزوا ما اعتزموا غزوه . فإذا جاء العام القابل نهض الناسىء ليقول : « إن آلهتكم قد حرمت عليكم الشهر الفلانى (وهو الشهر الذى أحله فى العام الماضى) فحرموه » فيحرمونه .

وإتخاذ التقويم القمرى تقويماً رسمياً للإسلام ، هو من السمات التى إمتاز بها الإسلام عن الجاهلية وأُعتبر من النقاط الفاصلة التى فصلت بين الجاهلية والإسلام . وهكذا زال كبس الشهور كما زال النسىء عن السنة القمرية وعن الشهور لتحويلها إلى سنة شمسية على ما كان يفعله عرب الجاهلية .

ولقد عرف العرب الأقدمين التأريخ ، وقد تبين من دراسة نصوص المسند أن أصحابها إستعملوا عدة طرق فى تأريخهم للحوادث وتثبيت زمانها . فأرخوا بحكم الملوك من غير تعيينه بسنين . كذلك أرخ العرب بتاريخ سقوط مملكة سبأ . وقد استعمل التقويم الذى يؤرخ بحكم الاسكندر الأكبر تقويماً عند اليونان وعند عرب بلاد الشام ، ومبدأه الأول من شهر نيسان لسنة ٣١١ قبل الميلاد . ويروى

أهل الأخبار أن العرب كانوا يؤرخون بالحوادث العظام التي تحدث لهم ، من ذلك عام الخُنان ، وهو عام وقع فيه ، كما يقولون ، طاعون خطير فتك بالناس والإبل فأرخوا به . كذلك أرخ أهل مكة بعام رئاسة عمرو بن ربيعة المعروف بعمرو بن لحي الخزاعي ، وهو الذي يقال أنه بدَّل دين إبراهيم وجاء بصنم هُبل من الشام . وأرخت كنانة بموت كعب بن لؤي إلى عام الفيل . وأرخت قريش بموت قُصي بن كلاب إلى عام الفيل . وأخذ العرب يؤرخون بعام الفيل إلي أن أُرخ بالهجرة .

ولقد إرتقى العرب بلغتهم وعبروا بها عن ثقافتهم بما أوردوه وخلفوه من خلالها من نثر وشعر دل على ثراء هذه اللغة وتبوؤها المكانة العليا بين اللغات السامية الأخرى .

وحيث أن للغة دلالة على طراز حياة الأمة وعلى مقدار درجة حياتها العقلية نجد العربية غنية غنى « مُفرطاً » في الحدود التي رسمتها لهم بيئتهم ، وهم أغنياء في كل شيء يتصل بحياتهم ، وغنية بمفرداتها وبقواعد نحوها وصرفها واشتقاقها وتصريف كلماتها . وقد نتج هذا الغنى من حاصل لغات العرب ومن كثرة تعدد لهجاتهم ومن إتصال العرب بعضهم ببعض وتكوين قبائلهم أحلافاً سياسية للدفاع عن نفسها وللغزو ، ومن تنقل الشعراء من مكان إلى مكان واشتباك ألسنتهم ، ومن تداخلهم مع الروم والفرس والأحباش واختلاطهم باليهود العرب وهم أهل كتاب ، واختلاط تجارهم بالأعاجم في الشام والعراق . كل ذلك أوجد شعوراً لدى العرب بضرورة التكتل في أمة واحدة ، وقد تجسد هذا الوعي في لغاتهم التي تقاربت وفي الشعر الجاهلي الذي تأثر بأهل الحضر وأصحاب الحضارة .

ثم جاء الإسلام بكتاب سماوي ، صار لسانه لسان المسلمين ، فظهرت

الحاجة إلى التدوين والبحث والتنقيب لشرح هذا الكتاب الكريم وتفسير أحكامه وشرح أحاديث نبى الإسلام ، فكان حاصل ذلك علوم اللسان من مفردات جُمعت من القرآن ومن الحديث ومن الشعر ومن لسان العرب ضبطت فى كتب اللغة والمعاجم وكونت بذلك هيكل اللغة العربية الفصحى . وتولدت فى الإسلام معانٍ خاصة لألفاظ جاهلية غلبت عليها واختصت بها ، وإلى معانيها الجديدة قصد فى الإسلام ، كما اندثرت الفاظ جاهلية فى ظل الإسلام كانت تؤدى معانى خاصة فى ذلك الزمن القديم . وظهرت الحاجة فى الوقت نفسه إلى وضع قواعد فى نحو وصرف هذه اللغة لصيانة اللسان من الخطأ وليتعلم العجم بها كيفية النطق الصحيح بهذا اللسان الجديد عليهم ، وجاب علماء اللغة البادية للأخذ عن القبائل التى حافظت على سلامة لسانها واشتهرت بالفصاحة فأخذوا منهم مفردات اللغة وكل مايتصل بالعربية من أسباب حتى جمعوا ما جمعوه من تراث هذه اللغة الخالد فى بطون الكتب .

ولهجة قريش هى العربية الفصحى التى عمت وسادت فى الجاهلية لافى الحجاز ونجد فحسب ، بل فى كل القبائل العربية شمالا وغربا وشرقاً ، وفى اليمامة والبحرين وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حميَّر واليمن وخاصة فى أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبنى الحارث بن كعب فى نجران . وكانت الفصحى معروفة فى شمال شبه الجزيرة ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هى اللغة الأدبية التى كانت سائدة .

والعربية بجميع لهجاتها وألسنتها مثل اللغات الأخرى ، وفى جملتها اللغات السامية أخذت وأعطت ، قبل الإسلام وبعد الإسلام . والأخذ والعطاء ووضع مفردات جديدة فى لغة ماهما من دلائل الحيوية ومن امارات القوة والتكامل فى

تلك اللغة . وفى القرآن ، كما يذكر العلماء ، أكثر من مائة لفظ معربة ، نصوا على أصولها ، حسب علمهم واجتهادهم واستفسارهم ، من الأعاجم . وهى كلمات دخل بعضها العربية قبل الإسلام بعهد طويل لعدم وجود مثيل لها فى لغة العرب ، فأخرجتها العرب على أوزان لغتها وأجرتها فى فصيحها ، فصارت بذلك عربية . وإنما وردت فى القرآن لأنها كانت قد تعربت وجرت عند العرب مجرى الفصيح ولم تكن لديهم ألفاظ غيرها . وقد أرجع العلماء أصول المعربات الواردة فى القرآن إلى لغات كانت شائعة آنذاك ومعروفة للعرب ، أخذ العرب منها باحتكاكهم بأهلها ، مثل اليونانية والفارسية والسريانية والعبرانية والحبشية والنبطية والقبطية .

وإن وجود المعربات دليل على إتصال الجاهليين بغيرهم وإتصال غيرهم بهم وعلى الروابط الفكرية التى كانت بين العرب فى القديم والشعوب السامية الأخرى .

ولقد جاء هذا الاتصال حين أقام العرب فى المستوطنات اليونانية التى كانت قائمة فى مواضع عديدة من سواحل البحر الأحمر وسواحل الخليج العربى . كذلك جاء من تواجد مختلف أنواع الرقيق فى بلاد العرب وجلب الأعداد الكبيرة منهم فى كل عام يضاف إلى ذلك التجارة مع دولتى الفرس والروم والاحتكاك بشعوبهما والوقوف على أحوالهم والتأثر بثقفاتهم وحضارتهم واقتباس ما يلائمهم منهم . وكان للمبشرين شأن مهم فى نقل التراث اليونانى والآرامى إلى جزيرة العرب فى أيام الجاهلية . ولقد أدخل التبشير ألفاظاً يونانية وسريانية ترد فى الديانة وفى الحياة اليومية إلى اللغة العربية . كذلك كان لليهود أثر خاص فى منطقة الحجاز وفى اليمن حين اختلطوا بعربها احترفوا حرفاً خاصة بهم .

ولقد كانت المعربات السريانية الأصل فى الزراعة فى الغالب والتوقيت

والموضوعات الدينية والصناعية والتجارية . أما المعربات عن الفارسية فهى فى موضوعات زراعية وموضوعات تتصل بالحياة اليومية من مأكل وملبس وأمور اجتماعية وأما المعربات عن العبرية ففى الأمور الدينية وبعض الحرف . وأما المقتبس عن اليونانية فهو أمور حرفية .

ومن أمثلة المعربات الآرامية كلمات : آس (بمعنى ثمرة) ، بطيخ ، ترعة ، ثـوم ، جبن ، جـرام ، حب ، حمص ، خردل ، خس ، خوص ، خوخ ، رمان ، ريحان ، زبـون ، زيتـون ، غابة ، قثاء ، قطران ، قلة ، نشوق ، ورد ، أب (ثمرة) .

وأما المعرب عـن الفارسيـة : بستـان ، جـلاب (ماء الـورد) ، الخربز ، (البطيخ) ، خوان (مائدة) ، فالوذج (نوع من الحلوى) ، سكر ، كعك ، سميـد ، سكبـاج (لحـم يطبـخ بخـل) ، مسك ، استبرق (ثوب حرير مطرز بالذهب) ، بركان ، ديباج ، سروال ، طيلسان ، إيوان ، دانق .

وأما المعـرب عن اليونانية : زنجبيل ، قرنفل ، كافور ، نرجس ، بطريق ، أسقف ، قيصر ، دينار ، درهم ، فلس ، رطل ، أوقية ، قنطار .

وباتصال العربى باليهود فى الحجاز ، دخلت العربية ألفاظ ومصطلحات دينية عبرانية عُربت . مثل : آمين ، إسرائيل ، تابوت ، تلمود ، توراة (شريعة) ، جهنم ، حبر ، سبت ، نبى ، قدوم (فأس) .

وللحديث عن أدب العرب فى الجاهلية ، نقول أن البعض ذهب إلى وجود أدب منثور للعرب قبل الإسلام ، إذ لايُعقل وجود أدب منظوم ثم لايكون للعرب أدب منثور ، ويتجلى طراز هذا الأدب فى الأمثلة والحكم المنسوبة إلى حكماء الجاهلية . وللأسف لم يصلنا كتب أو صحف مدونة ومدون فيها هذا الأدب . وقد حُصرت أصناف البلاغة عند عرب قبل الإسلام فى القصيد والرجز وهما

من الشعر ، وفى المنثور وهو الكلام المرسل وبالأسجاع .

والخطابة وجه أخر من أوجه النشاط الثقافى عند عرب الجاهلية ، وقد كان للخطيب عندهم ، كما يقول أهل الأخبار ، مقام كبير للسانه وفصاحته وبيانه وقدرته فى الدفاع عن قومه والتكلم باسمهم ، فهو فى هذه الأمور شأنه شأن الشاعر ، لسان القبيلة ووجهها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من الخطباء اشتهروا بقوة بيانهم وسحر كلامهم وأوردوا نماذج من خطبهم ، ومنهم من اشتهر بنظم الشعر وعد من فحول الشعراء مثل عمرو بن كلثوم ، ومنهم من كان يقول الشعر بالإضافة إلى علو شأنه فى النثر مثل عامر بن الظرب العدوانى .

والأغـراض التـى توخاها أهل الجاهلية من الخطابة هى التحريض على القتال ، وإصلاح ذات البين ، ثم السفارات إلى القبائل أو الملوك والتفاخر والتنافر والتباهى بالأحساب الأنساب وفى تعداد المناقب .

وأشهر خطباء عرب قبل الإسلام أكثم بن صيفى ، وحاجب بن زرارة التميمى ، والحارث بن ظالم ، وقيس بن مسعود ، وعامر بن الطفيل ، وكعب إبن لؤى ، وعمرو بن عمار الطائى ، وخويلد بن عمرو ، وعبد المطلب جد رسول الله ﷺ ، وحاجب بن زرارة ، وقيس بن زهير العبسى ، وقس بن ساعدة الإيادى ، وكثير غيرهم ممن عاصر الجاهلية والإسلام .

والشعر ، إلى جانب الحكم والخطابة ، من أهم المظاهر التى تحدد لنا معالم العقلية الجاهلية ، وتعطينا فكرة عامة عن ثقافة العرب قبل الإسلام .

ولم يصل لنا الشعر الجاهلى مدوناً فى الجاهلية ولكنه وصلنا مدوناً فى الإسلام بنقول الإسلاميين . ومن الكتب المؤلفة فى الأدب الجاهلى ، واشتهرت خاصة بين أدباء العربية بنقد الشعر الجاهلى وبتوجيه النقد إلى صحة أكثره فأثارت لذلك ضجة كبيرة كتاب « فى الأدب العربى » للدكتور طه حسين .

ولقد أبدى الدكتور طه حسين فى كتابه رأيه ومفاده أن ليس كل ما نُسب للشعر الجاهلى هو شعر جاهلى بل هنالك شعر مدسوس عليهم . ولم ينف الدكتور طه حسين وجود شعر جاهلى ولكنه شكك فى أن هناك الكثير من الشعر المدسوس على شعراء الجاهلية . وأياً كان رأى الدكتور طه حسين فإن ذلك لاينفى أبداً وجود شعر لعرب الجاهلية ، خاصة مع وجود شعر المخضرمين الذين عاصروا الجاهلية والإسلام ، هو فى حد ذاته دليل على وجود شعر جاهلى سابق للإسلام . فشعر مثل هذا لايمكن أن يكون قد ظهر فجأة من غير شعر سابق له وشعراء ماضيين مهدوا الطريق لمن جاء بعدهم ووضعوا لهم البحور المعروفة التى وجدها المخضرمون فنظموا علـــــى منوالها . وفى القرآن الكريم سـورة سميت (بالشعراء) وفى ذلك دلالة على كثرة الشعراء عند العرب قبل الإسلام ومدى تأثيرهم فى الناس وتأثر الناس بهم فى الجاهلية . ولقد تجاسر بعض المشركين فى بداية الدعوة المحمدية على الرسول واتهموه بالشعر ، ونفى آخرون أن يكون شاعراً لأنهم عرفوا الشعر ودرسوه وما يقوله محمد ليس من نظم الشعراء . وقد عرفت مكة الشعراء وبخاصة فى سوق عكاظ وشهدت منتدياتهم ومبارياتهم ، وإتخذ العرب الشعراء كمدافعين لقبائلهم ومتحدثين بلسانهم وجعلوا الشعر ديوانهم .

والشعراء الجاهليون كثيرون وردت أسماء بعضهم فى كتب اللغة والمعاجم وكتب السير والرجال وكتب الأدب ، وهم من قبائل متعددة لكن لغة شعرهم وطريقة نظمهم واحدة . وقد أحصى بعض الباحثين المحدثين عدد أسماء شعراء الجاهلية الذين ذكروا فى كتب الأدب فبلغ عددهم ١٢٥ شاعراً ، ولكننا لانستطيع أن نقول بأن هذا الرقم رقم نهائى ومضبوط بالنسبة لشعراء الجاهلية ، بل هو رقم فقط للمشاهير منهم فى الأماكن التى حصر علماء الشعر فيها نشاط بحثهم عن الشعر الجاهلى وعن شعرائه .

ومن أقدم شعراء الجاهلية : المهلهل بن ربيعة ، أعصر بن سعد بن قيس ،

عنترة بن شداد ، الحارث بن كعب ، جذيمة الأبرش ، ذؤيب بن كعب بن عمرو التميمى ، المستوغر بن ربيعة بن كعب ، عمرو بن قميئه بن ذريح ، سراج بن قره العامرى ، دريد بن الصمة الجشمى ، عامر بن الطفيل ، والحصين بن الحمام المرى .

ومن الشعر الجاهلى قصائد عُرفت فى التاريخ باسم المعلقات السبع ، ويزعم الرواة أن العرب اختارتها من بين سائر الشعر الجاهلى فكتبتها بماء الذهب على القباطى ، ثم علقتها على الكعبة إعجاباً بها وإشادة بذكرها ، وقد بقى بعضها إلى يوم الفتح ، وذهب ببعضها حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام .

وأصحاب المعلقات السبع ، هم الشعراء : إمرؤ القيس ، وزهير بن أبى سلمى ، والنابغة الذبيانى ، ولبيد بن ربيعة العامرى ، وعنترة بن شداد العبسى ، وعمرو بن كلثوم التغلبى ، والأعشى (ميمون بن قيس بن جندل) .

ولقد عرفت جزيرة العرب أنواع الفنون المختلفة قبل الإسلام ، من بناء وعمارة وتصوير ، وشاهد على ذلك ما وُجد من بقايا قصور وتصاوير وتماثيل ترجع إلى عصور سابقة على الإسلام .

ولقد ازدهرت الفنون عموماً فى اليمن وخاصة الفن المعمارى ، وقد توفرت فى اليمن أنواع من الأحجار الصالحة للبناء والنحت ، كما توفرت فيها المواد المساعدة الأخرى التى تدخل فى إنشاء العمارات . ولهذا قامت فيها القصور والبيوت المرتفعة ذات الطوابق المتعددة ، وبفضل المواد المذكورة بقيت بعض ابنية اليمن القديمة محافظة على نفسها وعلى شكلها العام . وقد ساعدت وفرة الرخام والحجارة الصلدة فى اليمن فى التعويض عن استعمال الخشب المتين فى البناء ، فاستعمل المعماريون الأعمدة العالية الجميلة ذوات التيجان فى رفع

السقوف وفى إقامة الردهات الكبيرة فى داخل المعابد . وبفضل هذه الأحجار نجح اليمنيون القدماء فى إقامة السدود القوية التى تحملت على مر الزمن ضغط السيول العالى عليها .

وللأسف فقد زالت أكثر المبانى الجاهلية وحطمت معظم التماثيل ، وقد دُمرت قصور عظيمة كانت فى اليمن مثل قصر غمدان بصنعاء ، وقصر شمر بذى ريدان والمعابد الضخمة وقصور الأسر الحاكمة . كذلك هدمت فى العراق قصور الحيرة وبيوتها واتخذت حجارتها مادة لبناء مدينة الكوفة .

ولاتملك المتاحف فى الوقت الحاضر تماثيل جاهلية بالحجم الطبيعى للإنسان وقد تسبب فى إتلاف هذه التماثيل إعتبار الناس أنها أصنام . ومن بين التماثيل المتبقية ثلاثة تماثيل لملوك من (أوسان) يبلغ ارتفاع إحداها ٨٩ سنتمتراً وقد نحتت من المرمر . وقد اكتشفت حفريات اليمن تماثيل صغيرة لرجال ونساء وأطفال بعضها من حجر وبعضها الآخر من معدن تكشف لنا عن عادات وتقاليد المجتمع فى ذلك العهد . فى مثل الكشف عن الحلى التى كانوا يحلون بها جيد المرأة وعنقها ، أو التى تحلى بها الأيدى أو الأرجل . كما تكشف بعضها عن ملابس ذلك الوقت . كذلك عُثر على عدد من تماثيل الحيوانات المنحوته من المرمر أو من أحجار أخرى .

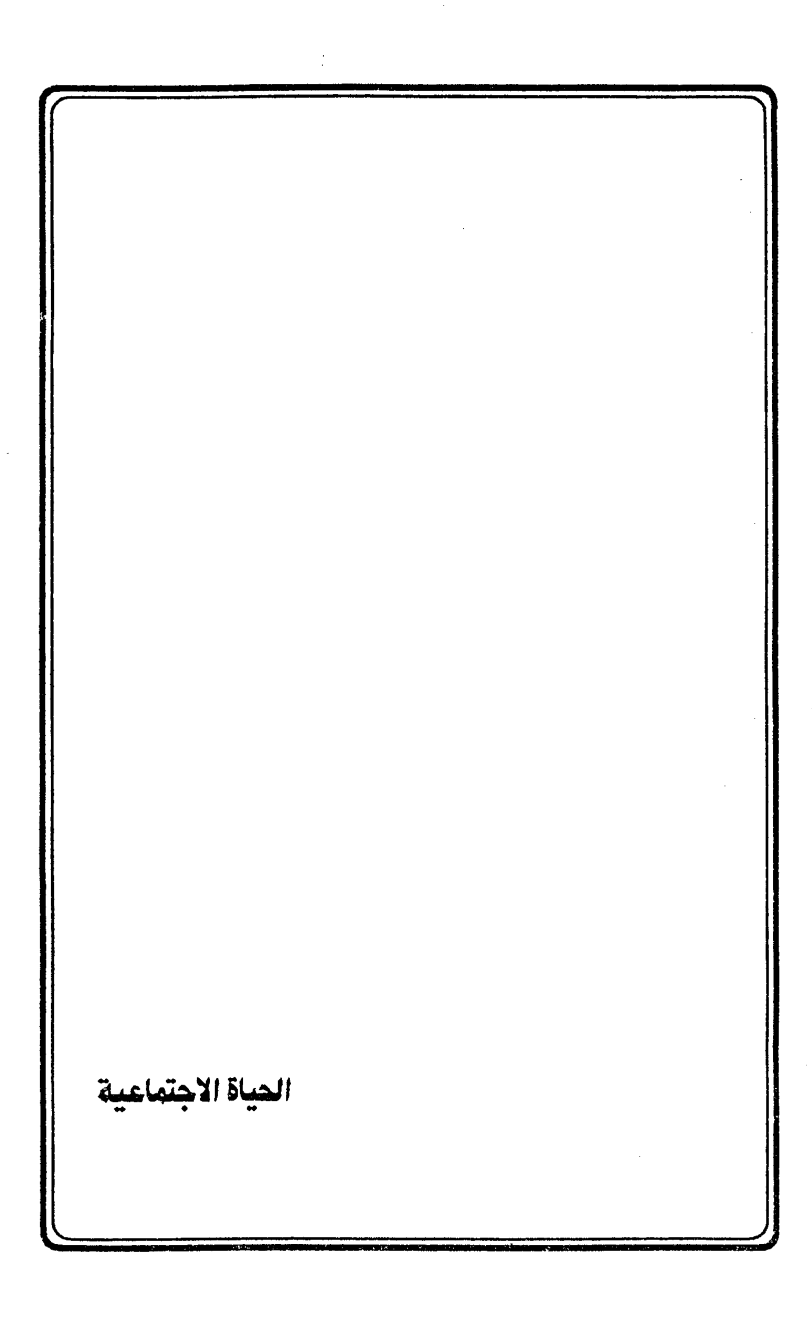
وقد عثر المنقبون والباحثون عن الآثار القديمة على رسوم بشر وحيوان ونبات نقشها الجاهليون على الصخور والحجارة ، ويرمز بعض منها إلى أمور دينية وأساطير قديمة ، ويعبر البعض الآخر عن مواهب فنية عند حافرى هذه الصور . وقد كانت الوثنية لا تتعارض مع التصوير بل كانت تشجعه ، وكانت الأصنام عماد عبادتها وإليها كان عابدوها يقدمون القرابين ويضعونها فى بيوتهم لعبادتها والتقرب إليها والتبرك بها كما أنهم كانوا يمارسون الغناء ويعزفون الألحان ويتغنون مع الموسيقى ، لما لذلك من صلة بأعيادهم وطقوسهم الدينية .

واشتهرت الحيرة بقصرها المعروف بالخورنق ، وهو قصر يقع على ثلاثة أميال منها ، بناه للنعمان بن المنذر المعروف (بالأعور) مهندس رومي اسمه (سنمار) فى عشرين سنة ، وقد لقى البناء مصرعه بسبب هذا القصر فى قصص يرويه عنه أهل الأخبار ، ويضربون به المثل فى المكافأة على الفعل الحسن بالقبيح . فيقولون : (جوزى جزاء سنمار) .

وارتبط باسم الخورنق إسم قصر آخر هو (السدير) ، وقد بنى فى البرية فهو أبعد من الخورنق عن الحيرة . وقد كان ذا قباب ثلاث ، ويتألف من إيوان ينتهى إلى غرفه وعلى جانبيه غرفتان . وكان ملوك اللخميين يقيمون فيه فى قديم الزمان .

ومن الأماكن التى تُنسب إلى ملوك الحيرة موضع يُعرف باسم (الدوْسر) ، كان من أحد أبنية ملوك الحيرة ، ثم ملكه جعبر بن مالك من بنى قُشير فعُرف بقلعة جعبر ، ويقع على الشاطىء الأيسر لنهر الفرات .

وقد تأثر فن بناء القصور فى الحيرة وما والاها من قصور اللخميين بالفن الساسانى الفارسى ، كذلك تأثر تزويق بيوت الحيرة ونقشها بطريقة هذا الفن فى تزيين جدران القصور والبيوت ونقشها .



الحياة الاجتماعية

الحياة الاجتماعية

تألف المجتمع العربى ، قبل الإسلام ، من طبقات ثلاث : طبقة عليا وطبقة وسطى وطبقة دنيا . وكان أرباب الطبقة العليا هم السادة والأشراف ، وهم علية القوم وأشرافهم وأصحاب المنزلة والمكانة السامية فى المجتمع . ويُعد أعضاء الأسرة المالكة فى طليعة السادات ، وهم فى السيادة على حسب قربهم أو بعدهم من الملك . ويقدمون على هذا الأساس عند حضورهم إلى الملك وفى المواسم الرسمية . ولهم أراض يستفيدون من ريعها وامتيازات خاصة وحراس يحرسونهم ورقيق يخدمونهم .

ويقع (الأقيال) ، الإقطاعيون الكبار ، فى الدرجات العليا من درجات المجتمع ، لهم أراضٍ واسعة وسلطان كبير ، وقد يجد القيْل قوة فى نفسه ومنعة فينازع الملك على المُلْك ويأخذ الحكم منه . ويتماثل مع الأقيال فى المكانة : الأذواء ، وهم مُلاك الأراضى الكبار وأصحاب الاقطاعات الكبيرة ، ورؤساء القبائل .

ورجال الدين طبقة فى رأس طبقات المجتمع مكانة ومنزلة ، ولها إمتيازات خاصة ولهم أملاك وأموال ولهم حقوق على الناس يأخذونها منهم . وهم طبقة كبيرة ذات قوة وسلطان مصالحها مع مصالح الحكام بالرغم من الانفصام الذى وقع بين الدولة والمعبد وابعاد رجال الدين عن الحكم وقصر نفوذهم على المعبد وحصر حق الحكم فى الملك وحده . وسادن المعبد وكاهنه هو صاحب أعلى درجات الكهنوت فى جنوب شبه الجزيرة .

ويكوِّن المحاربون طبقة خاصة بهم ، وهم أناس احترفوا الخدمة العسكرية وتعيشوا منها ، وقد كونوا طبقة كبيرة خاصة فى دولة سبأ ، كانت منزلتها دون منزلة الأشراف وأصحاب الاقطاع وفوق رقيق الأرض . وكانوا يستغلون الأرض

التى تُعطى لهم ويستفيدون منها مقابل أداء الخدمة العسكرية والاشتراك فى القتال عند وقوعه ، فهم عساكر وفلاحون فى آن واحد .

ويُشكل التجار الطبقة الوسطى ، ويُقال لهم (مكر) فى لغة المسند . وقد كانوا يتاجرون براً وبحراً ولهم قوافل وخدم يخدمونهم . وقد كانت هذه الطبقة تلعب دوراً كبيراً فى اقتصاد البلاد وفى تزويد الحكومات بالأموال اللازمة لها من الضرائب التى كانوا يدفعونها لها وكانت تشكل مصدراً كبيراً من مصادر دخلها .

ومن الطبقات الدنيا عند العرب الجنوبيين : الأدم والصغرم (والصغار) ، والأجرم (الأجراء) . وتعنى كلمة أدم فى لغة المسند : الخادم ، أو التابع لشخص أو لقبيلة . ولذلك يذكر الأدم إسم سيده الذى ينتمى إليه ويحتمى به ، كذلك كان الأدم من المزارعين الذى لايمتلك أرضاً ، وهو أجير لغيره .

ونجد التفاوت الاجتماعى فى ذروته عند العرب ، ويقع هذا التفاوت فى الدولة وفى المجتمع عند الحضر وعند الأعراب ،ويقع بين القبائل كما يقع فى القبيلة الواحدة . فالقبائل أيضاً منازل ودرجات ، وعلى رأس القبائل تأتى القبيلة التى ينتسب إليها الملوك (المكربون) ، مثل معين وسبأ وقتبان وحضرموت وأوسان .

وأدنى الطبقة منزلة فى المجتمع هى طبقة العبيد التى تقوم بالخدمة وبسائر الأعمال التى يستكنف الحر العمل فيها . وقد يكون معظم أفراد هذه الطبقة من الزنوج المستوردين من إفريقية ، والباقون من الرقيق الأبيض المستورد من أسواق العراق وأسواق الشام . وقد كان العبيد يباعون ويشترون كالمتاع والحيوان والعقار ويتصرف مالك العبد فى عبده تصرفه بملكه الخاص .

ويدخل المستضعفون من الناس ضمن الطبقات الدنيا ، ومنهم الفقراء

والصعاليك والمحتاجون وأبناء السبيل ، ومنهم الطريد والضال والخليع . وإما لانشغالهم بحرف يدوية وهى حرف لاتليق بالرجل الكريم كالحلاقة والحجامة والحمالة . وإما من ناحية أصلهم فهم إما يكونوا عبيداً أوعبيداً مملوكين . وقد عُرِف المعدمون المتربون ، وهم الذين لايملكون شيئاً ببنى غبراء لالتصاقهم بغبراء الأرض ، ويُقال لهم أيضا الصعاليك .

هذا عن مجتمع الحضر أما المجتمع البدوى ، مجتمع الأعراب فهو مجتمع بسيط لانجد فيه ما نجده عند الحضر من اختلاف كبير فى منازل الناس ،وكل ماهنالك من طبقات هو رؤساء القبيلة وأشرافها ، ثم أشراف العشائر ومتفرعاتها . ولهم أموال ورقيق يخدمونهم . أما سواد القبيلة فهم منتشرون فى أرض القبيلة على هيئة مجتمعات صغيرة بسبب ضيق العيش الذى لايساعد على تجمع أفراد القبيلة تجمعاً كبيراً فى مكان واحد . ولرؤساء القبائل الإبل وهى أموالهم ، وهم الذين يستطيعون الذهاب إلى القرى والمدن ومواطن الحضارة للعيش فيها زمناً ولشراء ما يجدون فى أسواقها مما يحتاجون إليه من سلع ولزيارة الملوك والحكام ولقد إستخدم الأعراب العبيد أيضاً لكن بنسبة أقل من أهل الحضر .

وكان الصرحاء الأحرار من أبناء القبيلة العربية فى البادية الذين يجمع بينهم صلة الدم والنسب يمثلون طبقة السيادة فى القبيلة وأصحاب المنزلة العالية فيها . كانوا يتمتعون بحماية قبيلتهم التى تنصر أياً منهم ظالماً كان أم مظلوماً . وكانت لهؤلاء الأشراف من عرب البادية بيوت تتفاوت عندهم فى الشرف والمكانة ، وكانت من بينها بيوت تتفاخر وتتباهى على غيرها فلا تزوج أحداً من أبنائها أو بناتها إلا لمن كان كفؤاً لها . وقد تحدث أهل الأخبار والأنساب عن بيوت تفوقت على غيرها فى ناحية من نواحى الفضل والفخر . ففى كثرة العدد تفوقت بنى سعد عن بقية قبائل تميم ، كذلك تفوقت بنو يربوع فى فرسانها وكذلك بنو سليم .

وقد اشتهرت ثلاثة بيوت شهرة خاصة فى الجاهلية القريبة من الإسلام ، وهى : بيت بنى زرارة فى تميم ، وبيت بنى بندر من بنى قيس ، وبيت ذى الجدين وهم من بنى شيبان من بكر بن وائل .

والشرف فى العرب الجاهلى هو الحسب بالآباء ، ومن الشرف : التخلق بالأخلاق الحميدة وعمل الأمور المحببة المفيدة . والعِرض عند القبيلة العربية ، فى معنى الشرف ، ويتجلى دفاع العربى عن عرض قبيلته وعن عرض من يدخل فى جواره أو فى حلفه . وهو فى سبيل الوفاء بالتزامات العرض يفعل ما يشاء ويدخل فى ذلك القتل والدم . وثأر العرض عند العربى مثل ثأر القتل ، لايهدأ صاحبه ولايهجع إلا إذا أخذ بثأره ممن جار على عرضه .

وتتمثل المُثل الجاهلية العليا فى المروءة ، وهى كمال الرجولة ومن مظاهرها الحلم والصبر والعفو عند المقدرة وقرى الضيف وإغاثة الملهوف وحماية الضعيف ونصرة الجار . والمروءة هى دين الجاهليين ، وقد أقرها الإسلام فيما أقره من فضائل الجاهلية . والشهامة من صفات السيد الشريف النبيل عندهم الذى إذا دُعى أنجد وإذا طُلب أجاب .

وتحدث أهل الأخبار عن جماعة من الجاهليين عرفوا بين قومهم (بالكوامل) منهم ، بنو زياد العبسيون : الربيع وعمارة الوهاب وقيس الجواد .

ومن الخصال الحميدة التى عرفها العرب قبل الإسلام : النخوة ، والكرم والجود . وقد بالغ بعضهم بجوده حتى ضرب به المثل ، ومن هؤلاء حاتم الطائى ، من قبيلة طىء فقيل : « أجود من حاتم » ، ورووا عنه قصصاً كثيراً فى الجود والكرم .

وللجوار حُرمة كبيرة عند عرب الجاهلية ، فإذا إستجار شخص بشخص آخر ، وقبل ذلك الشخص أن يجعله جاراً ومستجيراً به ، وجبت عليه حمايته ،

وحق على المُجار الدفاع عن مجيره وحمايته ، وإن لم يفعل ذلك يكن ناقضاً للعهد مخلفاً للذمة والوعد . ولقد إستجار رجال قبائل برجال قبائل أُخر ، ولقد إستجار رسول الله بالمطعم بن عدى فأجاره حين عاد من رحلته إلى الطائف .

وكانت العصبية للقبيلة هى الظاهرة المميزة لعرب ما قبل الإسلام ، وكان الرجل ينصر قبيلته وتنصره ظالماً كان أم مظلوماً . والعصبية هى أن يدعو الرجل عصبته إلى نصرته ، وترتبط العصبية بدرجة الدم والتحام النسب . وأقرب دم إلى الإنسان هو دم أسرته ، حتى تصل العصبية إلى القبيلة ، والعصبية للحلف . وتدفع العصبية للحلف قبائل الحلف على التكتل والتناصر والوفاء بالعهد ، وعلى أفراد الحلف أن ينصر بعضهم بعضا وعلى قبائل الحلف أن يتآزروا فى دفع الديات وبالمطالبة بديات من يُقتل من قبائل الحلف إذا عجز أهل القتيل أو قبيلة القاتل عن الأخذ بحقه .

وتشمل العصبية كل من ينتمى إلى القبيلة ، أحرارها ، أى أبناءها الخُلصَ الصرحاء ، ومواليها أى كل من يتبع لها من رقيق ، كما تشمل أهل الولاء والجوار . وكل من ينتمى إلى قبيلة حراً كان أم عبداً مملوكاً ويحمل إسمها يتعصب لقبيلته ويزود عنها . وإذا قُتل قتيل للقبيلة لزم كل أفراد القبيلة الأخذ بثأره . والتبعة فى قانون العصبية تبعة جماعية ، ومن هنا خضعت فردية الأعرابى المتطرفة لقانون الجماعة ، أى لسلطان العصبية ، فصار واجباً عليه أن يضع نفسه تحت إمرة القبيلة مستعداً لتنفيذ أوامرها حين يصدر إليه أمر منها . وعليه أن يقدم نفسه طواعية واختياراً لقبيلته ويشاركها فى غزوها وحربها وفى الدفاع عنها والزود عن حوضها .

ومن مظاهر العصبية : الحمية ، وهى الأنفة والغيرة والغضب ، وقد نهى الإسلام عن حمية الجاهلية واعتبرها من الكفر . وقد أدرك الإسلام خطر

العصبية على المجتمع وعواقب الثأر الوخيمة عليه ، فنهى عنها ، وحوّل العصبية الجاهلية إلى عصبية للإسلام ، بأن يتعصب المسلم لدينه ولجماعة الإسلام ، وليدافع عنهما ويقاتل فى سبيلهما . وللأسف إستمرت هذه العصبية فى الإسلام وكانت وبالاً على المجتمعات الإسلامية على مر العهود وسبب تفريق صف المسلمين وتمزيق وحدتهم .

ولقد جر الأخذ بالثأر على العرب قبل الإسلام حروباً مريرة وقتالاً شديداً ، وكان السبب المباشر لما وقع بين القبائل العربية من حروب ومعارك عُرفت فى التاريخ باسم « أيام العرب » . وقد كان الأخذ بالثأر أمراً مقدساً عند عرب الجاهلية ، وكان لابد لصاحب الثأر من الأخذ بثأره ولو كلفه ذلك حياته ، كما أن واجب الثأر عندهم كان يتوارثه الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد . ودخلت القبائل فى الحروب بينها وبعضها بسبب إستمرار نزيف الدم بين أفرادها طلباً للثأر .

ولم تكن كل أيام العرب حروباً ، بل كانت الهدنات تتخلل هذه الحروب ، وكذلك كانت المناوشات والمهاترات والقتال بين الأفراد دون جماع القبائل . وتظل القبائل تتفاخر بانتصاراتها فى المواسم والأسواق وتشيد بأبطالها وتحط من قدر أعدائها مما يشعل نار القتال من جديد بين هذه القبائل بعد توقفه لبعض الوقت .

ومن أشهر أيام العرب التى وقعت بين المناذرة والغساسنة القحطانيين : يوم عين أباغ ، ويوم مرج حليمة (بالقرب من قنسرين بين حلب وحمص) . كذلك يوم البردان بين كندة وقضاعة ، ويوم الكلاب الأول (بين الكوفة والبصرة) ، ويوم اليحاميم بين قبيلتين من طىء ، هما : جديلة والغوث . كذلك تُعتبر الحروب التى وقعت بين الأوس والخزرج بالمدينة من الوقائع التى

دارت بين القحطانيين وبخاصة يوم بُعاث ، الذى وقعت حربه قبيل ظهور الإسلام .

أما أشهر أيام العرب العدنانية ، فهو يوم حرب البسوس بين بكر وتغلب إبنى وائل والتى استمرت أربعين سنة بسبب امرأة عجوز من بكر تدعى البسوس قُتلت ناقتها ، ويوم الزورين بين بكر بن وائل وتميم . ويوم داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وكان سبب إشتعال حربها رهان على سبق بين فرسين هما داحس لقيس بن زهير والغبراء لحمل بن بدر فسميت الحرب باسميهما ، واشهر الحروب التى دارت بين قيس وكنانة هى أيام الفجار ، وسميت بذلك لوقوعها فى الأشهر الحرم التى حرم فيها القتال . وكانت الفجار الأولى بين كنانة وهوازن ، والثانية بين قريش وهوازن ، والثالثة بين كنانة وهوازن ، والرابعة بين قريش وكنانة معاً ضد هوازن . وكانت الفجار الرابعة أشهر هذه الأيام ووقعت قبل مبعث رسول الله بست وعشرين عاماً ، وقد شهدها الرسول مع أعمامه وهو ابن أربعة عشر عاماً . وقد قامت بسبب قتل قريش لأحد من رجال هوازن وكان على رأس قافلة تجارية قادمة من عند النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

وأشهر الحروب التى وقعت بين القحطانيين والعدنانيين ولعبت العصبية القبلية فيها دوراً كبيراً : يوم ظهر الدهناء الذى إنتصرت فيه قبائل طىء اليمنية على بنى أسد العدنانية .

ولقد تباهى رجال القبائل بهذه الأيام وعدوها من أهم مفاخرهم برغم ما زرعته بينهم من كراهية وحقد وإنقسام وجروح ظلت غائرة معهم طوال تاريخهم الجاهلى وحتى فى ظل الإسلام ، فكان هذا النزاع المستمر بين القبائل العربية بسبب الثأر والعصبية القبلية من أسوأ الخصال والمظاهر التى عاشها المجتمع العربى قبل الإسلام .

ومن عادات العرب الطيبة قبل الإسلام الوفاء بالعهد ، فإذا أعطى الرجل

منهم عهداً كان لابد له من المحافظة عليه وعدم الغدر حتى ولو كلفه ذلك الأمر حياته . وكان فى الجاهلية إذا غدر رجل ونكث العهد يرفعون له فى سوق عكاظ لواءً ليعرفه الناس ، وقالوا أن : لكل غادر لواء . وينصب اللواء فى موضع ظاهر من السوق ليشاهده الناس ويعرفون صاحبه ويمتنعون عن التعامل معه . وفى بعض الأحيان كانوا يصنعون للغادر تمثالاً من الطين ينصبونه فى الأماكن العامة يراه الناس ويحذروا صاحبه ، وكان يعرف بتمثال الغدر والخيانة .

ومن أوفياء العرب فى الجاهلية : عوف بن ملحم الشيبانى ، ومروان بن زنباع ، وعمير بن سلمى الحنفى . وقد عد الوفاء شيئاً حميداً ، ولأجل تأكيده وترسيخه كان رجال القبائل يقدمون أبناء سادتهم كرهائن للملوك والحكام ضماناً لهم فى مقابل وفائهم بما تعهدوا به وعاهدوا عليه .

ولقد جُبل العربى على الحرية ، وهو لايقبل الضيم ، ولايخضع إلا لقبيلته فى إطار الحفاظ على حريته الشخصية ، وقد طبعت الحياة الصحراوية أصحابها بطابع الإفراط فى حب الحرية الفردية .

ويبقى الفرد متمتعاً بحماية قبيلته مادام ملتزماً بما عليه من واجبات تجاهها ، أما إذا ما أجرم أو أرتكب عملاً منافياً للشرف عامة ولشرف قبيلته واستمر فى خروجه دون أن يردعه رادع ، يفقد بذلك عطف وحماية قبيلته له فتقوم بخلعه فيهيم على وجهه طريداً فى الصحراء . ويقال للرجل الذى يخرج عن طوع قبيلته : الخليع والطريد ، ويعلن خلع الخليع فى المواضع العامة وفى المواسم ، وقد كان الحج من المواسم المناسبة لإعلان خلع الخلعاء ، كذلك مواسم الأسواق وبخاصة موسم سوق عكاظ . وقد يضطر الخليع إلى العيش عيش الصعاليك والانضمام إلى عصابات قاطعى الطريق . وقد كان الشاعر عروة بن الورد من هؤلاء الخلعاء الذى جمع حوله الصعاليك الذين كانوا يقومون بالإغارة على

القبائل والسطو على القوافل ، وعُرف بعروة الصعاليك .

ولقد كانت للعرب فى الجاهلية عادات اجتماعية وتقاليد تأثرت بمعتقداتهم الدينية وبطبيعة بلادهم الصحراوية الغالبة . فكانوا يؤمنون بوجود قوى خفية خارقة لها أثرها الكبير فى حياة الناس وفى أعمالهم ومستقبلهم ، لذلك عمدوا إلى التقرب لهذه القوى بتقديم القرابين والنذور والتضرع وطلب العفو منها فى مناسبات كثيرة . ولذلك آمن العرب بقدرة المنجمين والسحرة على حمايتهم من أخطار هذه القوى والتزموا بتعليماتهم وعملوا على تنفيذها على الوجه الأكمل . كما آمنوا بقدرتهم على تسخير الجن فى محاربة هذه القوى وفى منع الجن ذاته من إيذائهم أو التعرض لهم . وقد كان لكل قبيلة كاهنها أو عدة كهان يرجعون إليهم ويتنبأون لهم بمستقبلهم .

وكان العرب قبل الإسلام أيضاً يلجأون إلى العرافين الذين كانوا يقومون بأعمال التنجيم ، ويلجأون إلى القيافين الذين كانوا يتتبعون الأثر ، وإلى العيافين الذين كانوا يتنبأون بملاحظة حركة الطير والحيوان ودراسة أصواتها وقراءة مابداخل أحشائها .

وكان الاستقسام بالأزلام ، وهو الاحتكام إلى أسهم كُتب على بعضها : « إفعل » وعلى البعض الآخر « لاتفعل » ، وهو إحدى طرق التنبؤ ، وكان الكهنة يقومون به أمام الأصنام حتى يظهرون أن ذلك من إرادة الآلهة ومشيئتها . وكان سدنة هُبل من أكبر هؤلاء المستقسمين ، لما لهبل من مكانة كبيرة عندهم ، وكانوا يتقاضون عن ذلك دراهم كثيرة . وقد كان الاستقسام جزءاً من حياة العرب اليومية فكانوا لايقدمون على شىء إلا بعد إذن الأزلام لهم بذلك من سفر أو عمل أو زواج . وقد حرم الإسلام ذلك واعتبره فسقاً فى قوله تعالى : ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ﴾ .

كذلك كان العرب يستطلعون حظوظهم بضرب الحصى وطرقه ، كذلك كانــوا يزجرون الطير بالحصى ليفزعوها ويراقبون حركة طيرانها فى أى إتجاه طارت ، فيتفاءلون بتيامنها ويتشاءمون بتياسرها . وقد عرف العرب التطير ، وهو التشاؤم والتخوف ، فقد تطيروا من الغراب والبوم والحدأة ، وتطيروا من ذوى العاهات ومن بعض الأسماء ومــن بعض ساعات اليوم وبعض الأيام وبعض الأرقام ، وبعض النساء . وقد نهى الرسول الكريم عن الطيرة والتطير .

وكان العرب قبل الإسلام ، يستخدمون الرقية فى مداواة بعض الأمراض ، ويعتقدون فاعليتها وجدواها وبخاصة فى الأمراض العصبية كالمس والجنون والصرع . كذلك كانت لهم رقيات لمنع تأثير لدغات العقارب والثعابين . وقد لبسوا لذلك الأحجبة والخرز وسن الثعلب .

وكان التفاخر من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية عند أهل الجاهلية ، وخاصة التفاخر بالأنساب وبالآباء والأجداد وبالسيادة والشرف وكثرة العدد . وعرف بعض الجاهليين بالخيلاء والزهو والتكبر ، وقد اعتبرها الإسلام من سمات الجاهلية ، والتبختر وهى مشية العجب والخيلاء ، وكانت مشية بعض المغرورين المترفين من أصحاب المال والجاه .

ولقد كان للعرب فى الجاهلية هجاء كثير ، ورد فى أشعار شعرائهم ، وقد حفظ الرواة بعض الأشعار التى قيل أنها كانت من أهجى أشعار العرب فى الجاهلية . كذلك كانت لهم شتائم وسباب بغيض .

وعُيرت العرب فى الجاهلية بالبخل والحرص الشديد على المال ، كما عُيرت بالحسد والجبن والخمول .

وقد أبطل الإسلام سمات الجاهلية السيئة ، وفى جملة ما حاربه الإسلام من أمور الجاهلية عبادة الأصنام والأوثان ، فطمست وأزيلت معالمها . وحارب

الإسلام العصبية التى كانت من أهم سمات الجاهلية . وفى جملة ما نهى الإسلام عنه دعوى الجاهلية من التفاخر بالأحساب والأنساب والتباهى بالمال والبنين ، وبتحريم بعض الطعام والشراب وبعض العادات الاجتماعية السيئة . وكان وأد البنات هـو أقبح تلك العادات التى عُرفت عند بعض القبائل العربية قبل الإسلام . وكانت تلك القبائل تفعل ذلك خوفاً من الحاق العار بالعشيرة يوم يخطف إبنتهم عدو يهتك عرضها ، أو لولادة بنت مصحوبة بقبح أو مرض أو نقص خلْقى . وقد ورد تحريم ذلك فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ﴾ ، كذلك كان من عادات بعض القبائل السيئة قتل الأبناء ، ذكوراً وإناثاً ، خشية الفقر والحاجة ، فنهى الإسلام عن ذلك وجاء فى صريح قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾ .

ومن عادات بعض القبائل السيئة النواحة على الميت ، وشق نسائهم جيوبهن ولطم خدودهن وحسوْ التراب على رؤوسهن ويستمر ذلك لعدة أيام ، وقد نهى الإسلام عن ذلك فى قول رسول الله ﷺ : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعى بدعوى الجاهلية » .

ومن عادات العرب السيئة قبل الإسلام دفن الميت بملابسه ، وقد أحل الإسلام الكفن محل الملابس ، ولم يسمح الدفن بالملابس إلا للشهيد . وكانوا يدفنون موتاهم فى بيوتهم ، فنهى الإسلام عن ذلك بقوله ﷺ : « لاتجعلوا بيوتكم مقابر » ، كما نهى عن دفن بعض الأشياء مع الموتى مما كانوا يظنون أنه سيحتاج لها فى الحياة الآخرة . كذلك نهى عن عقل ناقة الميت عند قبره ، وقد كانوا يفعلون ذلك بأن يعكسوا عنق الناقة ويديرون رأسها إلى مؤخرها ويتركونها فى حفرة بجوار قبره دون طعام ولا ماء حتى تموت . وكانوا فى بعض الأحيان يقومون بحرقها بعد موتها . وكانوا يعتقدون بأن من يموت ولا تعقل ناقته يُحشر يوم البعث ماشيا ، أما من عُقلت ناقته فيحشر راكبا .

وبصدد الزواج ، كانت تقاليد العرب فيه قبل الإسلام تقريباً ما هو متبع عند العرب الآن . وتبدأ مراسمه بطلب الرجل الفتاة التي يريدها زوجةً له من والدها أو من ولي أمرها إذا مامات والدها . وكان يؤخذ رأى الفتاه فيمن يتقدم لخطبتها وتلزم موافقتها عليه وتفويض والدها أو ولى أمرها فى إتمام مراسم الزواج والاتفاق على تفاصيله ، وفى تاريخ عرب قبل الإسلام الكثير من الأمثلة على ضرورة أخذ رأى الفتاة فيمن يريدونه زوجاً لها .

وكانت الخطوة التالية بعد ذلك الاتفاق على المهر الذى يقدمه الرجل لخطيبته ، وكان فى العادة يقدم ذهباً وفضة ، وإن كان فى بعض الأحيان يقدم نياقاً وإبلا . وقد كان مهر عبد المطلب بن هاشم ، جد رسول الله ، لفاطمة بنت عمرو ، على ماورد ، مائة ناقة ومائة رطل من الذهب . وكان المهر يصبح حقاً خالصاً لوالد الفتاة أو ولى أمرها يتصرف فيه كيف شاء . فإذا ما ووفق على الخطبة تنحر الإبل ويمد الطعام ويسمع غناء النساء فى مجالسهن ، وتسمى وليمة ذلك اليوم بالنقيعة . ويأتى بعد ذلك يوم البناء ، وفيه تتم مراسم العرس الذى يتميز بالفرح والسرور ، وتزين العروس ، وبعد أن تتلقى النصائح من أمها ، تزف إلى عريسها وتسير فى كامل زينتها فى حشد من أقاربها ومعارفها وجيرانها وأهل قبيلتها إلى منزل زوجها .

ولقد كان عند العرب قبل الإسلام أنواع أخرى من الزواج ، قام الإسلام بتحريمها لمخالفتها روح الشرع ووجود الفساد فيها ، ومنها : زواج الشغار ، وهو يقوم على المبادلة ، فيزوج الرجل إبنته أو أخته للرجل على أن يزوجه الآخر إبنته أو أخته بدون مهر . وكان ذلك يتم بقول الرجل للآخر : « شاغرنى أختك أو إبنتك » ، أى زوجنى إياها ، فيرد عليه بالموافقة . وقد عكس هذا النوع من الزواج روح الإتجار عند العرب والمبادلة فيها ، واعتبار بناتهم سلعاً تباع وتشترى وتتبادل كأى سلعة من السلع دون عمل أى حساب لآدميتهن .

كذلك حرم الإسلام ما عُرف عندهم باسم زواج المقت ، وهو أن يتزوج الإبن الأكبر إمرأة أبيه بعد موت أبيه بطرح ثوبه عليها ، على إعتبار أنها جزء من الميراث مثلها فى ذلك مثل المتاع والعقار والمال ، وللحفاظ على ثروة الأسرة والعشيرة ومن بينها الزوجة والأولاد . وكان الوريث إذا كره نكاح زوجة أبيه نصّب نفسه ولياً عليها فيمنعها من الارتباط بغيره حتى وفاتها وبذلك يعضلها ويستذلها . وقد جاء تحريم هذا النوع من الزواج (فى سورة النساء : ١٩ ، ٣٢) فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتُذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ ، ﴿ ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ماقد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا ﴾ .

وحرّم الإسلام أيضاً النكاح الذى كان يُعرف فى الجاهلية باسم نكاح الرهط ، أو نكاح المشاركة ، ويقصد به أن تتزوج المرأة من أكثر من رجل فى وقت واحد . وفى مثل هذا الزواج تختلط الأنساب وتضيع الأبوة الحقيقية للمولود ، لأن المرأة فى هذا الزواج إذا ما أنجبت تقوم هى باختيار الأب الرسمى لزوجها حسب هواها ، وقد لايكون من تختاره والده الحقيقى .

كذلك حرّم الإسلام نكاح الاستبضاع ، وقد كان من أرذل أنواع الأنكحة التى كانت سائدة فى الجاهلية . وفى هذا الزواج يقول الرجل لزوجته ، إذا ماطهرت من طمسها ، إذهبى إلى فلان فاستبضعى منه ، ثم لايمسها حتى يتبين حملها من الرجل الذى استبضعت منه . وكانوا يفعلون ذلك رغبة فى إنجاب ولد ذى صفات معينة كالشجاعة أو القوة البدنية أو الحكمة فى الشخص المُستبضع منه . وقد حرمه الإسلام لأنه الزنا فى أسوأ أشكاله .

وأيضاً حرم الإسلام نكاح الخدن ، وهو جماع الرجل لجواريه والزنا بهن دون عقد زواج لينجب منهن ذريةَ تعينه فى أعماله سواء كانت زراعة أم تجارة .

كذلك منع الإسلام النكاح بالأسر ، وهو ماكان يُعرف عندهم بالنزيعة ، لأن المرأة المأخوذة بالسبى تعرف بتلك التسمية لانتزاعها من أهلها بالقوة . وأيضاً منع الإسلام ، ما كان سائداً فى الجاهلية ، من جمع الرجل بين الأختين فى فراش واحد ، أو الجمع بأكثر من أختين فى فراش واحد .

وكان من حق الرجل فى الجاهلية أن يتزوج بأى عدد من النساء من غير تحديد ولا حصر وكل حسب مقدرته إذ لم يحدد عُرفهم عدد مايتزوجونه من نسوة ، وقد ورد أن أحد الرجال قد تزوج حوالى خمسمائة إمرأة مدة حياته . فلما جاء الإسلام حدد عدد الزوجات وجوّز للرجل أن يجمع فى وقت واحد بين أربع زوجات حرائر ، وأطلق له العدد فى الجوارى والإماء . وجعل الإسلام الغاية الأولى من الزواج الاستقرار وتكوين الأسر وإنجاب الأولاد . ولقد كانت الغاية الأولى عند العربى قبل الإسلام من الزواج هى الإنجاب ، وبخاصة إنجاب الذكور ، وقد أُتخذ العقر عندهم سبباً شرعياً من أسباب الطلاق .

وقد كان عند عرب الجاهلية ما يُعرف بالزواج السياسى ، وهو أن يتزوج سيد قبيلة إبنة سيد قبيلة أخرى فيشد ، بزواجه هذا ، من قوة قبيلته ، وقد عُمل بهذا الزواج كثيراً فى الإسلام كما عُمل به فى الجاهلية . وعلى سبيل المثال ، فلقد استفاد معاوية بن أبى سفيان كثيراً بزواجه من قبيلة كلب التى أيدته وساعدته وكانت سبباً فى وصوله إلى الخلافة .

وكانت المرأة الشريفة تقوم بخطبة من تريده زوجاً لها ، وقد طلبت السيدة خديجة الزواج من النبى بعدما تراءى لها من صفاته الطيبة وأخلاقة النبيله وما عُرف به من كمال الصفات فى المجتمع الجاهلى . وكانت بعض بنات الأسر الرفيعة يشترطن أن تكون العصمة بأيديهن ، أى أن يكون حق الطلاق بأيديهن إذا أردنه وذلك لشرفهن ورفعة قدرهن .

وكان عرب الجاهلية يراعون التكافؤ فى زواجهم ، فكل يتزوج من طبقته ، ويعتبرون غير ذلك نشوذاً . وكان العربى ينشد البيت الطيب عند إقدامه على الزواج أكثر من بحثه عن الجمال ، لعلمه ما للبيت الطيب من أثر فى أخلاق المرأة وفى نجابة الأولاد وتربيتهم . وقد ورد عن حكمائهم القول : « المناكح الكريمة مدارج الشرف » . وكان إبن العم يُقدّم على غيره إذا مارغب فى الزواج من إبنة عمه . وليس لغريب أن يتزوج من بنت قبيلة غير قبيلته إلا بموافقة أبناء أعمامها ورضاهم وإعلانهم عدم رغبتهم الزواج منها .

وكانت للعرب فى الجاهلية عادات فى الطلاق ، وقد كانت من عادتهم التطليق ثلاثا على التفرقة . ومن أنواع طلاقهم : الظهار والإيلاء والخلع . والظهار هو أن يقول الرجل لزوجته : « أنت علىَّ كظهر أمى » أو كبطنها ، وبذلك تحرم عليه ويكون تطليقها ، والإيلاء هو الحلفْ على ترك المرأة مدة ، وأما الخلع فهو فراق الزوج زوجته على أن تدفع له مالاً تشترى به حريتها . وكانت للنساء عادة تقوم بها إذا ما أرادت الطلاق من زوجها ، وهى أن تحُول الفتحة المؤدية إلى خدرها فى الخيمة إلى الناحية المضادة ، حتى إذا جاء الزوج ووجد الأمر كذلك فهم المراد وأحجم عن دخول الخيمة ويقع بذلك التطليق .

وكانت النساء فى الجاهلية يبالغن فى حزنهن على وفاة أزواجهن فليزمن بيوتهن مدة سنة وهن لابسات شر ثيابهن ، وقد نهى الإسلام عن ذلك وجعل لهن عدة يعتدونها ومنع عليهن مظاهر الحزن الشديد ، كما منعهن من لطم الخدود وشق الجيوب والدعوة بدعاء الجاهلية عند توديع الميت إلى قبره ، كما منعهن من زيارة القبور .

وكان من عادة العرب فى الجاهية ذبح شاة عند ميلاد مولود لهم وتلطيخ شىء من دمها رأس المولود ، ويقال لهذه الذبيحة : العقيقة ، وتذبح عادةً فى اليوم السابع للميلاد .ولقد كان الختان من عادات الجاهلية القديمة ، وقد أقره

الإسلام ، ولم يعيّن عرب الجاهلية عُمراً معيناً للإختتان ، وكان اليهود قد جعلوا الاختتان للولد يوم السابع من مولده وفقما جاء فى كتاب العهد القديم ، ولم يكن لعرب الجاهلية قواعد ثابته معينة فى تسمية المواليد ، وكان الأجداد والآباء هم الذين يسمون الأولاد ، أما تسمية البنات فكانت فى الغالب من اختصاص النساء ، ويثبت إسم المولود ويحدد يوم العقيقة . وتذكر كتب السيرة أن جد النبى عبد المطلب هو الذى سمىَّ النبى محمداً يوم ذبح له عقيقة على عادة العرب فى اليوم السابع من مولده . ولقد اعتاد العرب أن يسموا أبناءهم أسماءاً تحمل معنى الشدة والصلابة والقوة والتخويف مثل : صخر وحرب وصقر ، وتسمية خدمهم أسماء سهلة مريحة مثل : ريحان وورد وياقوت ، وقد عللوا ذلك بأن أسماء أبنائهم لأعدائهم وأسماء خدمهم لهم . وقد عمَّر بعض أهل الجاهلية وتعدوا المائة عام من العمر ، ومن هؤلاء الحارث بن كعب المذحجى الذى عاش مائة وستين عاماً .

وقد أدمن كثير من أهل الجاهلية شرب الخمر ، وكانت الخمارات منتشرة فى كل مكان ولاسيما على الطرق حيث ينزل المسافرون للراحة واستعادة النشاط بعد التعب ومشاق السفر . وكان غالب أصحاب هذه الخمارات من اليهود والنصارى . وقد سمى عرب الجنوب الخمارات بالحوانيت ، بينما سماها أهل العراق بالمواخير . وخمور العرب من العسل والتمر والزبيب والشعير (المزر) . ولقد حرَّم الأحناف على أنفسهم الخمر ، ومنهم : ورقة بن نوفل والوليد بن المغيرة ، وزيد بن عمر بن نفيل ، وقس بن ساعدة الأيادى ، وزهير بن أبى سلمى ، وحاتم الطائى . وقد قتل بعض الجاهليين أنفسهم بشرب الخمر ، ومنهم : عمرو بن كلثوم الثعلبى ، والبرح بن مسهر الطائى ، وزهير بن جناب ، وأبو براء بن مالك بن جعفر .

ولقد اهتم العرب قبل الإسلام بالصيد عموماً : صيد البر والبحر ، فكان

الصيد بالنسبة للأغنياء ترويحا للنفس ورياضة ، وكان للفقراء مصدر غذاء وطعـام . وقد أستخدمت الصقور فى الصيد ، واستعانوا بالكلاب السريعة العدو فيه ، واستخدموا كذلك الشباك فى صيد البر والبحر .

وكان سباق الخيل من أهم رياضات العرب قبل الإسلام ، ويذكر أهل الأخبار أن سيدنا إسماعيل هو أول من ركب الخيل واستأنسها بعد أن كانت وحشية برية مثل سائر الوحوش . وراهن أهل الجاهلية على الخيل ، ومن المراهنات الشهيرة على الخيل التى أدت إلى حرب ضروس فى الجاهلية هو الرهان على الخيلين داحس والغبراء . ولم يقتصر السباق عند عرب الجاهلية على الخيل ، بل سابقوا بين الهجن والكلاب والحمير وحيوانات أخرى . واشتهر العرب أيضاً بالرمى ، وكانت المراماة بالسهام من سباق عرب الجاهلية والإسلام ، وكان الرمى على الحيوان المتوحش .

وفى جزيرة العرب حيوانات وحشية ، وكان من ضمنها الأسود ، ولكن الأسود انقرضت منها الآن . أما فى الجاهلية فكانت للأسود مواضع عديدة فى جزيرة العرب وكانت تُعرف بالمآسد . وكانوا يصطادون الأسود بعملٍ فخاخ لهم فى حفر مغطاه بداخل شباك ، فإذا ما مر عليها الأسد سقط فيها وقُيد بالشباك والحبال . كذلك كانت هنالك الفهود والضباع والذئاب والنسور الكاسرة . وتكثر القردة فى نجود الحجاز واليمن وفى المناطق الجبلية بجنوب شبه الجزيرة وبخاصة فى منطقتى جيزان ونجران .

وكان الحمار الوحشى من الحيوانات المعروفة فى جزيرة العرب ، وكان العرب يأكلون لحمه ، وقد نهى الإسلام عن أكله . كذلك كثرت فى الجزيرة الظباء والغزلان ، وكانوا يكثرون من صيدها ويتغزلون فى جمالها ورشاقتها وسواد عيونها ويضربون بها المثل . كذلك عرفت جزيرة العرب النعام وانتشرت فيها .

وكان من عادة ملوك المناذرة والغساسنة ، الذهاب إلى البادية فى موسم الربيع للصيد والقنص ، ومن الأماكن التى كان ملوك الحيرة يقصدونها لذلك منزل ماوية بين مكة والبصرة ، كذلك كان الملك النعمان بن المنذر ، أشهر ملوك الحيرة ، يخرج إلى البادية وإلى النجف للصيد فتنصب له ولأصحابه القباب ويقضى أيام الربيع هناك مستمتعاً بالخضرة والصيد .

والمجتمع العربى أعطى للرجل السيادة فى الأسرة دون المرأة ، بحكم تفوق بنيته عليها وتعهده بحماية الأسرة ورعايتها وتوفير إحتياجاتها . ولذلك منح الرجل العربى نفسه حقوقاً لم يمنحها للمرأة ، واغتصب حق المرأة والإبنة من حقوق الميراث ، وجعل السيادة فى الأسرة لذكورها فحسب . ولذلك كرهوا إنجاب الإناث وتعلقوا بإنجاب الذكور . وأباح الرجل العربى فى الجاهلية لنفسه الاستمتاع بالنساء وبالخمور وبأطايب العيش ، فأعطى لنفسه الحق فى الزواج من أى عدد من النساء دون تحديد ، وجعل بيده حق الطلاق .

واهتم العربى فى الجاهلية بتربية لحيته واعتبرها منحة طبيعية من مقومات الرجولة مُيز بها عن المرأة . كذلك احتفظ بشاربه مع تخفيفه ، وأطال شعر رأسه وأسدله وفرقه وضفّره غدائر (ضفائر) . وقد اعتنوا بغسله وتنظيفه ودهنه فى غالب الأوقات ، إلا حين يكون لهم ثأر ، فإنهم يتركونه على حاله ولايهتمون بغسله وتنظيفه حتى يبلغوا ثأرهم . واستخدم العرب الزيوت وأنواع الطيب والعطور المختلفة فى دهن شعورهم ولحاهم ، وبخاصة فى أيام الأفراح والأعياد .

وحاول العربى ، قدر إمكانه ، إخفاء شيبه بصبغه والخضاب ، أى إخفاء الشيب بالحناء . وقد قيل أن عبد المطلب جد الرسول ، أول من خضب فى مكة ، وقد نقله عن أهل اليمن حين قام بزيارتهم ، وعنه شاع الخضاب بين أهلها . كذلك أستعمل عرب الجاهية الزعفران والعصفر فى صبغ لحاهم وشعورهم .

وللمرأة دور هام فى حياة مجتمع البادية عنه فى حياة الحضر ، فهى التى تهىء الطعام وتحلب النياق وتغسل الملابس وتغزل الصوف والوبر ، وتعتنى بتربية الأولاد إلى غير ذلك من الأعمال التى كان لايقوم بها الرجل العربى ويعتبرها من إختصاص المرأة .

وقد اختلف حال المرأة فى الجاهلية عنه فى الإسلام ، بسبب تغير الأحوال وتبدل الظروف ، وفرض الإسلام على المرأة رسوماً كان عليها الالتزام بها لصيانتها وحفظها وصيانة أسرتها ونظافة المجتمع الإسلامى . فلقد كان الاختلاط بين الرجال والنساء والتبرج بين النساء شائعاً فى الجاهلية ، وهذا ماوضع الإسلام حداً له بفرض الحجاب عليهن ودعوتهن للقرار فى بيوتهن والبعد عن مواطن الريبة والشبهات .

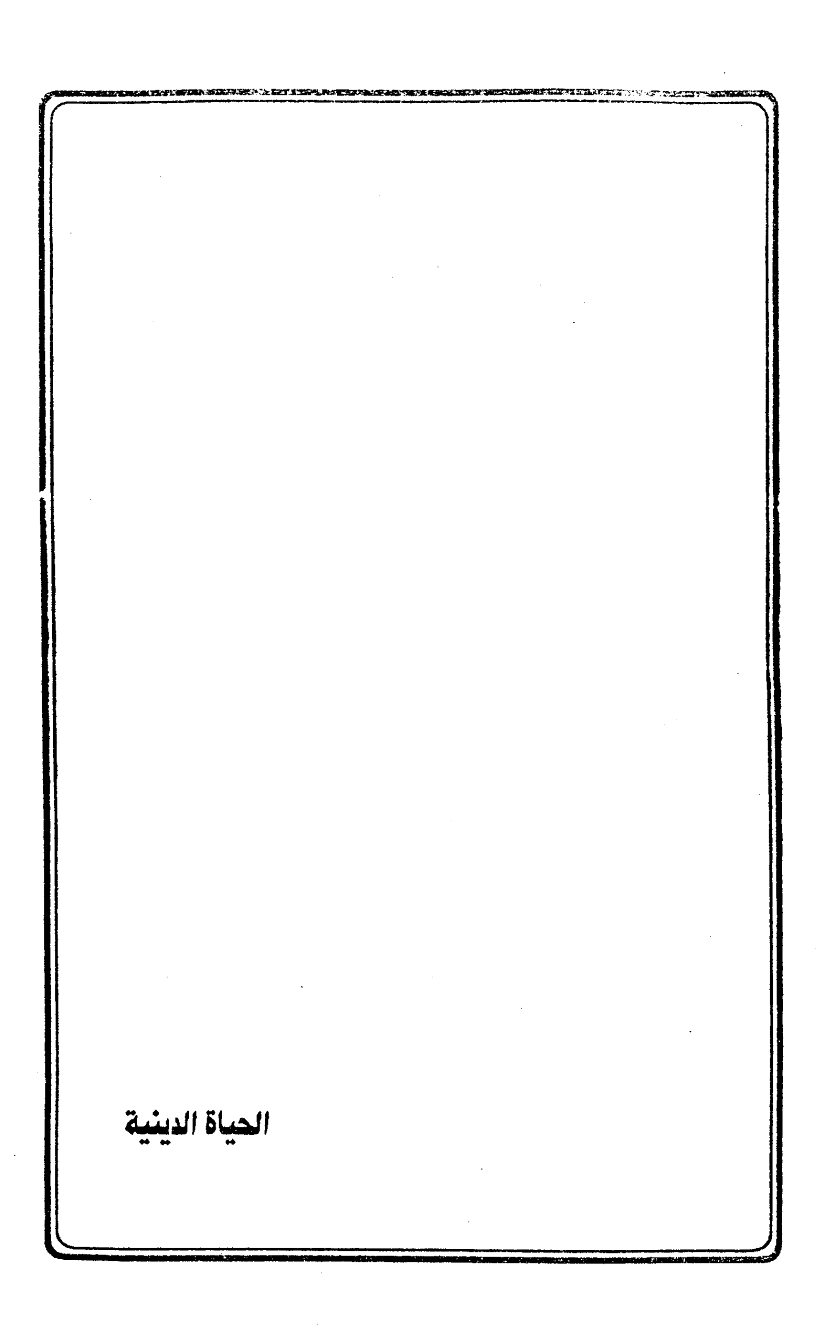
ورأى العرب أنه من الحماقة الأخذ برأى المرأة بسبب ضعفها وقلة خبرتها وضعف رأيها وميلها للعاطفة أكثر من العقل ، وقالوا فى ذلك : « شاوروهن وخالفوهن » . وجمال المرأة عند العربى يتمثل فى إتساع عينيها وشدة سواد حدقيتهما مع وجود بعض الحوَر فيهن ، وفى جمال الأنف وتناسبه مع الوجه وفى ملاحة الفم وسلامة اللسان . والعرب تكنى عن المرأة بالعيال والأولاد والجماعة والعتبة والقارورة والريحانة والنعجة .

ولقد إهتمت المرأة العربية بزينتها وبخاصة الحضرية عن البدوية ، بسبب إختلاف الوضع الاجتماعى والاقتصادى بينهما . وعرفت الحضرية من أمور الزينة مالم تعرفه البدوية من وسائل تجميل وملبس . وتهتم المرأة العربية عموماً بشعرها لأنه أجمل ماوهبها الله إياه فهو أسود شديد السواد غزير ، ولذلك قامت بغسله وتنظيفه وتطييبه وتسريحه وتضفيره . والمرأة العربية تحلق شعرها ، أو تضع الطين أو الرماد عليه إذا مانزلت بها نازلة مثل موت زوجها ، أو موت عزيز لديها .

ويُعد ذلك غاية التضحية منها و إظهار أقصى حزن لها على من فقدت . ويُقال لهذه المرأة (الحالقة) ، وقد لعن الرسول من تفعل ذلك من النسوة ، لأنه إعتراض على حكم الله واحتجاج على قضائه .

ويُسرح الشعر بالمشط ، وهو من خشب ، وقد عرف العرب الأمشاط ، وقد يُعمل من معدن ، وقد يستعمل الأثرياء أمشاطاً من ذهب أو فضة ، وقد تجملت المرأة العربية بالنظافة وبلبس الثياب الجميلة وباستخدام الحلى من سلاسل وخواتم وأقراط وقلائد . وجملت وجهها بالمساحيق وعينيها با لكحل وخضبت يديها وقدميها بالحناء أو وشمتها . وعنت المرأة بنظافة فمها وأسنانها باستخدام السواك ، وعيدان بعض الأشجار ذات الرائحة الطيبة .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نساء شهيرات عشن فى الجاهلية ، أمثال : الزباء ، وزرقاء اليمامة ، وبلقيس كما ذكروا نساءاً اشتهرن بالشؤم وكن سبب حروب وقتال ، مثل : البسوس بنت منقذ التميمية ، والخولاء خبازة بنى سعد ، ومنشم العطارة ، ودغة بنت منعج الحمقاء ، وبرد العجوز .


الحياة الدينية



ارتبطت عبادة العرب الجنوبيين بمظاهر الطبيعة ، فتطلعوا إلى السماء وعبدوا مافيها من كواكب ونجوم وبرق ورعد وسحاب ، وكان العربى يعتقد فى قدرتها على تسيير حياته وتحديد عمره على الأرض ووقت مفارقته لها . وآمن أن إرضائها يجلب له الخير والسعادة والبركة واغضابها يحمل له التعاسة والهلاك . كذلك ارتبطت عبادته للأمطار والآبار والأشجار بالعامل الاقتصادى ورغبته فى إرضاء هذه الآلهة حتى توفر له مايحتاجه فى هذه الحياة ، وهو يعيش فى مجتمع زراعى رعوى يعتمد أساساً على الماء والنماء . والشمس من أهم الكواكب التى عبدها العربى الجنوبى وسجد لها لما يرى من قوتها ودفئها وشدة حرارتها وكبر حجمها عن سائر الكواكب . كذلك كان عشتار (نجمة الزُهرة) من أكبر آلهتهم .

ولم يكن العرب البدو يميلون بطبيعتهم إلى التدين ، وكانوا يعتقدون بأن الأرض مسكونة بالجن الخفى الذى لايظهر وبالأرواح الشريرة المؤذية التى تتشكل على هيئة طير أو حيوان . وقد اعتقدوا أن هنالك عدداً من الحيوانات تجلب لهم الخير أو تسبب لهم الشر مثل البومة والغراب والحيات ، واعتقدوا أن بعض تلك الحيوانات جن فى هيئة حيوان . كذلك إعتقدوا أن الأرواح تحل فى بعض الأشجار فنظروا لها نظرة تقديس وعبدوها خوفاً من الأرواح التى حلت فيها .

وعموماً فقد انتشرت عبادة مظاهر الطبيعة المختلفة ، وهى عبادة وثنية انتشرت فى جزيرة العرب وفى خارجها ، وقد توهم عابدوها أن وراء هذه القوى الطبيعية قوى روحية كامنه فيها هى التى تُسير حياتهم وتتحكم فى حاضرهم ومستقبلهم . وقد إتخذ العرب أصناماً وأوثاناً رموزاً لهذه الآلهة المعبودة وتقربوا بها إلى الأرواح الخفية التى تحكم العالم وتسيره فى زعمهم ، فلم يعبد العرب الأصنام والأوثان لذاتها بل عبدوها لتقربهم إلى الله زلفى . هذه النسوس الضعيفة أعجز من أن

تسموا حتى تتصل بالوجود كله كيما تدرك وحدته ممثله فيما هو أسمى من كل مافى الوجود : ممثلة فى الله تعالى ذى الجلال . وهى لذلك تقف عند مظهر من مظاهر هذا الوجود كالشمس أو القمر أو كالنار أو الشجر ، ثم تضعف عن السمو إلى تصور مايدل هذا المظهر عليه من وحدة الوجود .

هذه النفوس الضعيفة إكتفت بوثن تمثل لها فيه معنى غامض وضيع من الوجود ووحدته ، فإتصلت بهذا الوثن وخلعت عليه من صور القداسة . ولقد كان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة ، وكانت هذه المعبودات الجاهلية تختلف مابين الصنم والوثن والنُصب . فالصنم ماكان على شكل الإنسان من معدن أو خشب . والوثن ماكان على شكل الإنسان من حجر . أما النُصب فهى صخرة غير ذات صورة معينة تقوم بعبادتها قبيلة من القبائل لما تزعمه من أصلها السماوى . ولم يكن العربى يكتفى بعبادة الأصنام الكبرى التى كانت قد نصبت فى أماكن محدودة من أقاليم شبه جزيرة العرب ، بل كان أكثرهم يتخذ له صنماً أو نُصباً فى بيته ، يطوف به حين خروجه وساعة عودته ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم فى السفر . وهذه الأصنام جميعاً ، سواء منها ما كان حول الكعبة أو بداخلها أو ما كان فى مختلف بلاد العرب وبين سائر قبائلها ، كانت تعتبر الوسيط بين عبادها وبين المعبود الأكبر ، ولذلك كانوا يعتبرون عبادتهم إياها زلفى يتقربون بها إلى الله ، وإن كانوا قد نسوا الله بعبادتهم لهذه الأصنام . وقد قال الله تعالى فى ذلك : ﴿ ألاالله الدين الخالص والذين إتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ماهم يختلفون ، إن الله لايهدى من هو كاذب كفار ﴾ .

وقد ذكر عن عبادة العرب للأصنام والأوثان أنه كان الغرض فى أول الأمر منها أنها كانت تماثيل أقاموها من الحجر والمعادن لعظمائهم الذين ماتوا رذوى الأثر الصالح فيهم أو أنها كانت لصور القوى الطبيعية التى اعتقدوا نفعها لهم ولمنع

ضرها عنهم . ولمّا تطاول الزمن عليهم نسوا الغرض الذى من أجله أقاموا هذه الأصنام فتحرلوا لعبادتها ذاتها وجعلوها قربى لهم للمعبرد الأعظم .

وتذكر المصادر العربية نسبة إدخال عبادة الأصنام فى العرب إلى عمرو بن لحيّ الخزاعى ، الذى كان يلى أمر مكة والكعبة فى القرن الثالث الميلادى ، وأنه أول من أدخلها إلى جزيرة العرب ونقلها من الشام ثم انتشرت بين العرب . وأياً كانت صحة هذا الرأى ، فمن المعروف أن عبادة الأصنام انتشرت فى بلاد الشرق من عهد الأنبياء نوح وابراهيم عليهما السلام ، وهى الجاهلية الأولى التى أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى مخاطباً نساء النبى ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ . وقد قص الله تعالى خبر الأصنام التى عبدها قوم نوح على رسوله عليه السلام ، فقال تعالى : ﴿ وقالوا لاتذرن آلهتكم ، ولاتذرن وداً ولاسواعاً ، ولايغوثَ ويعوقَ ونَسْرا ، وقد أضلوا كثيرا ﴾ .

وذكر إبن اسحق أن الذين إتخذوا تلك الأصنام آلهة كانوا من ولد إسماعيل وغيرهم حين فارقوا دين إسماعيل . ومن هؤلاء بنى هذيل بن مدركة بن إلياس إبن مُضر الذين اتخذوا سواعاً إلهاً ، وكان بمنطقة رهاط من أرض ينبع . وإتخذ بنو كلب وبّره من قضاعة وُداً إلهاً بمنطقة دومة الجندل بين الشام والعراق . وعبدت قبائل أنعم من طىء اليمنية وجُرش من مذحج اليمنية يغوثاً بمنطقة جرش باليمن . وعبدت همدان يعوقاً بأرض همدان من أرض اليمن . وعبد بنو ذى الكلاع من حمير باليمن نَسْراً .

وعبد بنو ثقيف بالطائف اللات ورمزوا لها بالزهرة ، وهى الإلهة ڤينوس عند اليونان الأقدمين ، وكان صخرة مربعة على شكل زهرة أقيم عليها بناء ، وكانت فى موضع بناء مئذنة مسجد الطائف اليسرى اليوم .

أما العُزى ، فهى إله القوة عندهم ، وكانت شجيرات فى وادى نخلة عند

يمين الذاهب من مكة إلى العراق ، وكانت منات ، إلهة القدرة والحياة والموت ، عبدها الأوس والخزرج بيثرب ، وكان لها نُصب على ساحل البحر الأحمر ببلدة قديد بين مكة والمدينة .

ولقد جلب عمرو بن لحى ، سيد خزاعة ، فى أوائل القرن السادس الميلادى ، معه من الشام صنماً على صورة إنسان مصنوعاً من العقيق الأحمر ، أسماه « هُبل » وأسكنه جوف الكعبة وجعله كبير الآلهة . ولما كُسرت يده اليمنى إستبدلتها قريش بيد من ذهب .

كذلك عبد عرب الحجاز صنمين هما : إساف ونائلة ، وكانا على موضع من زمزم وكانوا ينحرون عندهما . وقيل إنهما كانا رجلاً وإمرأة من جرهم تواقعا عند الكعبة فمسخهما الله حجرين ليكونا عظةً وعبرة عند الكعبة ، ولما طال مكثهما وعرف العرب عبادة الأصنام عُبدا معها . وقد قيل أنه عند ظهور الدعوة المحمدية كان حول الكعبة ثلثمائة وستين صنماً يعبدهم العرب ويتبركون بهم ويقدمون لهم القرابين . وكان لهذه الأصنام سدنة وحجاب ، فكان بنو شيبان إبن سليم ، حلفاء بنى هاشم ، سدنة وحجاب العزى . وكان سدنة اللات وحجابها بنو معين من ثقيف .

وعبدَ العرب الأنصاب ، وهى صخور ذات صور معينة زعموا أن أصلها سماوى . كذلك قدسوا الكعبة ووضعوا حولها الأصنام وفى جوفها ، ونحروا عندها الذبائح ، واتخذوا مع الكعبة بيوتاً يعظمونها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب يقومون بأمرها وتهد لها الذبائح والهدايا كما تُهدى للكعبة ويطوّف بها كما يطوف بالكعبة . وقد عرف العرب فضل الكعبة ، وعرفوا أنها بيت جدهم إبراهيم الخليل ، وأبقوا فيهم من ملة ابراهيم : تغظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف بعرفه ومزدلفة وذبح البدُن .

وكانت لكل قبيلة طقوسها الدينية ، ومن هذه الطقوس أن قامت بعض القبائل ومنها قريش بتقديس بعض الحيوانات وتحريم ذبحها ، وأطلقت عليها أسماء أعطتها صفة القداسة كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام . والبحيرة عندهم هى الناقة التى يمنع درها وتترك هبة للآلهة فلا يحلبها أحد من الناس ، وكانوا يشقون أذانها ليعرفها الناس ويخلى سبيلها دون أن تركب أو يشرب لبنها ، أو يجز صوفها ، وعرفها ابن اسحق بأنها بنت السائبة . والسائبة هى الناقة التى يسيبونها للآلهة ولا يحمل عليها ولا يركب ظهرها ولا يشرب لبنهـا أو يجز صوفها ، وهى الناقة التى تأتى فى الترتيب بعد ولادة عشر إناث متتابعين ليس بينهن ذكر .

والوصيلة ، هى الناقة البكر التى تبكر فى أول نتاج الإبل ، ثم تثنى بعد بأنثى وليس بينهما ذكر ، فكانوا أيضاً يطلقونها للآلهة لوصلها بناقة أنثى مثلها .

أما الحام ، فهـو فحـل الأبل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر ، فإذا ضرب هذا العدد ودعوه لبيوت عبادتهم وخلوا سبيله وحمى ظهره وأعفوه من العمل ومن الحمل ، فلا يركب عليه ولايجز وبره ولا ينتفع منه وقد أنزل الله تعالى إبطال ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون ﴾ .

وكان العرب يحجون إلى الكعبة فى شهر ذى الحجة ويطوفون حولها لمدة أسبوع ثم يسعون بين الصنمين أساف ونائلة عند الصفا والمروة ثم يقفون بعرفه ساعة غروب الشمس ، ويفيضون منها إلى مزدلفة عند شروقها ثم يذهبون إلى منـى ، وكانوا يطوفون حول الكعبة عرايا ويقولون « لانطوف بثياب عصينا الله فيها » ، ولكن كان من بينهم من يطوف مرتديا ثيابه ويعرف أولئك بالحمس .

وقد حرم هؤلاء الحُمس على أنفسهم ، أثناء إحرامهم ، بعض الطعام ، فكانوا لايأكلون السَمن ولايقدحونه ولايأكلون الزبد ولايستظلون بالوبر والشعر مادامو حــرماً ولا يتناولــون شيئاً مــن نبات الحــرم . فحرّم الله تعالى ما جاء به الحُمس ، فقال فـــى ذلك : ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ .

وكانت بعض قبائل العرب الوثنية تعبد الجن ، ولقد ذكر الله تعالى ذلك فى سورة سبأ (الآيات ٤٠-٤١) فى قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ . وكانوا يعتقدون بتشكل الجن فى أشكال حيوانات مخيفة ، واعتقدوا أن الحيات هى بنات الجن ، وجعلوا بين الجن وبين الله نسبا ، وقد قال الله عنهم ذلك : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجن نسبا ﴾ .

وكان صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله ، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم عند الله ، وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ .

- وإضافة إلى الديانة الوثنية عرف عرب قبل الإسلام اليهودية والمسيحية والمجوسية والديانة الحنيفية .

أما بالنسبة لليهودية فإن اليهود جاءوا من فلسطين إلى الحجاز ، وكانت فلسطين إمتداداً طبيعياً للحجاز ، جاءوا للإتجار وللإقامة خاصة بعد فتوح الدول الكبرى لفلسطين واستيلائها عليها وإجبارهم اليهود على الخروج منها والشتات . فكانت منطقة الحجاز من المناطق الملائمة المناسبة لهجرة اليهود إليها واستقرارهم فيها وبخاصة فى المناطق الزراعية الخصبة وحيث تتوافر المياه . ولقد تقدمت بعض جماعات منهم فى الزمن القديم من الحجاز وأنساحت إلى اليمن واستقرت

هناك . وما كُتب عن تاريخ اليهود القديم في جزيرة العرب جاء مما ورد فى القرآن الكريم وكتب التفسير والسيرة ، لذلك فإن مادتنا عن تاريخ اليهود فى جزيرة العرب لايبعد إلى عهد بعيد عن الإسلام .

وكانت منطقة يثرب المركز الأكبر لليهود عند ظهور الإسلام ، أما اليمن فقد كان قد قل شأنهم فيه بسبب ما تعرضوا له هنالك على يد الأحباش حين حكموا تلك البلاد . وأما شرق جزيرة العرب فلقد كانت فيها جاليات يهودية صغيرة عند ظهور الإسلام واحتفظت بديانتها على أن تدفع الجزية للمسلمين . وأما منطقة نجد فلم يشر أهل الأخبار إلى وجود يهود فيها ، لكن ذلك لاينفى من ذهاب أسر يهودية إليها للإتجار معها أو الاستقرار فيها .

ولقد رجح سكن اليهود فى المدينة وهجرتهم إليها عقب سقوط دولتهم فى فلسطين على يد الأمبراطور الرومانى تيتوس سنة ٧٠ ميلادية وطردهم من أورشليم وتحريمه سكناهم فيها .

وسكن اليهود يثرب من بنى عكرمة وبنى ثعلبه وبنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وبنى بهدل وبنى عوف وبنى القصيص . وكان يسكن معهم بطون من العرب يمنية وقيسية . وكانت السيادة لليهود في يثرب حتى جاء الأوس والخزرج من اليمن بعد إنهيار سد مأرب ، فنزلوها واستغلوا الخلافات التى كانت قد وقعت بين اليهود ، فتغلبوا عليهم وسيطروا على المدينة وقسموها بينهم فلم يستمر سلطانهم منذ ذلك الوقت عليها .

وكانت يثرب عند هجرة الرسول إليها فى أيدى أصحابها الأوس والخزرج ، ولليهود آطامهم وقلاعهم فى خيبر وتيماء وفى بعض قرى وادى القرى ، وفى أعالى الحجاز وفى جنوب يثرب . ولم يتمكن اليهود فى جزيرة العرب من إنشاء ممالك أو حكومات لهم يحكمها حكام يهود منهم ، بل كانوا مستقلين فى حماية سادات القبائل العربية ، ورؤسائها عليهم . وقد لجأوا إلى عقد المحالفات

مع هؤلاء الرؤساء العرب ، فكان لكل زعيم يهودى حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب المتحضرين .

والديانة اليهودية لم تستهو العرب بسبب تعقيد طقوسها ، وبسبب إختلاف لغة كتابها عن لغتهم . كذلك لم يسع اليهود إلى نشر ديانتهم بين العرب لأنهم يعتقدون أن الله تفردهم بها وأنهم شعب الله المختار ، ولذلك لم تكن اليهودية ديانة تبشيرية . فاقتصر الوجود اليهودى فى الحجاز وبخاصة يثرب على اليهود الأصُل الذين هاجروا من فلسطين إلى الحجاز إما أيام شتاتهم الأول على يد البابليين ، أو أيام شتاتهم الثانى على يد الروم .

- أما اليمن فلقد أفرخت اليهودية فيه واعتنق بعض أهله اليهودية وظلوا على يهوديتهم ، وإن ضعفت بدخول الحبشة فيها ، إلا أنها بقيت مع ذلك محافظة على كيانها وبقيت قائمة فى هذه البلاد فى الإسلام . كذلك لم يجل أهلها عنها كما أُجلى باقى اليهود عن جزيرة العرب وظلوا بها حتى العصر الحديث وقد تكلم اليهود اللهجات العربية التى كان يتكلم بها أهل المناطق التى كانوا ينزلونها مع احتفاظهم بلغتهم العبرانية التى كانوا يستعملونها فى دراسة أمور ملتهم .

ولقد كان لليهود حرية عبادتهم فى جزيرة العرب ، وكانوا يعبدون إلهاً أسموه « يهوا » وحادوا عن شريعة موسى وغيروا فى التوراة وحرفوا فيها .

وقد كانت لليهود مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم وأخبار أنبيائهم وما جاء فى التوراة والتلمود والمشنا من كتبهم المقدسة ، تعرف بالمدراش ، أى درس نصوص التوراة وشرحها وتفسيرها . وعرفت مواضعهم التى كانوا يصلون بها بالمحاريب ، وهى جمع محراب ، كما عُرف علماؤهم باسم

الأحبار والربانيين . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من رجال اليهود الأحبار الذين أدركوا الإسلام ، وفى مقدمتهم عبد الله بن صورى الأعور ، ويُطلق لفظ « رابى » عند اليهود على العالم المتبحر عندهم فى علوم الشريعة ، فهى بمعنى أستاذ فى الدين ، ويخاطب بها رجال الدين عموماً عندهم . وقد كان للأحبار وللربانيين نفوذ عظيم على اليهود . وكان بعض هؤلاء الأحبار من المقيمين فى الجزيرة العربية فى المواطن التى أقام فيها اليهود ، وبعض آخر منهم كان يأتى من طبرية فى فلسطين بعد أن انتقل إليها « السنهدريم » (مركز اليهود الدينى فى فلسطين) ، بعد خراب أورشليم ، وفيها جُمعت (المشنا) وهى مجموعة التفاسير الواردة عــن أحكــام التوراة . وقد رتب المشنا وجمعها الرابى يهودا الناسـى فـى أوائـل القـرن الثالث للميلاد ، وقد تضمنت المشنا وأسفارها الستة ما ورد عن أسلاف اليهـود من آراء فى الحلال والحرام والإباحة والحظر وما ورد من حل لمشكلات لها علاقة بتنظيم شئون الأفراد .

وتُعتبـر المشنا أحـد جزءى التلمـود ، ويُعرف الجـزء الثانى مـــن التلمود « بالكِمارة » ، وهى : مجموع المناظرات والتعاليم والتفاسير التى قام بها أحبار اليهود بعد الفراغ من وضع المشنا ، أى أن الكِمارة عندهم تكمل المشنا ، وأطلقوا على الأثنين إسم التلمود ، (وهى كلمة تعنى بالعربية : التعليم والتهذيب) .

وللتلمود قدسية عظيمة عند اليهود ، وهو يماثل التوراة عند الربانيين ، والتوراة وحى مكتوب ، لكن التلمود عندهم وحى غير مكتوب ، وهم يدعون أن الله أمر موسى ألا يكتبه ، لذا عُرف عندهم بالتوراة الشفوية والغير مدونة .

ولقد أطلق القرآن الكريم لفظة « توراة » على أسفار اليهود ، وهى كتبهم

المقدسة ، وعُرفت بهذه التسمية فى كتب الحديث والتفسير ، وهى تقابل فى العبرية معنى : الشريعة . وتتكون توراة اليهود التى تعرف بكتاب العهد القديم من خمسة أسفار هى : سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر اللاويين ، وسفر العدد ، وسفر تثنية الإشتراع ، ويقول قدماء العبرانيين أن هذه الأسفار الخمسة هى الأسفار المنزلة المكتوبة التى نزلت على موسى على جبل الطور فى سيناء .

وقد عُرف يهود يثرب بمعرفتهم السحر وكيفية الإتقاء منه بالتعاويذ ، فكان المشركون يلجأون إليهم إذا إحتاجوا لتعاويذ تفك عنهم السحر . ومعارفنا عن اليهودية فى جزيرة العرب مستمدة من الموارد الإسلامية ، ذلك لاصطدام الرسول بهم حين هاجر إلى يثرب ، وأقام الدولة الإسلامية هناك . وقد ثبت أن النبى لم يصطدم باليهود وهو فى مكة فى بدء الدعوة إذ لم يكن لليهود بمكة آنذاك شأن يُذكر . ولقد اتخذ اليهود موقفا « عدائيا » من الإسلام وهو فى أول خطواته وذلك لإيمانهم بأنه الرسول الحق الذى كانوا ينتظرون مبعثه وقد ذكر اسمه فى كتبهم ، وقد جاء من العرب وكانوا يتوقعون أن يكون من بنى إسرائيل . ولذلك حاربوه وحاربوا دعوته لأنها لم تجعل السيادة فى الأرض لشعب بنى إسرائيل كما كانوا يرغبون ، بل جعل السيادة فى الأرض لكل مسلم يعتنق هذا الدين الجديد ونادى بالمساواة بين الناس وبعبودية عموم الخلق لله الواحد القهار . ولقد حاول زعماء اليهود فى المدينة الاتفاق مع المشركين ضد رسول الله ومحاربته وتحزيب الأحزاب ضـده ، ومن هؤلاء : سلام بن أبى الحقيق النضرى ، وكنانه بن الربيع ، وحيىُ بن أخطب ، وسلام بن مشكم ، وكعب بن الأشرف .

وقد رفض اليهود الدخول فى الإسلام وأبوا تغيير دينهم ورفضوا التسليم بما جاء فـى رسالة الرسول من أنه أُرسل للناس كافة وعامة وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين . وأن القرآن كتاب مُنزل من عند الله وأن أحكامه مؤيده لما جاء فى

التوراة الحقيقية ناسخة لبعضها ، وقدجادلوا الرسول في ذلك وجادلوه في دعوته ، وبدأت خصومتهم للرسول وللإسلام في أول الأمر خصومة فكرية ثم تطورت هذه الخصومة إلى معارك وحروب .

وقد كان بالمدينة ثلاث قبائل يهودية كبرى ، هم الذين وقع بينهم الصدام وبين النبى ، وهم يهود بنى قينقاع ، ويهود بن النضير ، ويهود بنى قريظة ، وكانت خيبر من أهم معاقل اليهود وأغناها فى الحجاز ، وكان يهودها أقدم عهداً بالحجاز من غيرهم . كذلك سكن اليهود تيماء ووادى القرى وفدك وتبوك .

ويذكر أهل الأخبار والسير أن يهود يثرب كانوا إذا تضايقوا من الأوس والخزرج هددوهم بقرب ظهور نبى يستعلون به عليهم ، وكانوا يقولون لهم : « إن نبياً يبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

ولقد كان اليهود آنذاك ينتظرون النبى محمد ، ولذلك سألوا يوحنا المعمدان : (ألنبى أنت ؟ أجاب كلا) ، واستجابة لتساؤلات اليهود أخبر المسيح بأن إسم النبى هو أحمد وبما أن الأناجيل مكتوبة باليونانية فقد ترجمت كلمة أحمد إلى « بيركلوتوس » ثم أعيدت ترجمتها إلى العربية فكتبت أولا (فارقليط) ثم أصبحت المعزى والمؤيد . وقد وردت بشارة المسيح بمحمد بلفظ (مسيًا) فى إنجيل برنابا (الفصل ٩٧) ، فقد سأل الكاهن اليهودى المسيح : « ماذا يسمى مسيا وماهى العلامة التى تعلن مجيئه ؟ فأجاب يسوع : « إن إسمه المبارك محمد » ، وكذلك وردت البشارة بالمسيا فى الفصل السابع .

وقد أشير فى القرآن الكريم إلى انتظار اليهود لنبى آخر الزمان وكفرهم به بعد ظهوره ، فقال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عندالله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ .

ولم تكن اليهودية وحدها هى التى وجدت طريقها إلى بلاد العرب ، ولكن تلتها فى ذلك الديانة النصرانية ، التى جاءت دون أن تقتصر على شعب من الشعوب مثلما فعلت اليهودية ، ولكنها جاءت ديانة عالمية لكل البشر ، وقد قام رجال الدين النصارى ، منـــذ أول نشأتها ، بالتبشير بها وبنشرها بين الشعوب ، وبذلك تميزت عـــن اليهودية التى تجمدت وتعصبت واقتصرت على بنى إسرائيل .

على أن المسيحية قبل أن تدخل بلاد العرب كانت قد انقسمت على نفسها فرقاً وشيعا ، كان أشهرها فى الشرق ثلاثة فرق هى : اليعاقبة (المونوفيزيت) ، وكانت منتشرة فى مصر والنوبة والحبشة . والنساطرة ، وكانت منتشرة فى الموصل والعراق وفارس ، والملكانية ، وكانت منتشرة فى الشام وبلاد المغرب وصقلية والأندلس . وكان بين هذه المذاهب جدال واختلاف فى صميم العقيدة وهو حول طبيعة الإله وعلاقة المسيح به ، وعلاقة السيدة مريم العذراء . فاليعاقبة كانوا يرون أن المسيح هو الله وأنه وإن كانت له طبيعتان : طبيعة بشرية وطبيعة إلهية ، فإنه أصبحت له طبيعة واحدة بعد أن ذابت الطبيعة البشرية فى الطبيعة الإلهية . وكان المبشر بهذا المذهب فى الشرق القسيس يعقوب البراذعى فنُسب أتباعه والآخذون برأيه إليه ومن ثم عرفوا باليعاقبة . أما الملكانية والنساطرة فقالوا أن للمسيح طبيعتين متميزتين ، الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية ، وإن إختلفت الطائفتان فى تفاصيل العلاقة بين هاتين الطبيعتين .

وقد استمر الخلاف بين هذه الفرق طويلاً حول ذات الله وذات المسيح ، كذلك اختلفوا فى تفصيلات كثيرة تمس عقيدتهم ولازالوا يختلفون . وقد لجأت المسيحية إلى الفلسفة اليونانية لتستعين بها على الجدل ولتؤيد تعاليمها وعقائدها ضد الوثنيين فى العالم جميعاً ، وضد الوثنيين العرب . ولم تلق المسيحية ترحيبا ، بسبب طقوسها المعقدة وكهنوتها المبهم ، فى كل جزيرة

العرب ، ولم يعتنقها جميعهم . ولكن إعتنقها سكان أطراف شبه الجزيرة وكان سبب ذلك إتصال هذه الأطراف بطرق القوافل البرية والبحرية فى البلاد التى انتشرت فيها المسيحية ، ومجىء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل إليها ، واغتنام فرصة وجودهم فى هذه البلاد لنشر دينهم فيها .

والكتاب المقدس عند المسيحين الذى عرفه العرب ، هو كتاب العهد الجديد ، الذى يضم إلى كتاب العهد القديم ويعرفان بكتابى العهد ، ويعرف أيضا باسم الأنجيل ، وقد وردت كلمة الأنجيل فى القرآن الكريم ككتاب مقدس . ففى سورة التوبة (آية ١١١) يقول تعالى : ﴿ وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن .. ﴾ وفى سورة آل عمران (٣ ، ٤) : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ وفى سورة المائدة (٤٧ ، ٦٦ ، ٦٨) : ﴿ وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ﴾ ، ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم ﴾ ، ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ ، ويفهم من النصوص القرآنية أن الانجيل هو كتاب أنزله الله على نبيه عيسى بن مريم . وأن الأناجيل المسيحية الموجودة الآن ، هى كتب تنسب إلى الرسل ، ويعنى بهم حواريى عيسى وتلاميذه ، وهى تروى مسيرة حياته وبعض معجزاته وبعض وصاياه وتعاليمه وموقف الحكام الرومان واليهود منه حتى زعم المسيحيين صلبه ثم بعثه من جديد . . وهذه الأناجيل وعددها خمسة : متى ، ومرقص ، ولوقا ، ويوحنا ، وبرنابا . وتعترف الكنائس المسيحية بالأربعة أناجيل الأولى ولا تعترف بانجيل برنابا ، ويدعى رجال الكنيسة أنه إنجيل موضوع وأن أحد المسلمين فى العصور الوسطى قد قام بتأليفه ، لما فيه من تعاليم تتفق مع تعاليم الإسلام بصدد المسيح ورسالته وتناقض ما هو موجود فى الأناجيل الأخرى التى تعكس الاعتقاد الحق عند المسيحيين .

والأمور الجوهرية التى يختلف فيها إنجيل برنابا عن باقى الأناجيل المسيحية

المعتمدة من الكنيسة هي :

أولها : قوله أن يسوع (المسيح) أنكر ألوهيته وكونه إبن الله وذلك على مرأى ومسمع من ٦٠٠ ألف جندى وسكان اليهودية من رجال ونساء وأطفال .

والثانى : أن الإبن الذى عزم سيدنا إبراهيم الخليل على تقديمه ذبيحة لله إنما هو إبنه البكر إسماعيل وليس إبنه اسحق .

والثالث : أن (مسيا) ، أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع بل محمد ، ولقد ذُكر محمداً باللفظ الصريح المتكرر فى فصول كثيرة وورد عنه فيه أنه رسول الله وأن آدم لما طرُد من الجنة رأى مسطوراً فوق بابها بحروف من نور (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

والرابع : أن يسوع (المسيح) لم يُصلب بل حُمل إلى السماء وأن الذى صلب هو أحد حوارييه وهو يهوذا الأسخريوطى الخائن الذى شُبه به ، فجاء مطابقاً لما ورد فى القرآن فى هذا الخصوص من قوله تعالى ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبه لهم ﴾ .

وأياً كان أمر هذه الأناجيل ، فإن علماء المسلمين يرون أنها ليست الكتاب المقدس الذى نزل على عيسى ، وأنها روايات رواها تلاميذه وحواريوه (الذين عُرفوا بالرسل) وفى رأيهم أن الانجيل الحقيقى قد ضاع ولا يُعلم مصيره ، كما ضاعت التوراة من قبل . لذلك كانت رسالة محمد والقرآن الذى نزل عليه تكملة لرسالة السماء إلى الأرض تكملة للتوراة وللانجيل وناسخة لهما ونهاية للرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى على مر العصور لنشر رسالة التوحيد وعبادة الله الواحد خالق الخلق أجمعين .

• وإذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة ، فإن دخول المسيحية إليها كان غالبه بالتبشير وبدخول بعض النساك والرهبان إليها للعيش فيها

بعيدين عن ملذات الدنيا وهرباً من إضطهاد الحكام لهم بسبب مخالفتهم لمذهب الحكومة الملكانى . كذلك وفد إلى جزيرة العرب بعض الرقيق النصارى الأبيض والأسود المستورد من أقطار كانت قد إنتشرت فيها المسيحية . أما هجرة مسيحية كهجرة اليهود إلى الحجاز واليمن فلم تحدث ، ذلك لأن المسيحية حين صارت ديانة رسمية لقياصرة الروم لم تظل هى الأقلية فى الأمبراطورية البيزنطية ليضطر معتنقوها إلى الهجرة الجماعية إلى بلاد غريبة . ويفضل ما كان للمبشرين من علم ومن وقوفهم على الطب والمنطق والفلسفة استطاعوا أن يؤثروا فى النفوس ، وتمكنوا من اكتساب بعض سادات القبائل فأدخلوهم فى دينهم ؛ أو حصلوا منهم على مساعدتهم وحمايتهم .

وقد أثرت الأديرة تأثيراً مهماً فى تعريف التجار العرب والأعراب بالمسيحية ، وقد وجد هؤلاء التجار فى أكثر هذه الأديرة ملاجىء يرتاحون فيها وأماكن يتزودون منها بالماء ، كما وجدوا فيها أماكن للهو والشراب . وقد بقيت شهرة تلك الأديرة بالخمور قائمة فى أيام الإسلام . ومن هؤلاء الرهبان ومن مشاهدتهم لهم وهم يقومون بشعائرهم الدينية عرف هؤلاء العرب الوافدون عليهم شيئاً عن ديانتهم . وقد أشير إلى هؤلاء الرهبان الناسكين فى الشعر الجاهلى .

ومن الطبيعى أن يكون انتشار المسيحية فى بلاد العرب بالأطراف الشمالية لها على حدود العراق والشام واضحاً بسبب علاقة هذه البلاد بالدولة البيزنطية المسيحية وعلاقة الإمارات العربية التى قامت بها هناك وبخاصة إمارة الغساسنة .

ويلى عرب الشام فى انتشار المسيحية بينهم عرب العراق لاحتكاكهم بالنصارى الذين هربوا إلى بلادهم من اضطهاد أباطرة الروم لاعتناقهم المذهب النسطورى ولجوءهم إلى منطقة الحيرة والأنبار واقامتهم فى مدينة جنديسابور . وبرغم أن انتشار المسيحية فى العراق لم يكن فى مصلحة الفرس الذين كانت تخضع لحكمهم ، إلا أن الفرس كانوا مثل اليهود لايبشرون بدينهم ولم يكن

همهم دخول غير الفرس فيه ، وهذا مما صرف الحكومة الفارسية عن الاهتمام بأمر أديان الشعوب الخاضعة لها من غير أبناء جنسها . ثم إن المسيحيين الذين لجأوا إلى بلادهم كانوا من أعداء أعدائهم الروم ولم يكونوا على مذهبهم وهربوا إلى تلك البلاد هروباً بدينهم ولهذا لم تجد الحكومة الفارسية من هذه الناحية ما يهدد سياستها بالأخطار فغضت النظر عنها مما أدى إلى حرية النصارى فى ممارسة عبادتهم هناك وحرية مبشريهم فى إدخال أعداد من أهل العراق فى هذا الدين .

ووجدت المسيحية لها مواضع أخرى للانتشار غير أطراف الشام والعراق ، فانتشرت فى أطراف شبه الجزيرة بسبب التجارة ، وبسبب إتصال هذه الأطراف بطرق القوافل البرية والبحرية فى البلاد التى انتشرت المسيحية فيها ومجىء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل إليها . فكان هؤلاء التجار يغتنمون فرصة وجودهم فى البلاد التى ينزلونها لنشر دينهم فيها . ولاتصال الحجاز بفلسطين ، مهد المسيحية ، وببقية بلاد الشام كان من الطبيعى مجىء المسيحية منها ودخولها هذه البلاد . ونجد فى أخبار الفتوح مايشير إلى أسماء أمراء عرب مسيحيين كانوا يحكمون جملة مواضع من أعالى الحجاز صالحهم الرسول على أداء الجزية مثل أمراء : دومة الجندل ، وأيله ، وتيماء ، وأذرح .

وكان بعض أهل مكة والطائف وبقية أنحاء الحجاز قد إعتنق المسيحية وأخذوها عن أهل الحيرة ، الذين كانوا يتجرون معهم ، وقد كان لهذه الإمارة ، على بعدها عن مكة ، أثر ثقافى ودينى خطير فى أهل مكة على ما يفهم من روايات أهل الأخبار .

أما اليمن التى عرفت اليهودية فقد عرفت أيضاً المسيحية ، بل حدث صراع بين الديانتين هناك كما رأينا فى القصص المروى عن شهداء نجران فى حادث الأخدود الذى أورده القرآن فى سورة البروج .

وزعم بعض الأخباريين أن الذى أدخل المسيحية ونشرها بين الحميريين اليمنيين هو التُبع عبد كلال بن مثوب الذى اعتنق المسيحية على يد الغساسنة حينما كان عندهم ببلاد الشام . وورد أيضاً فى الأخبار أن الأمبراطور البيزنطى قنسطنطين الثانى (٣٣٧ - ٣٦١ م) قد أرسل مبشرين من عنده إلى اليمن ليقيموا الكنائس هناك وحتى تكون هذه الكنائس منفذا لهم لدخول هذه البلاد الغنية والاستفادة من حاصلات زراعتها وموارد تجارتها .

وقد كانت نجران أهم مواطن المسيحية فى اليمن ولعلها كانت الموطن الوحيد الذى رسخت فيه هذه الديانة فى هذه البلاد . وقد اشتهرت نجران بالبيعة التى أقامها الأحباش بها وعُرفت بكعبة نجران التى عرفها العرب باسم القُلَّيس ، وهو من أصل إكليسيا Ecclysia اليونانى ، بمعنى كنيسة ، وموضعها الآن جامع صنعاء .

أما بقية جنوب شبه جزيرة العرب وشرقيها ، فقد عرفت المسيحية بتأثير التبشير أيضاً ، أما منطقة نجد ووسط شبه الجزيرة فلم يرد فى روايات أهل الأخبار ورود التنصير بين أهلها ولكن هذا لايعنى انتفاء وجود بعض النصارى فيها وقعود المبشرين عن الذهاب إليها .

وهناك طائفة لأسماء مسيحية خالصة تسمى بها نفر من عرب الجاهلية قبل الإسلام ، مثل : عبد المسيح ، وعبد يشوع ، وعبد يسوع ، وعبد عذراء ، وأبجر ، وبولس ، وجرجس ، وسمعان ، وحنين ، ومن أسماء النساء : مارية ، مريم ، وحنة ، وبتول .

وعرف عرب ماقبل الإسلام بعض الأعياد المسيحية ، مثل : عيد الشعانين ، وعيد الفصح ، وعيد القيامة ، واحتفلوا بمناسبات هذه الأعياد ، وكان من أظهر مظاهر احتفالهم بها إيقاد المشاعل والقناديل والمسارج فى كنائسهم التى كانوا

يقصدونها للاحتفال بها . وقد شيد أهل الحيرة ونصارى الشام كنائس وأديرة كثيرة للتعبد فيها ، وردت أسماء الكثير منها فى الشعر الجاهلى .

وكان لرجال الدين مكانة ممتازة فى نفوس نصارى الجاهلية ، فكانوا يسجدون لهم إذا رأوهم ويقبلون أيديهم وأطرافهم ويتمسحون فى أثوابهم ، كما كانوا يقدمون القرابين والنذور لهم . وقد كانت لرجال الدين المسيحيين فى جـزيرة العرب تسميات خاصة ، مثل البطرك ، والبطريق ، والجاثليق ، والأسقف ، والمطران .

وقد كان للمسيحية أثر كبير فى نشر الكتابة النبطية ، المأخوذة من الآرامية ، بين عرب الجاهلية ، ومن هذه الكتابة أشتق الخط الإسلامى الأول . كذلك كانت المسيحية عاملاً مهماً فى إدخال الأفكار اليونانية والهيلنستية والسريانية إلى نصارى العرب ، فقد كانت الكنيسة مضطرة إلى دراسة اليونانية والآرامية لما لهما من قدسية خاصة نشأت من صلتهما بالأناجيل . وقد كان أثر الآرامية أهم فى الكنيسة الشرقية من اليونانية لكونها لغة الثقافة فى منطقة الهلال الخصيب فى ذلك العهد . ولهذا وجدنا معظم المصطلحات الدينية عند نصارى الشرق من هذه اللغة ، ومنها أخذها النصارى العرب فصارت عربية ، وقد كان السريان قد نقلوا بعض مؤلفات اليونان واللاتين إلى لغتهم ، وقد نقلت هذه المؤلفات بعد ذلك إلى العربية .

وكان للمسيحية أثر آخر ، أيضاً ، فى نصارى عرب ما قبل الإسلام ، وهو أثرهم فيهم من ناحية الفن ، إذا أدخلت بين العرب لوناً جديداً من فن العمارة والبناء تتمثل فى بناء الكنائس والأديرة بما فيها من تصاوير ونقوش وزخرفة وتماثيل .

ولقد عرف العرب قبل الإسلام المجوسية الفارسية ، كما عرفوا اليهودية والمسيحية . والمجوسية ، هى الزرادشتية ، ديانة الفرس أتباع زرادشت ، وهى ديانة

ثنيويه يؤمن أصحابها بوجود إلهين : إله للخير ، وهو إله النور عندهم ويُعرف بإسم أهرمزدا ، وإله الشر ، وهو إله الظلمة عندهم ويعرف باسم أهرمن . ولهم كتاب مقدس عندهم يعرف بالأفستا . ومعتنقو هذه الديانة يوقدون النار فى معابدهم ، ظناً منهم أنها تعين إله الخير على الإنتصار فى حربه ضد إله الشر .

وقد وردت لفظة مجوس فى القرآن الكريم (سورة الحج : ١٧) وردت علماً لدين . فدل ذلك على وقوف أهل الحجاز على خبرهم ومعرفتهم بهم . قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾ . وربما لايستبعد وجود أعداد منهم فى مكة والمدينة والطائف وفى مواضع أخرى ، جاءوا مع تجارة الرقيق ، وكانوا من رقيق الفرس الذين وقعوا أسرى وبيعوا فى الأسواق . ولابد أن يكون أهل مكة التجار قد وقفوا على خبر مجوس فارس أثناء ذهابهم للاتجار مع أهل هذه البلاد قبل الإسلام . كذلك كان منهم من يذهب للمتاجرة مع بلاد البحرين ، وكانت المجوسية منتشرة فيها ، فعرفوها هناك وتبينوا أمرها .

ولم يذكر أهل الأخبار عن دخول قبائل عربية فى المجوسية ، وقد كان معظم مجوس جزيرة العرب من الفرس المقيمين فى العراق والبحرين واليمن وعُمان . وكان مجوس اليمن من الفرس الذين عرفوا بالأبناء ، وكانوا جنودا أرسلهم الملك كسرى لطرد الأحباش من اليمن وكانوا على هذا الدين ، دين دولة فارس الساسانية . وكان مجوس عُمان والبحرين أيضاً من الفرس الذين هاجروا إلى هذه البلاد واستقروا فيها .

وليس فى الشعر الجاهلى شىء ما عن المجوسية ، وقد ذكر الأخباريون أن المجوسية دخلت فى قبيلة تميم ، وقد تمجس بعض رجالهم الذين اتصلوا بالفرس . لكن الظاهرة الراضحة أن المجوسية لم تنتشر انتشاراً كبيراً خارج بلاد

فارس بسبب عدم ميل الفرس إلى إدخال أحد من الغرباء فى دينهم وإعتبارهم المجوسية ديانة قومية خاصة بهم ، وهم يشبهون اليهود فى هذا الأمر .

وقد عُرف عالم المجوس ورئيسهم الروحى بين العرب اسم الموبذ والموبذان ، وهو بمنزلة القاضى عند المسلمين ، ويتمتع هذا الرئيس الدينى الأعظم عندهم بسلطات دينية واسعة .

وقد ظلت المجوسية قائمة فى بلاد فارس والعراق وجنوب شبه الجزيرة العربية ، حتى فتح الإسلام هذه البلاد ، وتحول أهلها عنها إلى الإسلام . وكانت قد دخلت على المجوسية بعض حركات دينية فارسية أخرى مشتقة عنها عُرفت إحداها بالمانوية وعُرفت الثانية بالمزدكية ، وقد قامت الدولة الساسانية بمحاربة هذه الدعوات إلا أن أفكارها ظلت قائمة حتى تحول دولة الفرس إلى الإسلام . ولقد أثرت هذه التعاليم الدينية الفارسية فى الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول وتسببت فى ظهور بعض الحركات الهدامة التى استهدفت الإسلام والمجتمع الإسلامى كحركة الراوندية والمقنعية والخرمية والزندقة . وقد تصدى خلفاء العصر العباسى الأول لهذه الحركات وقضوا عليها فى مهدها . هذا ومن المعروف أن الإسلام أخذ الجزية من المجوس الذين ظلوا على ديانتهم غداة الفتح الإسلامى لبلادهم باعتبارهم أهل كتاب واقتداءً بما فعله الرسول عليه السلام مع مجوس البحرين ، ومافعله الخليفة عمر مع مجوس العراق وفارس حين فُتحت بلادهم فى عهد خلافته .

وكان من بين العرب قبل الإسلام جماعة عُرفوا بالمتحنفين والأحناف ، والحنفاء ممن كانوا على دين ابراهيم ولم يشركوا بالله أحدا ، ولم يدخلوا فى يهودية ولا مسيحية ولم يعبدوا الأصنام بل عابوا على عابديها عبادتها . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال قالوا عنهم أنهم أنكروا ديانة آبائهم وأجدادهم التى

كانت تتمثل فى عبادة الأصنام والأوثان ، ولم يعبدوا النجوم ولا الكواكب مثلما فعلت فرقة الصابئة ، ولم يعتنقوا اليهودية ولا المسيحية وكانوا فى البلاد يطلبون الهداية للدين الصحيح وعبادة الله الحق . وقد إهتدى بعض هؤلاء إلى المسيحية ولكن معظمهم لم يدخل فيها لأنه لم يجد فيها ما كان يبحث عنه من توحيد خالص ومن إيمان بإله واحد قهار خالق هذا الكون ومُسيره . ومنهم من مات على اعتقاده هذا ، ومنهم من لحق بالإسلام فوجد فيه ضالته واعتنق هذا الدين القويم .

ومن هؤلاء الأحناف الموحدين : قُس بن ساعدة الأيادى ، وزيد بن عمرو إبن نفيل ، وأمية بن أبى الصلت ، وأرباب بن رئاب ، وسويد بن عامر المصطلقى، ووكيع بن سلمة بن زهير الايادى ، وعمير بن جندب الجهنى وصرمة بن أبى أنس ، وورقة بن نوفل القرشى ، وعامر بن الظرب العدوانى ، وعلاف بن شهاب التميمى ، وزهير بن أبى سلمى الشاعر ، وكعب بن لؤى إبن غالب ، وآخرون .

ولقد كان سيدنا ابراهيم الخليل قدوة لهؤلاء الأحناف . الذى قال فيه الله تعالى : ﴿ وما كان ابراهيم يهودياً ولانصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين ﴾ .

ونجد فى القرآن الكريم إشارة إلى الصابئين ، وقد ذكروا بعد اليهود والنصارى فى موضع من سورة البقرة : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين .. ﴾ وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى فى موضع من سورة المائدة وسورة الحج : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى .. ﴾ ، ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ... ﴾ وقد ربط العلماء الإسلاميون بين هؤلاء الصابئة المذكورين فى القرآن الكريم ، وبين

صابئة حران وصابئة العراق ، وجعلوهم طائفتين فى الأصل : طائفة هم صابئة حنفاء ، وهم فى نظرهم أصحاب إبراهيم ممن كانوا بحران وكانوا على دعوته ، وصابئة مشركون وهم من فسدوا من الصابئة وتحولوا عن ملة إبراهيم فعبدوا الكواكب وأشركوا .

ولقد كان المشركون من القرشيين يعتبرون من خرج عن ملة آبائهم وأجدادهم وعبادة أصنامهم صابئاً ويطلقون عليه لفظة صابىء ، وقد أطلقوها على الرسول نفسه وكذلك أطلقوها على الصحابة وعلى كل من خرج عن دين قومه . فالصابئون فى حكم العرب ، هم الخارجون عن عبادة قومهم والمخالفون لهم فى ديانتهم ، ولما كان الأحناف قد انشقوا عن قومهم فى مخالفتهم لهم وعدم القيام بعبادة الأصنام كذلك صاروا فى نظر المشركين صابئة .

ويلاحظ أن المشركين أطلقوا هذه التسمية على كل من أسلم ، وعلى كل من شكوا فيه ورأوا أنه ميال للإسلام ، فكانوا يرمونه بهذه التهمة . أما المسلمون ، فلم يرتاحوا إلى هذه التسمية وكانوا يرونها سبة بالنسبة إليهم عند ظهور الإسلام بدليل أنهم كانوا يكذبون من كان يطلقها من المشركين عليهم ويردون عليهم رداً شديدا . ومن الضرورى أن يفهم من هذا الرد الشديد أن المسلمين كانوا لايرون صلة ما بين قواعد دينهم الحنيف وبين الصابئة ، ولو كانوا قد رأوا ذلك لسكتوا وتقبلوا هذا الوصف قبولاً حسنا كما تقبلوا إطلاق صفة الأحناف عليهم لما كانوا يرون من أن الأحناف هم سلف المسلمين وأن جدهم إبراهيم كان حنيفا وكان أول المسلمين .

هذه هى العبادات التى كانت قائمة فى مجتمع جزيرة العرب قبل الإسلام ، ونرى أنها خليط بين الوثنية والديانات الكتابية التى اختلطت بها الوثنية ، وهو

وضع جعل معظم العرب يتقبلونه على أساس أنه تراث وتقليد قد وجدوا آباءهم عليه وهم على آثار آبائهم سائرون . وجعل قلة منهم لا تتقبل هذا الوضع وهذه الوثنية وتبحث عن الوحدانية عائدة إلى إتباع ملة أبيهم إبراهيم .

وبصدد معرفة الشعائر التى كان يقوم به عرب الجاهلية فى عباداتهم الوثنية من صلاة وصوم وحج وما شابه ذلك ، فهى للأسف غير معروفة لنا ، ولم تحدثنا المصادر عنها . وقد أشارت الأخبار إلى ورود مثل هذه الشعائر عندهم لكن تفاصيلها لم تصل إلينا بسبب قلة التدوين أو اندثار ما كان قد دون . نعم وجدنا الجاهليين يؤدون شعائر الحج إلى البيت الحرام بمكة ووجدنا شعائر قليلة كانوا يقومون بها والفضل فى معرفتنا هذه تعود إلى الإسلام . فقد دوّن الإسلام شيئا لابأس به عن الحج عند أهل مكة وأطرافها . أما القبائل العربية البعيدة عن مكة فليس عندنا معلومات فى هذا الخصوص بصددهم . وأما صلوات العرب وصيامهم فهى مجهولة بالنسبة لنا إلا معرفتنا لصيام نفر من قريش ليوم عاشوراء تقليداً لصوم يهود المدينة لهذا اليوم .

وعموماً فلقد كان الناس فى جزيرة العرب قبل الإسلام فى تخبط دينى وفى فراغ روحى لم تستطع الوثنية أن تروى عطشهم الروحى ، ولم تستطع اليهودية والمسيحية والمجوسية بطقوسها المعقدة وبعدم خلوص الوحدانية فيها أن تثبت إيمانهم . لذا تطلعوا إلى بزوغ فجر جديد يبدد الظلمات من حولهم وينير لهم طريقهم للوصول إلى العبادة الحقة والدين القويم . وقد بزغت شمس هذا النور يوم ميلاد محمد بن عبدالله الذى أرسله الله تعالى ليهدى الناس أجمعين لعبادة رب العالمين .

تم بحمد الله تعالى

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- كتب الصحاح .
- كتب السنن .
- أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها .
- الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار .
- البلاذرى : أنساب الأشراف .
- جواد على : المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام .
- جورجى زيدان : العرب قبل الإسلام .
- رود كاناكيس : الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ترجمة فؤاد حسنين على .
- ابن سعد : الطبقات الكبرى .
- سعيد الأفغانى : أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام .
- سيد الناصرى : الروم ، تاريخهم وحضارتهم وعلاقتهم بالمشرق العربى .
- ابن شبة : أخبار المدينة .
- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك .
- عبدالله حسن مصرى : الجزيرة العربية قبل الإسلام .
- عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء .
- عطية القوصى : محمد النبى المصطفى .
- فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد .

محتويات الكتاب

صفحة

تقديم : ٥

القسم الأول : تاريخ العرب قبل الإسلام ١٣

- بلاد العرب قبل الإســـلام ١٥

- الممالك العربية قبل الإسلام ٣١

- بلاد الحجاز قبل الإســـلام ٨٥

- الحالة السياسية فى جزيرة العرب عند ظهور الإسلام ١٠٩

القسم الثاني: حضارة العرب قبل الإسلام ١٤٥

- الحياة الاقتصاديـة ١٤٧

- الحياة الثقافيـــة ١٧٧

- الحياة الاجتماعية ٢٠٥

- الحياة الدينيـــــة ٢٢٧

المصادر والمراجع ٢٥٢

رقـم الايـداع
٩٤/٣٥٦٥

I.S.B.N

977-222-062- 8